معيريض مهد طفولتي

د. حجر أحمد حجر البوطامي البنعلي

المحتويات

المقدّمة ٥
تاريخ معيريض ٧
الوالدان ٩
وصف معيريض ٢٦
بيتنا ٣٢
حيوانات بيتنا ٤٢
الخبز في بيتنا ٥٠
المطوّعة ٥٤
المدرسة النظاميّة في رأس الخيمة ٦٢
ماء الشّرب في معيريض ٧٦
معيريض والبحر ٨٠
ظلام الليل في معيريض ٩٣
الأعمال التجاريّة في معيريض ٩٧
الطعام في معيريض ١٠٢
الأمن في معيريض ١٠٧
النشاط الدينيّ ١٠٩
بيت السركال ١١٥
أنا والراديو في معيريض ١١٧
التصييف ١٢١
الداء والدّواء في معيريض ١٣٩
الطرار ١٥٢

معيريض مهد طفولتي

لعَمري إذا (امعيريضُ) طافَ خيالُها — يؤرّقني شوقٌ وتُسكِرُني الذّكرى
نَعِمتُ بها طفلًا، فيا ويحَ ساعَتي! — فيا ليتني طفلٌ على سِيْفها أعرى
فألعبُ فوق السيفِ في الصبحِ حافيًا — وأنثرُ بالأقدامِ من تُربها تِبرا
وأسبحُ في بحرٍ أغازِلُ قاعَهُ — فهل يا تُرى يومًا أرى ذلكَ البحرا

حجر – بولدر، كولورادو ١٩٦٩

المقدّمة

لقد ولدت في مجتمع غارقٍ في الجهل والأميّة، يكابد المشقّات والفقر، وعناء التغرّب في البحار بين الرياح العاتية، والأمواج الطاغية. لم يعرف رفاهية العيش ولا التقنيّات الحديثة للراحة والتسلية. ومع ذاك فقد عاش أفراد ذلك المجتمع، ببساطة وهدوء وسلاسة وتشابه، كأسرة واحدة، بتقارب وتعاون وتفاؤل وتواصل بين الجيران، يتحدّى الفقر والبؤس، فلا تظهر على وجوههم إلا الابتسامة والسعادة، راضين بحالهم وقدرهم، الذي توارثوه من آبائهم، فلا يعرفون له بديلًا آنذاك. كان الأب والأم والأبناء والأحفاد يعيشون– في الغالب– في بيت واحد، بمحبّة وتعاون ورضا.

وأنا إذ أدوّن ما أذكره من سيرة طفولتي وصباي في معيريض منذ وعيت لها، فإنّني أبيّن الصورة والمكان والحياة، في مجتمعي في تلك الفترة من حياتي، بين ١٩٤٥–١٩٥٨ فقط؛ أي منذ كنت في الثانية من العمر إلى أن رحلت عن معيريض إلى الكويت للدراسة ثمّ استوطنت قطر الحبيبة مع العائلة بقيت حياتي، منذ عصر الشباب في المدرسة الثانوية إلى زمن الشيب.

ولكوني من هواة التصوير من صغري، فإنّي صوّرت، وأحتفظ بصور نادرة من ذكريات طفولتي في رأس الخيمة، قد لا تجدها عند غيري في معيريض. وأنا أدوّن هذه الذكريات؛ بقصد أن يعرف عيالنا والجيل الجديد كيف كانت الحياة أيّامنا وما مرّ علينا من خير أو شرّ، أما الذين في سنّي من أهل معيريض فلا يحتاجون هذه المعلومات؛ فقد يذكرون أكثر ممّا ذكرت. وأنا وإن أسهبت في ذكريات طفولتي، وفي وصف ما تقوم به أمي في المنزل من نشاط وإعداد الأكلات، لا أتوقع أن أمهاتهم تعملها بطرق أخرى، لأن أمي وأمهاتهم تعلموها من نفس الأجيال السابقة في المنطقة.
لم يكن في معيريض– ولا في العاصمة رأس الخيمة آنذاك– ماء عذب، ولا كهرباء، ولا شوارع معبّدة، ولا مكتبات، ولا صحف، ولا عيادات طبيّة، ولا مستشفيات ولا صيدليّات ولا فنادق ولا مطاعم. ولم تكن في معيريض سيّارات، ولا أسواق، ولا مدارس عدا مدارس القرآن الكريم التقليديّة للأطفال، وتغلب على مدرّسيها الأميّة.

وأنا الآن– وإن كنت أتوق لتلك الفترة من الهدوء والسكينة– لا أرغب في حياة عسيرة مثل تلك، ولكنّي سأصفها هنا بإسهاب؛ ليعرفها عيالي وأحفادي، ويعرفوا كيف كانت حياتنا، وحياة من سبقونا؛ كي يقدّروا كفاحهم، وما مرّ عليهم من شظف العيش.

لقد أمعنت في وصف الحياة الاجتماعيّة وعاداتنا وتقاليدنا وأطعمتنا، وخاصة في الحي الذي نشأت فيه، أثناء تلك الفترة القديمة من العمر، في قصيدتي المطوّلة، التي بلغت ألفًا وخمسة وأربعين (١٠٤٥) بيتًا، أخرجتها في ديوان سمّيته (لاميّة الخليج)؛ فهي مرجع رئيسيّ لحياتي أثناء الطفولة والصبا، وسأقتبس منها الكثير في هذا الكتاب.

تاريخ معيريض

معيريض قرية صغيرة، تقع شمال شرق مدينة رأس الخيمة القديمة، ومُطلّة على خور كان يفصل بينهما أيّام طفولتي، فهي ضمن إمارة رأس الخيمة بدولة الإمارات العربيّة المتّحدة حاليًا. ومعيريض تصغير لكلمة معرض؛ إذ اكتسبت هذا الاسم نتيجة وجود سوق تعرض فيه البضائع بمختلف أنواعها قديمًا، كما سمعت. وهي اسم عَلَم لا تحتاج إلى التعريف (بألـ). ولكنّنا تعوّدنا أن ننطقها (امعيريض)؛ بسبب لهجتنا الخليجيّة، التي تحوّل الكثير من الأسماء التي تبدأ بحرف متحرّك إلى حرف ساكن في النطق، بإضافة همزة الوصل في أوّله. فإن صحّ أنّ اسم معيريض اشتقّ من عرضَ، فهي (مَعرَض) للبضائع، تمّ تصغيره فصار مُعَيرِض، ثم سكّن أوّله بإضافة همزة الوصل المكسورة وأضيفت الياء فصار (اِمْعَيريض). ومثل ذلك في لهجتنا الخليجيّة كثير، مثل: بعير، وحمار، وبقرة، نكتبها فصيحة، وننطقها اِبعير، واحمار، وابقرة.

فلمعيريض حيّز كبير في ذاكرتي، ولكن ليس هناك تاريخ مكتوب عنها، ولا أدري متى خرجت إلى الوجود بالضبط، والراجح أنّها تكوّنت قبل بضعة قرون، ولكن لصغرها لم تعرف. وممّا سمعت من كبار السنّ من أهالي رأس الخيمة، وما قرأت عنها عبر السنين، تكوّنت عندي فكرة غير مكتملة عن تاريخها سألخّصه لكم هنا.

ظهرت معيريض في الخرائط البريطانيّة المؤرّخة كقرية صغيرة عام ١٨٢٢م بأنّها تحتوي بين ١٧ – ٤٥ مسكنًا. وكانت تلك المساكن عبارة عن بيوت مُشيّدة من الحجارة والجص وبعضها أكواخ من سعف النخيل. وكانت أحجام البيوت شبه متساوية ومتناسقة، وعلى شكل معماريّ واحد، مع وجود فناء واسع في وسط كلّ بيت؛ لذلك فإنّ سكّان معيريض الأوائل شيّدوا بيوتهم قرب ساحل البحر من الحجارة والجسّ من جنوب القرية حتّى بيت السركال. وبعد تولّي رضا شاه بهلوي الحكم في فارس سنة ١٩٢٥م وفرض السفور ومنع اللباس الإسلاميّ، فرّ الكثير من عرب الساحل الشرقيّ إلى الساحل الغربيّ من الخليج. أمّا الذين أتوا إلى رأس الخيمة فسكنوا معيريض، شمال بيت السركال، وأنشؤوا بيوتهم من جريد النخل، ثمّ نزحت عائلات من مدينة رأس الخيمة واستقرّت في الجزء الشماليّ منها، وبنت بيوتها من جريد النخل أيضًا. ولمّا كبرت معيريض وتوسّعت، كان التوسّع دائمًا نحو الشرق والشمال، حيث يحدّ القرية البحر غربًا.

فلعلّ زمن تأسيس معيريض موازٍ أو قريب من زمن ظهور «مدينة» رأس الخيمة في البلاد، التي أسّستها قبيلة القواسم بزعامة الشيخ إرحمه بن مطر القاسميّ في عام ١٧٤٧م. وتتميّز معيريض تاريخيًّا بأنّها ذات موقع استراتيجيّ، وتعدّ نقطة دفاع عن رأس الخيمة، ضدّ أيّ غازٍ يأتي من جهة الشمال وجهة الشرق؛ وذلك ليس بسبب إطلالة القرية على البحر فحسب، بل إطلالتها –تحديدًا– على مدخل الخور المؤدّي الى مينائها وميناء رأس الخيمة. فيحدّ معيريض من الشرق والجنوب بر فاض، وأمّا من جهة الغرب فيحدّها رأس أرضيّ داخل البحر يُسمّى «رأس السلاب»، وبالقرب منها كوكب؛ أي ينبوع ماء داخل البحر.

وفي عام ١٩٠٨م كانت المعيريض تحتوي على ١٠ سفن من الحجم الصغير، كانت تُستخدم للغوص على اللؤلؤ. ومن أشهر القبائل التي سكنت معيريض قديمًا قبيلة آل بومهير، وقبيلة السودان وغيرهما من الأسر الكريمة.

فقرية معيريض في رأس الخيمة هي مسقط رأسي، ومهد طفولتي. أحنّ إليها حنيني إلى طفولتي وصبايَ، وكما قلت في (ديوان القصيدة القاسميّة):

ولستُ الذي ينسى مُعيريضَ ساعةً — سأذكُرُها ما لاحَ في الليلِ طارقُ
أحِنُّ إلى امْعيريضَ شوقًا إلى الصِّبا — كما حَنَّ للمعشوقِ مثليَ عاشقُ
نعِمتُ بها والماءُ في الخورِ هادئٌ — وظَهْرٌ يصونُ الخورَ للموجِ عائقُ[1]

وقلت في (ديوان القصيدة الحجريّة):

هامَ الفؤادُ بأيّامِ الصِّبا شَغَفًا — قد هامَ بالرملِ والأسيافِ والحَجَرِ
فالأمسُ مهما نأى يومًا أحنُّ لهُ — أحِنُّ للدارِ والإنسانِ والحَجَرِ

أمّا رأس الخيمة فكانت موجودة بصفتها بلدا منذ العصر العباسيّ، كما ذكر الشيخ سلطان بن محمّد القاسميّ، حاكم الشارقة، الذي نوّه في مقابلة إذاعيّة سنة ٢٠١٤، بأنّ مدينة جلفار أنشئت بعد هجوم التتار على أصفهان، ففَرَّ منها الأرمن المسيحيّون إلى رأس الخيمة، وأنشؤوا مدينة جلفار الشهيرة فيها، وأطلقوا عليها ذلك الاسم. ولا ندري كم عاش الأرمن فيها، وقد لا تكون فترة طويلة؛ لأنّهم لم يتركوا فيها آثارًا مسيحيّة.

وجلفار هذه هي منطقة «الندود» الملاصقة لمدينة معيريض شرقًا. وكانت جلفار عاصمة رأس الخيمة، مبنيّة من بيوت من الطين، وحولها سور طينيّ كما بيّن علماء الآثار. ففترة ازدهار جلفار كانت بين القرن الرابع عشر والقرن السابع عشر الميلاديّ. ولقد سمعت من كبار السنّ من أخوالي من أهل الرمس أنّهم توارثوا حكاية «أنّ التيس كان يمشي على سطوح بيوت جلفار من الرمس شمالًا إلى معيريض»، قبل أن يدمّر الزلزال جلفار. وقد يكون في ذلك مبالغة؛ لأنّه– مع وجود وثائق تدلّ على قدم الرمس وجلفار تاريخيًّا –لا يوجد إثبات على وجود معيريض قبل ستّة قرون.

ولكن هناك مراجع تثبت وجود جلفار في رأس الخيمة قبل غزو التتار بقرون؛ فقد أسقط التتار بغداد سنة ١٢٥٨م، في حين يذكر محمّد بن أحمد المقدسيّ –أحد أعظم وأشهر الرحّالة والجغرافيّين العرب في القرن الثالث الهجريّ، والمتوفّى سنة ٩٩١م– في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، مناطق زارها ومنها (دبا وجلفار). ويذكر عبد الإله عبد القادر في «جلفار عبر التاريخ» أنّ جلفار كانت موجودة أيّام عبد الملك بن مروان الأمويّ المتوفّى سنة ٧٠٥م.

أمّا ذكرياتي الشخصيّة هذه التي أسطّرها هنا عن معيريض فلا تتعدّى سنة ١٩٥٨؛ إذ انتقلت بعدها في بعثة دراسيّة إلى الكويت، ومن هناك انتقلت للعيش مع العائلة في قطر؛ بسبب ضعف راتب الوالد. ولم أكن أنا الوحيد الذي انتقل من مقرّ طفولته، بل انتقل الكثير من أهل رأس الخيمة ومعيريض قبل ذلك، سنة (١٩٥٧) من مقارّ ولادتهم؛ بسبب الطوفان الذي ضرب رأس الخيمة ومعيريض، فشرد الناس من مقارّهم إلى مناطق أخرى في رأس الخيمة، وبالأخصّ شرقًا إلى المناطق المرتفعة؛ لذلك لم يبق من معيريض القديمة اليوم– وللأسف– إلا الاسم والآثار القديمة والذكرى الجميلة.

١. ظَهْر: يطلق على الشريط الرمليّ الذي يفصل خور معيريض عن بحر الخليج، وكأنّه الظهر للخور، أو الظهر الواقي للقرية.

الـوالـدان

والداي سبب وجودي على هذه الأرض، وهما نعمة من الله عليّ، ولهما الفضل العظيم في نشأتي وتربيتي، فمن البِرّ أن أبدأ بهما، وأقول: ﴿ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾.

الوالد الشيخ أحمد بن حجر البوطامي البنعلي

الاسم: الشيخ أحمد بن حجر بن محمّد بن حجر آل بوطامي البنعلي. يرجع نسبه إلى قبيلة بني سُليم، التي نشأت في حرّة بني سليم، قرب المدينة المنوّرة. ويرجع أصل قبيلة البنعليّ لسليم
وذكر لي عمّي بأنّ أباه كان مغرمًا بالشعر العربيّ العموديّ، ويقرأ الأشعار كثيرًا من حفظه، حتّى في خلوته، ويعتقد أنّه كان شاعرًا. وروى عمّي أنّه كان يسمع والده حجرًا كثيرًا ما يردّد في مجلسه بيتين، حتّى حفظهما منه، ولم ينسهما طوال حياته:

إذا ضاقت بك الدنيا ففكر في «ألم نشرحْ»*
تجد يسرينِ معْ عُسْرَيْـ ـنِ لا تحزنْ ولا تفرح

ولا يعلم العمّ إن كان البيتان من شعر الجدّ أو كانا من حفظه فقط.

---

* ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ [الشرح ١-٨]

الشيخ علي العم الوالد

الدّراسة:

درس الوالد القرآن والكتابة ثم ارتحل إلى الأحساء، أحد مجامع العلوم الشرعية المشهورة في ذلك الوقت، فمكث فيها أربع سنوات متواصلة دون إجازة، منصرفًا لطلب العلم، منقطعًا عمَّا سواه.

وفي سنة ١٩٣٥ أكمل تعليمه الشرعي فانتقل إلى رأس الخيمة برفقة أمّه وسكن في معيريض. امتهن الخطابة وإمامة المصلّين، وأنشأ مدرسة لتدريس العلوم الشرعيّة. وفي سنة ١٩٣٧ بدأ ممارسة القضاء في رأس الخيمة بصورة غير رسميّة، برغبة من الحاكم الشيخ سلطان بن سالم القاسميّ، دون تعيينه قاضيًا رسميًّا. والواقع أنّ الشيخ سلطان كان في خلاف مع قاضيه الشيخ مشعان (من الزبير) الذي أنهى خدماته وسفره من رأس الخيمة سنة ١٣٥٧هـ (١٩٣٩). ثمّ قرّر الشيخ سلطان– بعد ذلك الخلاف– عدم تعيين قاض رسميّ بقيّة أيّام حكمه، فكان يحوّل الخصوم لعلماء الدين في البلاد للحكم، دون مقابل. ولكن كان الشيخ سلطان يحبّ الوالد ويحترمه؛ لذلك كان يحوّل إليه ٩٠٪ من الحالات؛ للحكم فيها (كما ذكر لي الوالد). ولكن بعد تولّي الشيخ صقر بن محمّد القاسميّ الحكم سنة ١٩٤٨ أصدر قرارًا بتعيين الوالد القاضي الرسميّ لإمارة رأس الخيمة وتوابعها، في الأوّل من جمادى الآخرة عام ١٣٧١هـ الموافق ٢٧-٢-١٩٥٢. وفي نهاية سنة ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) استقال الوالد؛ بسبب قلّة الراتب البالغ ألفين (٢٠٠٠) روبية في السنة. وعمل قاضيًا في قطر خمسةً وثلاثين عامًا.

زواجه:

تزوّج في رأس الخيمة، سنة ١٩٣٨م، وهو في السنة الثالثة والعشرين من العمر، من الوالدة خديجة سالم بن هلال المناعي، وقد أثمر ذلك الزواج ولدين، (أنا، ويوسف) وأختي آمنة. وكانت قصّة ذلك الزواج طريفةً.

كان الأديب سلطان بن عبد الله بن أحمد آل عليّان المناعيّ من أعزّ أصدقاء الوالد في معيريض ورفيق أسفاره، الذي قال له سأزوّجك مناعيّة؛ لتكون نسيبنا. وكان سلطان من أصدقاء جدّي سالم بن هلال المناعيّ، ومن روّاد مجلسه الليليّ في شمل صيفًا، فخطب الوالدة منه للوالد. وكانت عمّة الوالدة عائشة بنت هلال، تنوي أن تزوّجها لابنها محمّد بن يوسف المناعيّ، ولكنّ سلطان أقنعه بأن يزوّجها من والدي. وممّا زاد في رغبة جدّي سالم تزويج الوالدة لأبي بدلًا من ابن أخته، أنّ عفراء البوطاميّ– من سكّان معيريض ومن الفرع العمانيّ من البوطاميّ كانت أخت جدّي سالم بن هلال من الرضاعة؛ إذْ نشأا في عجمان– أيّدت مساعي سلطان المناعيّ بتزويج والدي. وبعد خلاف قصير بين عمّة الوالدة وأبيها، وافقت عمّتها على الزواج.

التّدريس:

لقد مارس الوالد التدريس إلى جانب ممارسته للقضاء؛ فقد كان يدرّس الطلبة في مجلسه في قرية المعيريض، وكذلك بمدرسة الحكومة في مدينة رأس الخيمة.

وفي الرياض درّس في معهد إمام الدعوة سنة ١٩٥٧م حتّى انتقل إلى قطر بعد ذلك بسنة.

الخطابة:

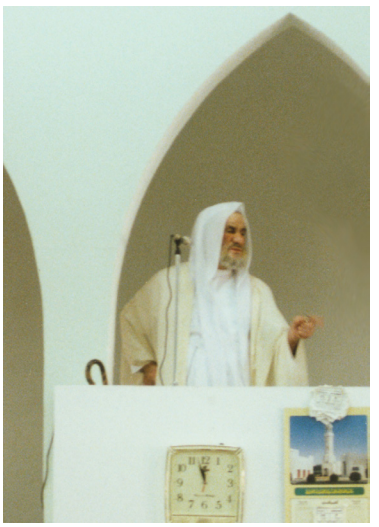

ارتقى الشيخ منابر الخطابة في مرحلة مبكّرة من حياته العلميّة، وذلك أثناء وجوده في رأس الخيمة، وبعد ذلك في قطر، واستمرّ على ذلك إلى أن أقعده المرض.

كان الشيخ خطيبا مفوّها فصيحا بليغا جريئًا، لا يخاف في الله لومة لائم. وقد أعانه في الخطابة أنّه كان متمكّنًا ومتبحّرًا في مختلف العلوم الشرعيّة، وضالعًا في فنون الأدب، وله درايته بأخبار العرب، وأشعارها، وأمثالها، ونوادرها.

وعندما حرّم بعض رجال الدين التصوير والراديو والتلفزيون أوّل ما انتشر، سمح لي باقتناء الراديو، وكان ذلك ثاني راديو في معيريض آنذاك. كما سمح لي أن أمارس هواية التصوير وأنا في الخامسة عشرة من العمر، كما سمح للعائلة بوضع التلفزيون في البيت في قطر.

الشعر:

كان الوالد شاعرًا، كتب عدّة قصائد، لكنّه بعد أن تولّى القضاء اقتصر على نظم أشعار كمتون في العلوم الشرعيّة، يشرحها في كتب، مثل: (اللآلئ السنيّة في التوحيد والنهضة والأخلاق المرضيّة) و(الدرر السنيّة في عقد أهل السنة المرضيّة) و (جوهرة الفرائض)، و(العقائد السلفيّة بأدلّتها العقليّة والنقليّة).

في عام ١٩٩٥ طلب اللإعفاء من القضاء بإلحاح، ليتفرغ للتاليف. وفي سنة ٢٠٠٢ انتقل إلى رحمة الله، عن عمر ناهز السابعة والثمانين.

الوالد قاضي رأس الخيمة:

كان عمل القاضي مميّزًا آنذاك ومرتبطًا بالحاكم. فالكثير من القضايا التي تصل إلى الحاكم السابق الشيخ سلطان بن سالم القاسميّ ثمّ الشيخ صقر بن محمّد القاسميّ بعده تحوّل إلى القاضي. فالمشتكي أو المدّعي يذهب إلى الحاكم مشتكيًا على خصمه؛ فيرسل الحاكم بأمر للخصم للحضور أمامه مع الشاكي، فيسمع لهما؛ فإن رأى الحاكم أنّ القضية بسيطة وواضحة، أو أقرّ المدّعى عليه، أصدر حكمه عليهما، وصرف المتخاصمين. أمّا إذا كانت القضيّة غير واضحة أو معقّدة، أو فيها شبهة جنائيّة، فيحوّلها إلى القاضي، بإرسال بروة (ورقة تحويل صغيرة) بيد المدّعي إلى القاضي، يقول فيها: يصلك الخصمان فلان وفلان أرجو أن تحكم بينهما. وإذا كانت القضيّة كبيرة ومهمّة فيرسل الحاكم مطارزيّا (شرطيًّا) مع الخصوم إلى القاضي، ويكتب القاضي الحكم، ويرسله مع المطارزيّ إلى الحاكم للأمر بالتنفيذ، وخاصّة إذا كان في الحكم عقاب، كالسجن، والغرامة، والتعزير. وأحيانا يضطر الوالد أن يخبر المطارزي أن يبلغ الشيخ شفهيًا بالحكم، لعدم وجود كاتبًا يكتب الحكم لأن خط الوالد صعب قراءته.

وقد يختلف خصمان أو أكثر ويتمّ الاتّفاق بينهما بالذهاب إلى القاضي مباشرة للحكم بينهما؛ فيذهبان إلى القاضي، إمّا في مجلسه أو في المسجد، أو أي مكان يجدونه فيه، فيعرضون عليه قضيّتهم. وقد رأيت والدي في دكّان صاحبه إبراهيم بن بكر زائرًا، والخصوم يعرضون قضاياهم عليه في الدكّان، فيحكم لهم فيها؛ فيحاول الوالد أن يصلح بين الخصوم بالحسنى أوّلًا، دون حكم شرعيّ، فإن لم يفلح حكم بينهم. وفي هذه الحالة لا يصدر القاضي حكمًا خطيًّا إلا إذا طلب أحد الخصوم. أمّا في الحالات المهمّة- كالجنائيّة أو الخاصّة بعقار- فيصدر حكمًا خطيًّا. فإن رفض أحد الخصوم الحكم- وهو أمر نادر- فلا يستطيع القاضي أن يجبر الخصم بالتنفيذ أو يحكم بالعقاب؛ لأنّ ذلك من اختصاص الحاكم. هنا تأخذ الدعوى منعطفًا آخر؛ إذْ يذهب الخصوم بالدعوى إلى الحاكم فيحوّلها رسميًّا إلى القاضي، فيصدر الأخير حكمًا خطيًّا، ويبعثه إلى الحاكم، الذي يرغم الخصوم على تنفيذ الحكم.

وقد ورد في لاميّتي:

وقد يُرسلُ الشيخُ الأميرُ ببروةٍ ... مع المُدَّعي أو خصمِهِ أو طارشٍ كَهْلِ[1]
بها يطلبُ الإفتاءَ في فضِّ دعوةٍ ... أو الأمرِ بالتعزيرِ كالسجنِ والكَبْلِ

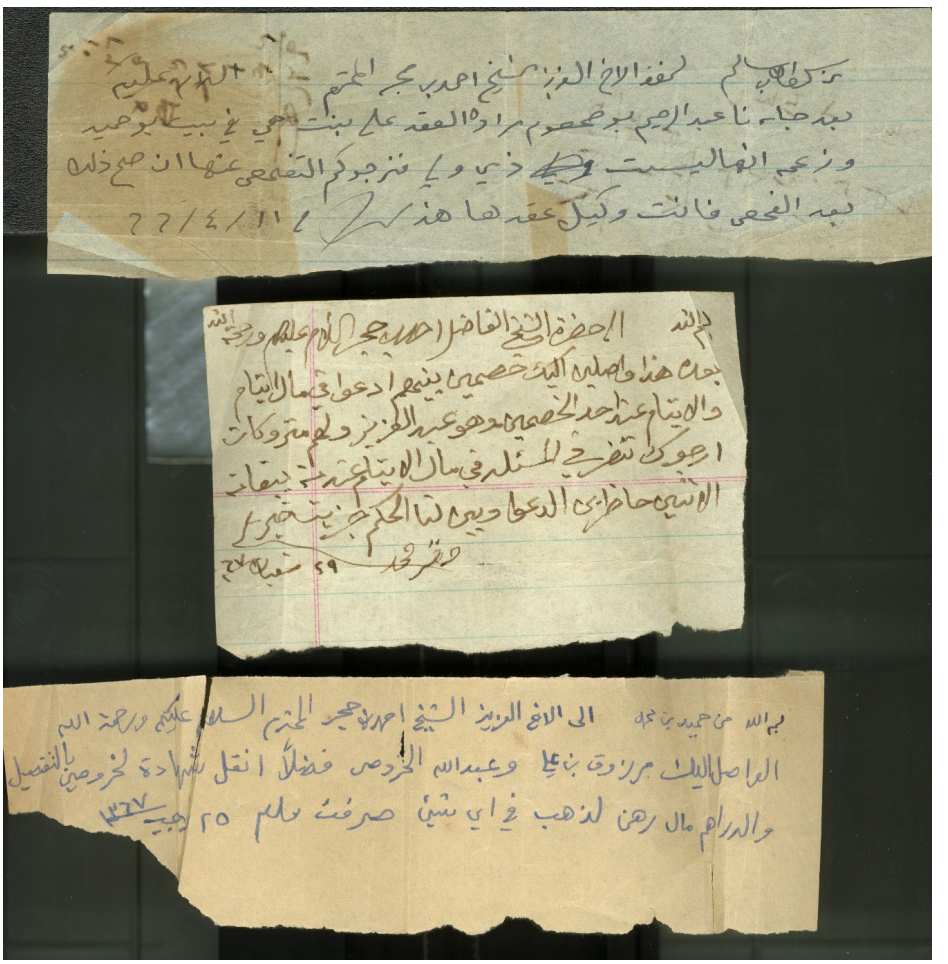

ثلاث بروات موجّهة للوالد من أولي الأمر للحكم بين الخصوم: الأولى من الشيخ سلطان بن سالم القاسميّ حاكم رأس الخيمة آنذاك ٦٦/٤/١١ هـ (٤-٣-١٩٤٧م)، والثانية من الشيخ صقر الحاكم بعد الشيخ سلطان مؤرّخة في ٢٩ شعبان ١٣٦٧هـ (٧-٧-١٩٤٨م)، والثالثة من الشيخ حميد بن محمّد نائب الشيخ صقر في ٢٥ رجب ١٣٦٧هـ (٣-٦-١٩٤٨م).

١. بروة: رسالة صغير دون غلاف (خليج)، والطارش: المندوب، المرسول (خليج).

وأخبرني الوالد أنه من النوادر أن لا يقبل أحد الخصوم حكم القاضي في قضية كبيرة، فمن المسموح به في إمارات الساحل أن يستأنف الحكم عند قاض آخر في إمارة أخرى. فإذا اعتمد حاكم تلك الإمارة الحكم بختمه، فيتم تنفيذه في الإمارة الأولى. وهنا قد يدخل مذهب القاضي في الخلاف لوجود خلاف بسيط بين المذاهب الشرعية، ولكن المعمول به في الغالب، هو التزام القاضي الثاني بمذهب القاضي الأول في الحكم.

وكان الشيخ سلطان بن سالم القاسمي الذي لم يعين قاضيًا شرعيًا، بعد خلافه مع قاضيه الشيخ مشعان، قد أعطى والدي فقط نسخة من ختمه، ليختم به أي حكم استئناف يوجهه إلى حكام الإمارات الأخرى بخصوص راعاياهم مباشرة، دون الحاجة لإرساله للشيخ سلطان. أردت أن اهدي الختم لصاحبي الشيخ فاهم بن سلطان، لكنه قال: أنت أحق بالاحتفاظ به.

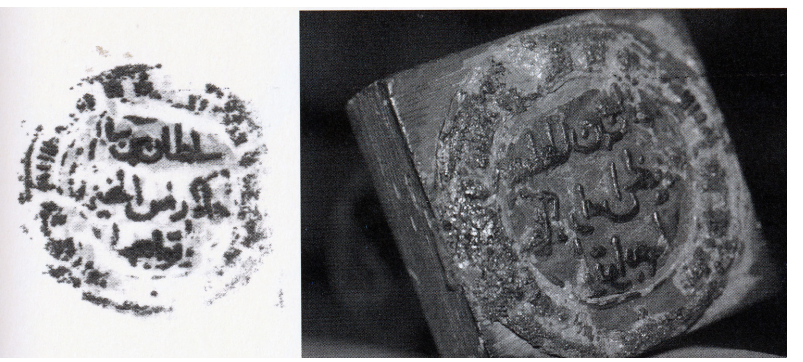

ختم الشيخ سلطان عند الوالد

أمّا في الجرائم الكبرى– كالقتل– فيحبّذ الوالد أن تعقد المحكمة بمجلس الحاكم، وحضور المشايخ للتشاور؛ للتشاور، والمشاركة بالتوقيع على الحكم النهائيّ. وأذكر أنّ الوالد أخذني معه؛ لحضور محاكمة السيّد غالب والي الرمس، المتّهم بقتل شابّ من البداة؛ فأرسل الحاكم سيّارة إلى معيريض؛ لأخذ الوالد والشيخين محمّد بن غباش وعبد الله بن سلمان إلى مجلس الحاكم في مدينة رأس الخيمة، وأخذني الوالد معهم. وكانت الرحلة بالسيّارة ممتعة جدًّا ومسلّية لي. كانت الفكرة في المجتمع عن كبار شيوخ الدين بأنّهم دائمًا جادّون وصارمون، لكن تبيّن لي أنّ المشايخ الثلاثة من معيريض مرحون، يمزحون وينكّتون في جلستهم الخاصّة طول الطريق، وبالأخصّ الشيخ محمّد بن غباش، الذي كان يعمل نكتا على صاحبه الشيخ عبد الله بن سلمان، والشيخ بن سلمان والوالد يضحكان.

وقد ينوب عن الحاكم في إرسال الخصوم للقاضي إخوه الشيخ حميد، ونادرًا أبوه الشيخ محمّد بن سالم، وخاصّة في فصل الصيف، ولو كان الحاكم في البلاد؛ لأنّ الشيخ صقر لا يصيف في مصايف البلاد، وهي منطقة النخيل، مثل أبيه وإخوانه وبقيّة المواطنين، بل يظلّ في حصنه – مركز الحكم – في رأس الخيمة طول العام؛ فالمتخاصمون في الصيف في منطقة النخيل يستثقلون التنقّل إلى العاصمة، مدينة رأس الخيمة، عبر البحر؛ لذلك يذهبون إلى الشيخ حميد بالشكوى، في منطقة العريبي. فيحوّلهم إلى القاضي، وهو الوالد، فيذهبون إليه؛ إمّا في مجلسه في معيريض أو مجلسه تحت شجرة الغافة في مصيفه في منطقة شمل صيفًا. وأحيانًا عندما يزور الوالد الشيخ حميد وأباه في مصيفهما في منطقة العريبي في مجلس الشيخ محمّد أو الشيخ حميد أو في مسجدهما، تعرض الشكوى على الوالد بحضورهما، فيحكم فيها. ولا تأخذ الأحكام أيّامًا كثيرة؛ لأنّ الخصوم يأخذون إثباتاتهم وشهودهم معهم عند القاضي، فيتم الحكم غالبًا في نفس الجلسة.

فالشيخ حميد بن محمّد كان يقوم مقام النائب لأخيه الشيخ صقر الحاكم في رأس الخيمة، دون إعلان أو تشريع رسميّ، ولكنّ الناس اعتبروا ذلك أمرًا قائمًا بالممارسة. وفي الواقع لم يكن هناك وزراء أو نوّاب بشكل رسميّ؛ فالأمر الرسميّ المعروف هو أنّ الحاكم الشيخ صقر، والقاضي والدي آنذاك؛ لأنّ الشيخ قد كلّفه بالقضاء بأمر خطّيّ.

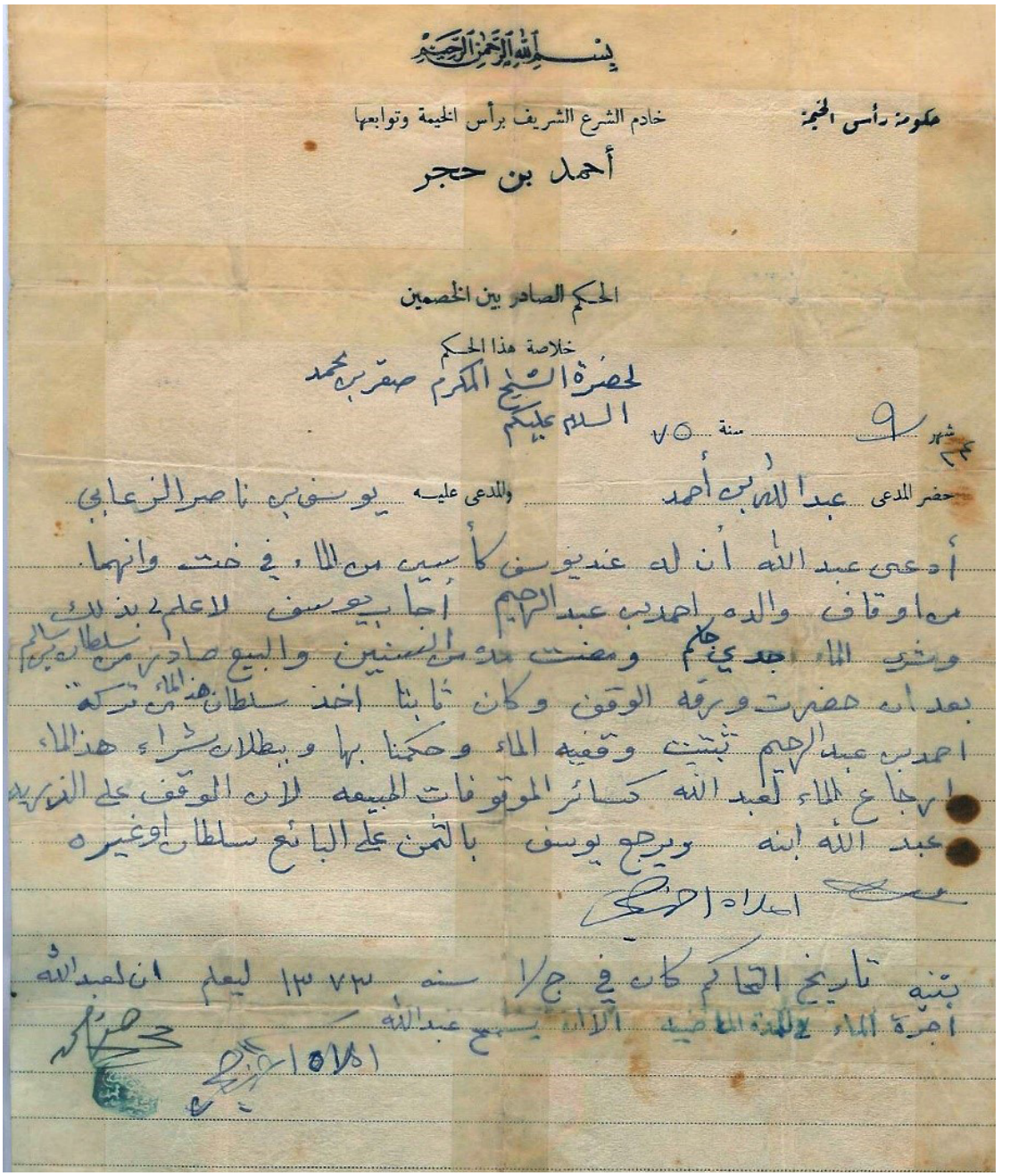

بسم الله الرحمن الرحيم

حكومة رأس الخيمة — خادم الشرع الشريف برأس الخيمة وتوابعها

أحمد بن حجر

الحكم الصادر بين الخصمين

خلاصة هذا الحكم

لحضرة الشيخ المكرم صقر بن محمد

السلام عليكم

شهر ٩ سنة ٧٥

حضر المدعى عبد الله بن أحمد والمدعى عليه يوسف بن ناصر الزعابي

أدعى عبد الله أن له عند يوسف كابيين من الماء في خت وانهما

من اوقاف والده احمد بن عبد الرحيم أجاب يوسف لا علم لي بذلك

وشري الماء جدي حاكم ومضت مدة من السنين والبيع صادر من سلطان بن سالم

بعد ان حضرت ورقة الوقف وكان ثابتا اخذ سلطان هذا الماء من تركة

احمد بن عبد الرحيم تبثت وقفيه الماء وحكمنا بها وببطلان شراء هذا الماء

ارجاع الماء لعبد الله كسائر الموقوفات المبيعه لان الموقف على الذريه

عبد الله ابنه ويرجع يوسف بالثمن على البائع سلطان او غيره

املاه احمد

بتنه تاريخ الحاكم كان في ج/١ سنه ١٣٧٣ ليعلم ان لعبد الله

أجرة الماء للمدة الماضية الا ان ... عبد الله

القضيّة أعلاه، المحوّلة من الحاكم أصلًا، حكم القاضي (الوالد) فيها ووجه الحكم للحاكم ليصدر أمره بالتنفيذ، فوقّع الحاكم الشيخ صقر على حكم القاضي، وختمه بختمه؛ أي أوجب تنفيذ الحكم.

وللوالد خبرة، ونجاح كبير في الصلح بين الخصوم، دون إصدار فتوى. وإذا لم يفلح في الصلح، فله ذكاء وفطنة في معرفة نفسيّة الخصوم، وقراءة ما يتفوّهون به؛ للوصول إلى الحقائق لحلّ المشاكل الصعبة. ومن طرائف ما أذكره بهذا الخصوص، دعوى تمّت بحضوري في مجلسه؛ إذ ادّعى شباب من البداة (بدو الجبال) على عمّهم، بأنّه أخذ منهم أرضًا ورثوها من أبيهم، وضمّها إلى أرضه. فأنكر العمّ العجوز ادّعاءهم، قائلًا: إنّ أباهم تنازل له عنها قبل وفاته. ولم تكن هناك مستندات، ولا شهود لحلّ الإشكال. وبعد المناقشات أحسّ الوالد أنّ في قول العجوز بعض التناقضات في سرده لقصّته مع أخيه. فقال له: أنت تنكر أنّ الأرض لعيال أخيك، فهل ستحلف على القرآن بذلك؟ قال: نعم، فقال له الوالد: أتعرف عاقبة من يحلف كاذبًا؟ ألا تخاف على نفسك أو على من يعزّ عليك من أهلك وعيالك من مصيبة أو موت إذا وضعت يدك على كتاب الله وحلفت كاذبًا؟ فسكت العجوز. فقال لي الوالد– بصوت مرتفع–: ائتني يا حجر، بالمصحف

الأحمر الكبير الذي جاء من مكّة، فأحضرت المصحف من على الرّفّ. فصار العجوز ينتفض، خائفًا، وقال: لا، يا شيخ، لن أحلف لعلّي غلطان، والأرض لعيال أخي. فسكت الجميع، وكأنّ على رؤوسهم الطير. فقال الوالد: إذن تقرّ أنّ الأرض لعيال أخيك. قال: نعم، فقال الوالد لخصوم العجوز: قوموا وقبّلوا عمّكم على رأسه؛ فهو أبوكم بعد حياة أبيكم. فقاموا إليه واحدا بعد واحد يقبّلونه. ورأيته يمسك بهم ويقبّلهم والدموع في عينه؛ فتأثّرت من ذلك المنظر، فقمت أصبّ لهم القهوة، فشربوها وانصرفوا متصالحين. ولقد ذكرت هذه القصّة في لاميّة الخليج، قائلا:

وقومٍ من الأعرابِ جاؤوا بدَعوةٍ ... على قِطعةٍ في السَّيْحِ تخلو من الظِّلّ[1]
يقولُ عجوزُ القومِ: «أرضيَ كلُّها» ... ويتَّهمُ الباقينَ بالظُّلمِ والنَّشْلِ
فقال أبي للشيخِ إنَّكَ مُقْسِمٌ ... على مُصْحَفٍ والكذبُ يَقضي على النَّسْلِ
وصاحَ عليَّ أن أجيءَ بمُصحفٍ ... له لمعةٌ كالسيفِ يُنذِرُ بالثُّكْلِ[2]
فجئتُ بهِ بين الجُموعِ بثوبه ... وسلَّمْتُهُ للشيخِ في غِمْدِهِ الكُحْلي
فقامَ عجوزُ القومِ يهتزُّ خائفًا ... كأنَّ بهِ مَسًّا من الجِنِّ والخَبْلِ
وقال: أُقرُّ الآنَ يا شيخُ إنّني ... ظلَمْتُ وأنَّ اللهَ أنصفَ في خَذْلي
وسالتْ دموعٌ فوقَ لِحْيَةِ شايبٍ ... يرى أعينَ الأقوامِ أسوأَ من قَتْلِ
فقال أبي: أطلبْ منِ القومِ عفوَهم ... ومن ربّنا الغُفْرانَ عن زلّةِ الذَّجلِ[3]
وقال لباقي القومِ: هذا أبوكُمُ ... أرى أنَّهُ قد تاب، كفُّوا عن العذلِ
فقاموا إليهِ صافحينَ وسلَّموا ... فقبَّلَهمْ، والدمعُ كفَّ عن الهَطْلِ
وساروا جَميعًا للرِّكابِ كأُسرةٍ ... وعادوا بلا حِقدٍ يثارُ ولا تَبْلِ[4]

بعد أن شرحت دور الوالد بصفته قاضيا شرعيّا في رأس الخيمة أعلاه، عثرت على رسالة قديمة منّي إليه، كتبتها بعد عودتي النهائيّة من الولايات المتّحدة الأمريكيّة سنة ١٩٧٨، اقترحت عليه تأليف كتاب عن تاريخ القضاء في الخليج، وكتبت له ما أذكره عن المحكمة الشرعيّة (مجلسنا)؛ لتنشيط ذاكرته. وسأذكر ما كتبت فيها؛ لأنّها طريفة، مع أنّني نسيت الكثير ممّا حوته.

بسم الله الرحمن الرحيم
سيّدي الوالد الفاضل،
تحيّة طيّبة وبعد،
بخصوص اقتراحي عليك بكتابة كتاب عن تاريخ القضاء في الخليج، وهو في الواقع سيكون أغلبه من ذكرياتك الشخصيّة، لدورك كقاض في رأس الخيمة وقطر، لأنّك عاصرت المرحلة القديمة عندما كان القضاء بدون محاكم حقيقيّة، كما أنّك سمعت من الذين سبقوك عن أخبار القضاة والقضايا قبلك.
وحيث إنّي رافقتك منذ طفولتي في مجلسك الذي كنت أصبّ فيه القهوة للضيوف والخصوم، وأسمع القضايا والقصص، فإنّي قرّرت أن أكتب لكم ما أتذكّره عن تلك الفترة؛ لتكون فاتحة لكم، تذكّركم ببعض القضايا والأحداث.
ومع أنّني كنت أرافقك– في ذهابك إلى بيت الحاكم الشيخ صقر بن محمّد القاسميّ وبيت أخيه الشيخ حميد بن محمّد القاسميّ، وكنت أكتب ما تملي عليّ أحيانًا من الفتاوي والأحكام، بعد أن تعلّمت الكتابة– لا أستطيع أن أتذكّر قضايا معيّنة بوضوح؛ لصغر سنّي آنذاك، ولكن أتذكّر بعض الجلسات في المجلس، وبعض الحوادث، والمحيط العام حولي فقط.

---

١. السيح: البراري الواسعة غير المزروعة (خليج)، وفي اللغة: الماء الجاري على وجه الأرض.
٢. الثكل: فقد الولد أو الحبيب.
٣. الذجل: الظلم.
٤. الركاب: الإبل، التبل: العداوة.

المجلس:
لم تبنِ حكومة رأس الخيمة محكمة للبلاد، بل كان مجلسنا هو المحكمة الرسميّة لرأس الخيمة، أثناء فترة عملكم فيها قاضيًا؛ لذلك كان المجلس يضمّ الضيوف، والزائرين اليوميّين من معيريض، وكذلك الخصوم والشهود. ولم يكن هناك شرطة أو حرس للمحكمة، بل لم يكن عندك موظّف لصبّ القهوة والشاي في المجلس؛ فكانت تلك مهمّتي في فترة العصر، ولكن لا أتذكّر من يقوم بذلك لك أثناء الفترة الصباحيّة التي كنت فيها في المدرسة، وربّما كان يقوم بذلك بعض المتردّدين على المجلس من الحيّ؛ إذ لا يخلو مجلسكم منهم.

كان مجلسنا مبنيًّا من الحصى والجصّ (حوالي ٦ متر طولًا و٤ متر عرضًا) وهو البناء الوحيد من جصّ في حيّنا، (عدا بيت محمّد بوحميد بن دلموك)؛ إذ كانت جميع البيوت المجاورة مبنيّة من سعف النخل. وكان للمجلس باب يطل على الجنوب، وشبّاك جنوبيّ، وآخر غربيّ، وشبّاكان من جهة الشمال. وكان في المجلس خزانتان للكتب، تحجز ربع مساحة المجلس؛ لأنّ نصف مكتبتك في المجلس. وكان على أرض المجلس حصيرة مغطّاة بالسجّاد الإيرانيّ، وعلى النصف الغربيّ من المجلس وضعت المساند البيضاء حول الجدار. وكنت تجلس مع ضيوفك والخصوم على الأرض، دون كراسيّ، وأنت في الجهة الغربيّة قرب الشبّاك المطلّ على البحر، وبجنبك خزّان خشبيّ صغير به أوراقك. ولا أذكر أنّني رأيت كرسيًا قطّ في مجلس في رأس الخيمة آنذاك، ولا حتّى في مجلس الحاكم.

أمّا الخصوم فيجلسون أمامك مباشرة، في منتصف المجلس، في حين يجلس الشهود والضيوف متّكئين على المساند حول الجدار. وأثناء جدال الخصوم قد يتطفّل- أحيانًا- بعض الزائرين، ويبدي رأيًا أو يؤيّد أحد الخصوم، قبل أن يتمّ الحكم في القضيّة؛ فكنت تغضب على ذلك الزائر المتطفّل وتنهره، وتطلب منه السكوت.

كان الخصوم يأتون إلينا من مناطق مختلفة من رأس الخيمة، دون موعد. وكانت هذه من السلبيّات المزعجة التي تذمّرت منها عائلتنا كثيرًا، وما زلتُ أذكرها جيّدًا. كان بعض الخصوم يدقّون باب بيتنا في أوقات مختلفة، حتّى بعد الظهر والمساء من أوقات الراحة، ويطلبون خروجك إليهم بالحاح شديد، وإذا كنت مشغولًا في المنزل، انتظروك في المسجد؛ ليعرضوا عليك مشاكلهم. ولم تمنع أيّام الجمع أو الأعياد الخصوم من القدوم إلى مجلسنا؛ لأنّه لم تكن هناك عطل رسميّة منظّمة.

كانت المشكلة في كون مجلسنا المحكمة الوحيدة للبلاد، أنّ القادمين من المناطق البعيدة كالرمس، وشعم (وكانت تابعة لرأس الخيمة آنذاك)، وخور خوير، ورؤوس الجبال، لا ملجأ لهم إلاّ بيت القاضي، حيث إنّه لم تكن هناك فنادق أو مطاعم أو مأوى آخر لهم، ولا يعرف هؤلاء الخصوم أحدًا في معيريض غير القاضي. وكان علينا إيواؤهم وضيافتهم طوال اليوم إن دعت الضرورة. وما زلت أتذكّر جِمال القادمين وحميرهم من المناطق البعيدة، مربوطة في الشمس أمام بيتنا، والجدال مستمرّ في المجلس بين الخصوم.

ولكن كان هناك تقدير واحترام للقاضي وأحكامه. وكان عامّة الخصوم يقبلون حكم القاضي بلا تردّد، وخاصّة إذا كانوا قد قَدِموا للقاضي باختيارهم ورضاهم. وكان الخصوم يأتون إلى القاضي إمّا باتّفاق بينهم أو بأمر من الحاكم. والغالب أنّهم يأتون طوعًا بالاتّفاق فيما بينهم، أو بضغط اجتماعيّ عليهم من الأهل والأصحاب؛ لحلّ المشكلة بينهم. ومعظم مثل تلك القضايا لا تسجّل ولا يكتب حكم فيها؛ إذ إنّ الحكم صار علنًا بحضور شهودهم وأصحابهم ومن حضر المجلس آنذاك. كما أنّه لم يكن يوجد عندك كاتب في المحكمة، ولم توظّف كاتبًا؛ لقلّة راتبك. وإذا أنهيت القضيّة بالصلح فإنّي أذكر أنّك تطلب من الخصمين التصافح، وتبادل القبلات أمامك، فيطيعون أمرك، ويخرجون من مجلسك أصحابًا. وكنت تلجأ إلى إصدار حكم كتابيّ تمليه عليّ، أو على من حضر من الشهود والزائرين، إذا كانت القضيّة قضيّة أرض أو نخل؛ إذ توجد الحاجة إلى مستند، وكنت تسلّم الحكم للخصوم.
ابنكم حجر

هذه صورة نادرة التقطتها لسموّ الشيخ صقر بن محمّد القاسمي حاكم رأس الخيمة، أثناء زيارتي له، جالسًا على الارض في مجلسه سنة ١٩٥٩، وفي الصورة من أصدقائي، أبناء القواسم خلف الشيخ: عبد الله بن حميد، وعبد الملك بن كائد، وعبد العزيز بن حميد. وأمام الشيخ أحد أطفاله الصغار، وأمام الطفل الأخ أحمد بن حميد

الوالدة

تاريخ والدي وأجداده موثّق في مراجع تاريخيّة، أمّا الوالدة فيندر أن يعتني المؤرّخون بالنساء، لكنْ للمنانعة تاريخ عريق. ومنانعة آل صالح –أهل والدتي– حديثو الهجرة من قطر إلى ساحل عمان، ما يقرب قرنين من الزمان كما أظنّ. ولغلبة الأمّيّة فيهم يندر تدوين أخبار تاريخهم منذ هجرتهم. ومن غرائب الصدف أن أكون أنا الوحيد الذي سجّل شجرة عائلة المنانعة من آل صالح في ساحل عمان بدقّة موثّقة. فكيف حدث هذا؟

إحدى عجائز المنانعة من آل صالح، من بنات عمّ جدّ الوالدة هلال، وأخت عمّتها عائشة بنت هلال من الأمّ، وهي مريم بنت عليّ بن أحمد المناعيّ، زوجة أحمد بن جبر الشامسيّ، الخبيرة الوحيدة في أنساب منانعة آل صالح آنذاك، وقد عرفت النسب من أبيها وكبار السنّ من أعمامها. أخبرتني أنّ أحد أعمامها من كبار السنّ قال لها بأنّه يتحدّى أيّ مناعيّ يعرف المنانعة وتاريخهم في قرية بوظلوف من قطر أكثر منه؛ ممّا يدلّ على أنّه حديث العهد بالهجرة من قطر.

وعندما أكملتُ المرحلة الابتدائيّة في رأس الخيمة سنة ١٩٥٧– وحين كان أهل الوالدة القاطنون في عجمان من المنانعة وأنسابهم الشوامس، يصيفون كالعادة قربنا، في مصيفنا، منطقة شمل من رأس الخيمة، حيث الماء العذب والنخيل الكثيرة، والأرض مرتفعة عن سطح البحر– اقترحت عليّ تلك الخالة العجوز مريم بنت عليّ (الأمّيّة)، أن آتي بقلم وقرطاسة حتى تملي عليّ شجرة عائلة أمّي من آل صالح، قائلة: «بعد وفاتي سيضيع نسب العائلة، وقرابة كلّ فرع من الآخر». فأملت عليّ تفاصيل شجرة آل صالح من المنانعة، ثمّ شجرة أنساب أمّ الوالدة من الشوامس، وأنا أرسم الشجرة وأدوّن ما تملي.

أصل أهل الوالدة خديجة بنت سالم بن هلال بن راشد بن عيسى المناعيّ، يعود إلى قرية بوظلوف، مقرّ المنانعة في قطر، وهم من فخيذة آل صالح، التي هاجرت من بوظلوف بعد خلاف عائليّ إلى إمارة عجمان، التي برزت إلى الوجود رسميًّا سنة ١٨٢٠م. فالواضح أنّ الهجرة من قطر لم تكن بعيدة، بل خلال قرنين من الزمان.

أخبرني الباحث القطريّ، الملمّ بأمور تاريخ آل صالح، صديقي الأخ جاسم عبد الرحمن آل صالح المناعيّ، أنّ الخلاف الذي جعل بعضًا من آل صالح يهاجر من بو ظلوف إلى عجمان، هو قدوم سفينة كبيرة لترسي مقابل بوظلوف بسبب هبوب عاصفة، فطلب أحد كبار المنانعة من إبن أخيه، الذي عقد النكاح على ابنته، أن يذهب إلى تلك السفينة الغريبة ويسأل أهلها إن كانوا في حاجة إلى مساعدة؛ لأنّه عدّهم بمنزلة ضيوف المنانعة ما داموا أمام قريتهم. فلم يقبل الشابّ أن يغامر في ركوب البحر والعاصفة قويّة، إذ تشكّل خطرًا عليه؛ فلم يقبل منه العمّ ذلك الجواب. فلمّا عرف أبو الشاب عن رغبة أخيه لتعريض ابنه للخطر، غضب وتشاجر معه. وبعد الشجار انقسم بعض أفرد العائلة في التأييد للأخوين؛ فهاجر أبو الشاب وعائلته ومؤيّدوه من قطر إلى عجمان، وكان صالح (الذي انتسب آل صالح إليه) قد هاجر إلى كمزار قديمًا.

منانعة آل صالح في بظلوف

(شجرة النسب رواية جاسم عبدالرحمن آل صالح)

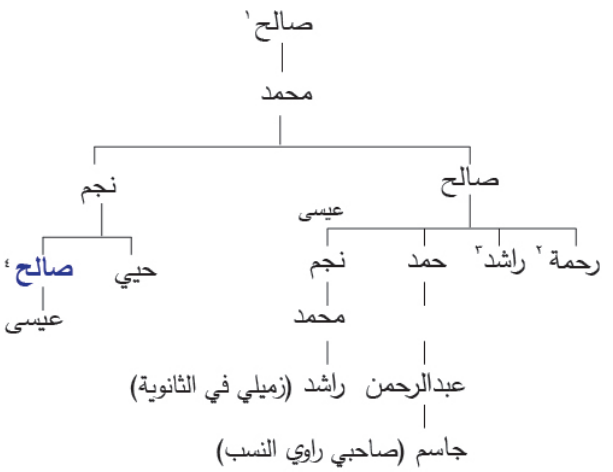

لشرح:
١. صالح الأكبر هاجر إلى كمزار
٢. رحمة هاجر إلى البحرين
٣. راشد هاجر إلى البحرين
٤. صالح اختلف مع عمه صالح الذي أراده أن يذهب لاستطلاع حال اهل البوم الطارح، فرفض لشدة الهواء، فصار الخلاف فهاجر إلى عجمان، طلق خطيبته بنت عمه صالح، فتزوجها أخوه حيي وما خلف منها.

شجرة نسب منانعة آل صالح رواية جاسم عبد الرحمن المناعي

ثمّ انتقل الكثير من منانعة آل صالح إلى الرمس في رأس الخيمة، بعد أن منحهم حاكم رأس الخيمة استثناءً مميّزًا، وهو إعفاؤهم من ضرائب الغوص؛ وهو امتياز لم يمنح لغيرهم. وكان الحكّام يفرحون بهجرة الناس إلى الإقامة في بلدانهم؛ لأنّ ذلك يزيد دخلهم وقوّتهم. وقد سمعت قصّة الإعفاء تلك من أحد المسنّين من أخوال الوالدة، وزوج العجوز التي أملت شجرة العائلة، واسمه أحمد بن جبر الشامسيّ من أمّ مناعيّة. وأكّد تلك القصّة مؤرّخ المنانعة الشيخ أحمد بن عليّ المناعيّ آل عليان. وكان جدّي سالم بن هلال المناعيّ قد ولد في عجمان، وفقد والديه وهو رضيع، فأرضعته امرأة تعمل عند عائلته (معروفة بحبّاه)، التي التقيت بها عند أقاربنا في عجمان سنة ١٩٥٩؛ وهي عجوز تتعكّز، فأخبرتني أنّها أرضعت جدّي سالم وربّته. ولمّا كبر انتقل إلى الرمس في رأس الخيمة حيث تزوّج واستقرّ مع أهله.

شجرة نسب منانعة آل صالح في الرمس

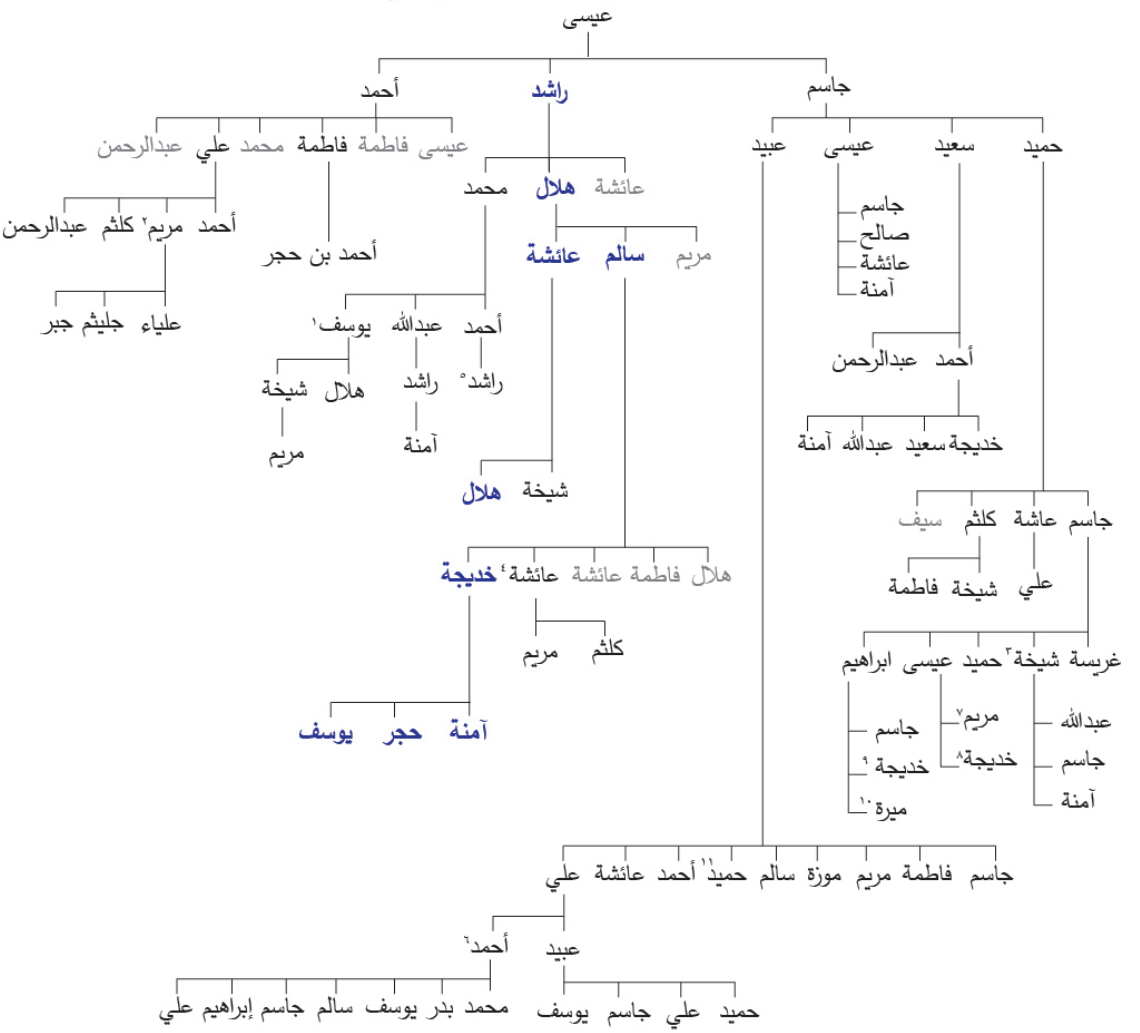

ملاحظات:

كتب الشجرة حجر بن أحمد البنعلي –في شمل ١٩٥٧– من رواية مريم علي بن أحمد، بنت عم هلال بن راشد جد الوالدة

١. يوسف زوج عائشة بنت هلال المناعي
٢. مريم زوجة أحمد بن جبر الشامسي (رواية شجرة النسب اعلاه)
٣. زوجة علي عبدالله الساحر الشامسي
٤. زوجة الخال علي بن هندي الشامسي
٥. راشد بن أحمد المناعي (سرق وبيع في السعودية)
٦. عياله تزوجوا بنات إبراهيم بن جاسم
٧. مريم بنت عيسى بن جاسم تزوجها راشد بن أحمد المناعي (٥)
٨. خديجة بنت عيسى بن جاسم تزوجها عبدالله عبدالرحمن عبدالله أحمد (آل إبراهيم) المناعي
٩. خديجة بنت إبراهيم بن جاسم تزوجها علي بن أحمد بن علي
١٠. ميرة بنت إبراهيم بن جاسم تزوجها إبراهيم بن أحمد بن علي
١١. فاطمة بنت حميد تزوجها محمد بن محمود –رمسي– أنجبت عائشة تزوجها صقر محمد وتوفت بلا عقب

كنت في سنة ١٩٥٩ في السادسة عشرة من العمر، وفي إجازةٍ صيفيّةٍ من المدرسةِ في الكويت، قضيت معظم الصيف في قطر، ثم سافرت إلى رأس الخيمةِ لزيارة الأهل والأصدقاء. وقبل العودة من ساحل عمان ذهبت لزيارة أهلنا في عجمان. فوصلت عجمان حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، ودخلت الباب الرئيسي بسحب حبل المغلاق الذي يفتح الباب لمن يشاء (لأن قفل الباب موضوع لصد الحيوانات لا الناس). ومشيت مسافة طويلة بين الباب وغرف السكن، في حرارة الظُّهر الشديدة، فرأيت امرأةً عجوزًا لم أرها من قبل في بيت أهلي، تتعكز متجهة نحو الباب الخارجي ببطء. فتذكرت حكايات (جنِّ القايلة) التي كانت أمي تخوّفُني منهم، إن خرجت من البيت بعد الغداء، فخفتُ أن تكون تلك جنِّيَّةً متنكّرةً في صورة عجوز. احترت في الأمر، فتجنبتها بالمشي بعيدًا عن طريقها. ولما صرت في مكان قريب منها، توَقَّفَتْ واستندت على عكازتِها تنظر إليَّ باستغراب. عند ذلك ارتفعت دقاتُ قَلبي رُعبًا من «الجنِّيَّة»، وقررت أن أركض، ولكنِّي سمعتُها ترفعُ صوتَها وتقول لي: «ألست حجرًا»، فتأكدت أنها جنِّيَّة لمعرفتها باسمي! فقلت: بلى أنا حجر. قالت: ألا تستحي أن تمر دون السلام علي، وأنا التي أرضعت جدك سالمًا وربّيتُه. قلت لها: أنا لا أذكر جدي، فكيف سأذكر أمَّه؟ عند ذلك حركت عكازتها، ومشت للخروج، وأسرعت أنا إلى داخل البيت عند الأهل. ولما أخبرتهم بقصتي مع الجنِّيَّة، ضحكوا وقالوا هذه «حُبّاه»، التي أرضعت وربَّت جدك سالمًا بالفعل».

الشيخ أحمد بن عليّ المناعيّ:

مؤرّخ المنانعة الشيخ أحمد بن عليّ آل عليان صديق الوالد من أهل معيريض وشيخ دين، كان يزور الوالد في قطر كثيرًا فيأنس به الوالد، ويبقيه ضيفًا عنده، ولا يسمح له بالسفر إلا بعد أسبوعين أو ثلاثة. وفي إحدى زياراته إلى الوالد سنة ١٩٧٨ دعوته إلى بيتي برفقة أخي يوسف، وسجّلت له بالفيديو حديثه عن تاريخ المنانعة في البحرين وقطر وساحل عمان.

ذكر لي بالتفصيل أنّ أصول المنانعة في ساحل عمان من جماعته، وأجدادهم هاجروا من البحرين. وعائلتهم تسمّى آل عليان، والقبيلة تميم، والمناعيّ لقب. وكتبت شجرة عائلته وأقربائه في معيريض كما أملاها عليّ. فأخبرني أنّ منانعة آل صالح أكثر عددًا، وهم موجودون في البحرين وقطر، ومن قطر هاجروا إلى عجمان وكمزار. وأنّ في كمزار شحوح منانعة، (وهذا جديد عليّ).

الشيخ أحمد وأخي يوسف

وذكر الشيخ أنّ اليازية بنت ابن عمّه تزوّجت من فرعي المنانعة: تزوجت أولاً أحد شيوخ القواسم وأنجبت ابنًا، ثم تزوجت مرعي المنانعة؛ ثم تزوجت من أهلها بدرًا (آل عليان)، وأخيرًا تزوّجت عيسى بن جاسم (آل صالح) من عيال عمّ والدتي فأنجبت منه ابنتين. وبعد حديثه معي، عرضت عليه شجرة نسب منانعة آل صالح التي أملتها عليّ مريم بنت عليّ

المناعيّ، وطلبت رأيه فيها؛ فتمعّن فيها طويلًا، ثمّ قال: «الشجرة ليست دقيقة فحسب، بل أعترف أنّ مريم غلبتني! أنا أعرف الرجال فقط، أمّا هي فتعرف الرجال والنساء».

عائلة الشيخ أحمد بن علي المناعي كما رواها لي

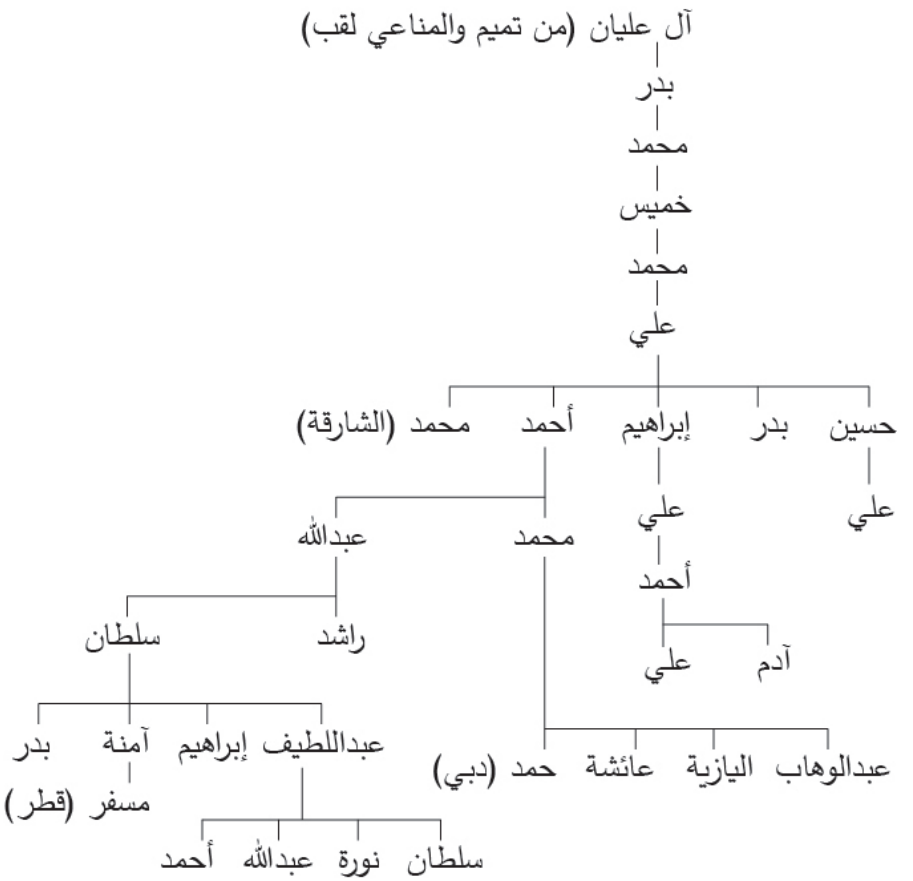

أعطيت شجرتي نسب المنانعة آل صالح وآل عليان، وشريط الشيخ أحمد بن عليّ التاريخيّ الذي سجّلته لصاحبي القطريّ جاسم بن عبد الرحمن المناعيّ وهو من آل صالح أيضًا، فأخذ نسخًا أهداها للمنانعة الذين زارهم في رأس الخيمة وكمزار. وأتاني بزائر كريم إلى قطر من كمزار؛ وهو سيف بن هلال الشحيّ، شيخ الشحوح في كمزار، الذي أكّد لي وجود المنانعة فيها، وأنّ أمّه مناعيّة.

ثقافة الوالدة:

ولدت الوالدة في مدينة الرمس لأب مناعيّ وأمّ شامسيّة. فالوالدة أمّيّة لا تقرأ ولا تكتب، ولكنّها كانت تحفظ الكثير من الأشعار النبطيّة التي كانت تسمعها من أهلها، وخاصّة النساء عبر السنين، وقد سجّلتُ بعضها للذكرى. وكانت تحضر جلسات النساء المسائيّة في معيريض مع عمّتي؛ لسماع القصص والحكايات الأدبيّة، وكانت تأخذني معها للاستماع وأنا صبيّ صغير. كانت أمًّا وربّة بيت مثاليّة، خلّدتُ سيرتها وعدّدت نشاطاتها في قصيدة طويلة (أمّي) في ديواني لا ميّة الخليج، ومطلعها:

سَقى اللهُ أُمّي ما لأُمّيَ من مِثلِ ... لها شَبَهٌ في الناسِ في الشكلِ لا الفعْلِ
سأذكرُ أُمّي طولَ عُمري لأنّني ... أَدينُ لها بالحُبِّ والعطفِ والنُّبْلِ
لقد آنَ أن أُثنيْ على الأمّ شاكِرًا ... وكم شاعرٍ قد صاغَ يشكُرُها قبلي
سأصنعُ من شِعري لأُمّي قِلادةً ... أوائلُنا صاغوا وما أحسنوا مثلي

جدّتي عليا:

سأدوّن لكم شجرة نسب أمّ الوالدة عليا بنت عبد الله الشامسيّ أدناه:

شجرة عائلة خدية بنت سالم بن هلال المناعي من جهة أمها

(المصدر: مريم بنت علي أحمد المناعي رحمها الله سنة ١٩٥٧م)

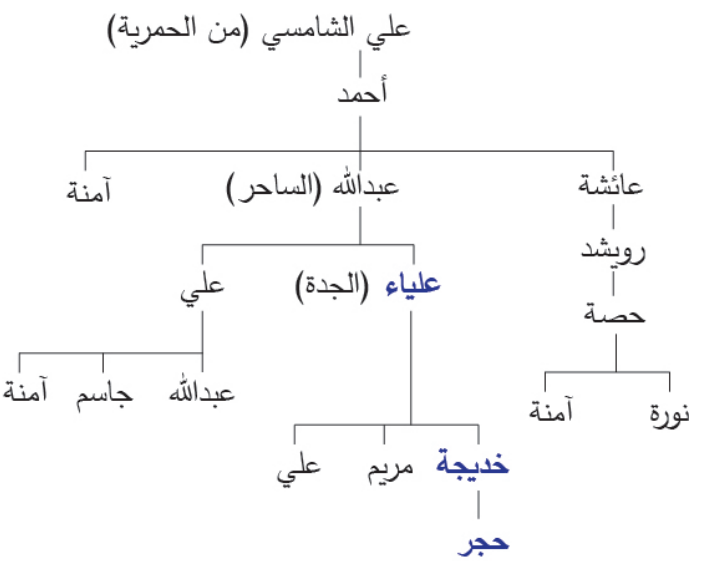

فالجدّة عليا شامسيّة، أصولها من الحمريّة، ووالدها عبد الله (الملقّب بالساحر) بن أحمد، ولها أخ اسمه عليّ. وكانت الجدّة متزوّجة من عبد الله بن هنديّ الشامسيّ (بن هندي فخيذة من الشوامس)، ومات عنها تاركًا ابنًا وهو خالي عليّ، وبنتًا وهي خالتي مريم. وبعد موت زوجة جدّي سالم بن هلال وله منها ابنة، تزوّج الجدّة عليا، ثمّ زوّج جدّي سالم ابنته (عائشة) لابن زوجته عليّ. فلمّا أنجبت الجدّة لجدّي والدتي خديجة (خديّة)، صارت أمّي في وضع غريب؛ أخت الزوج عليّ وأخت الزوجة عاشة، وهما لا يقربان لبعض!

هذا النسب القوي بين المنانعة والشوامس في أهل الوالدة، وسع معارفي وعلاقاتي الاجتماعي مع الأهل في مناطق عديدة. فعندي أهل أزورهم في الرمس وعجمان ودُبى، وحتى في معيريض عندي عائلات من أهلي في الحي الجنوبي، من المنانعة والشوامس، بينما بيتنا في الحي الشمالي.

سأختتم الحديث هذا عن والدتي بقصيدة «أمّي» عمّا كانت تقوم به في البيت، كما وردت في ديواني (لاميّة الخليج)؛ لأنّ ما تقوم به أمّهات ذلك العصر يصعب على الجيل الحالي تخيّله هذه الأيّام:

سقى اللهُ أُمّي ما لأُمّيَ من مثلِ ... لها شبهٌ في الناسِ في الشكلِ لا الفعْلِ
سأذكرُ أُمّي طولَ عُمري لأنّني ... أَديـنُ لها بالحبِّ والعطفِ والنُبْلِ
لقد آنَ أن أُثنيْ على الأمِّ شاكرًا ... وكم شاعرٍ قد صاغَ يشكُرها قبلي
سأصنعُ من شِعري لأُمّي قِلادةً ... أوائلُنا صاغوا وما أحسنوا مثلي[1]
لعَمْري لقد ضحّتْ وقاست وأكملتْ ... رضاعَتنا حولينِ لم ترضَ بالحوْلِ
جماعتُكم عَزُّوا على الناسِ كلِّهمْ ... شهورًا كما في البطنِ في أشهرِ الحملِ
سأذكرُهمْ بالخيرِ والحُبِّ دائمًا ... لتسمعَ أنفاسي وترنوْ إلى شَكلي

١. أحسنوا: فعلوا الخير والإحسان، وليس المقصود أحسنوا الصياغة.

وأذكرُ أُمّي كيفَ كانتْ حياتُها ... وتَخشى عليَّ الحاسَ أو قرصةَ النمْلِ[٢]
حبانا بها المولى وأكملَ عقلَها ... إذا كنتُ محمومًا وبانَ لها هَزْلي
فبعدَ صَلاةِ الفجرِ يبدأُ يومُها ... وحصبةُ أطفالٍ تقودُ إلى ثُكْلِ[٣]
تَرُصُّ أباريقَ الفطورِ بمِنْقَلٍ ... يَسِحُّ وتدعو خالقَ الكونِ عُمْرًا لي
وبعدَ شُروقِ الشمسِ نلتفُّ حولَها ... تناثرَ دمعُ العينِ من مُقَلٍ همْلِ[٤]
يُصلّي ويَتلو أو يُسبّحُ صامتًا ... إذ انتابَها الوَسواسُ في آخرِ اللّيْلِ[٥]
ويأتي إلينا بعد ذاكَ ببسمةٍ ... فيجذبهم بدرُ التمامِ إلى قتلي[٦]
وقد يبدأُ التنكيتَ عن حُلمِ أمّنا ... مخافةَ ثأرِ البدوِ من نائمٍ مثلي
فأجلسُ قربَ النارِ إن بَرَدَ الشّتا ... بمنطقةٍ في السيحِ تقربُ من نخلِ
وتجلسُ أختي بينَ أُمّي وجَدَّتي ... مدى العُمرِ بالمعروفِ والحبِّ والبذْلِ
وكم حملتني نائمًا فوقَ صدرِها ... وأهلَكِ في امعيريضَ أحببتُهم أهلي[٧]
لقد سَهِرتْ جنبي ولو كنتُ نائمًا ... فيا ربِّ جَنِّبْ من أُحِبُّ عن الأزْلِ[٨]
تَهِفُّ عليَّ إن عرقتُ ظَهيرةً ... مَنانِعَةِ الإبحارِ والغوصِ والفضْلِ
فما عرفتْ أُمّي انشراحا وراحةً ... فما دفعوا مكْسًا لشيخٍ على نفْلِ[٩]
فكم طوتِ الأطفالَ حُمَّى «حُمَيّر» ... فإن كان إطراءً ففضْلُهمُ يُمْلي
تُغَرْغِرُني محلولَ عُشبٍ ودمعُها ... عطاءً بلا منٍّ ووُدًّا بلا عذْلِ
لعَمري إذا حاولتُ ذِكرَ حنانِها ... ولقّنها الإيمانَ والحبَّ للطفْلِ
تذكّرتُ يا أُمّي «وِقايةَ» خالتي ... بحلبِ شُويهاتٍ ودلّتُها تَغلي
تَخافُ نزولَ البدوِ يبغون «غالبًا» ... به الجمرُ محمرٌّ وفي خبزنا يَصلي[١٠]
فقامت تغطّيني ببعضِ لباسِها ... ويبقى أبونا الشيخُ في موضعِ عزْلِ
وقد نمت بين العرشِ قربَ عريشِها ... وقد عَشَّشَ الإيمانُ في القلبِ والعقْلِ
سأذكر خالاتي وخالي وأهلَنا ... ليُتْحِفَنا بالجِدِّ طورًا وبالهزْلِ
وأهلَكِ في عجمانَ والرَّمسِ أو دِبا ... وعن حبِّها للضأْنِ والعنزِ والسخْلِ
نشأتُ ولم أعرفْ سوى الحبِّ منهمُ ... ووالدُنا في البشتِ من وبرِ الإبْلِ[١١]
فيا إبنةَ الأخيارِ من آل صالحٍ ... بخيمتنا المَلحاء من سعفِ النخْلِ[١٢]
وكم خَبزتْ أُمّي مُحلًّى وأحضرتْ ... كِبابًا عليهِ البيضُ في سطحِهِ العُلوي[١٣]

---

٢. هفَّ: حرّك الهواء بالمهفّة (خليج)، وفي اللغة هفّت الريح هبّت فسمع صوت هبوبها. الحاس: حشرة صغيرة قارصة (خليج).

٣. حمَيّر: بو حمَيّر ما يطلقه أهل الخليج على السعال الديكيّ.

٤. الهمل: الفائضة بالدموع.

٥. وقاية: عباءة نسائيّة غير مزخرفة (خليج).

٦. غالب: اسم شخص قتل بدويًا خطأً غير عمد، فرفض جماعة المقتول الدية وأصرّوا على الثأر.

٧. عجمان، الرمس، دبا وامعيريض أسماء أماكن.

٨. الأزل: الشدّة والضيق. المنانعة: قبيلة معروفة.

٩. مَكْس: ضريبة. الشرح: روى أحمد بن جبر بن أحمد الشامسيّ أحد المعمّرين في عجمان أنّ أخواله من منانعة آل صالح – أجداد أمّ الشاعر – قد هاجروا من أبي ظلوف في قطر إلى عجمان ثمّ هاجروا من عجمان إلى مدينة الرمس في رأس الخيمة. وقد اشترطوا على حاكم رأس الخيمة قبل الهجرة إعفاء جماعتهم من دفع الضرائب على ما يجنون من لؤلؤ في موسم الغوص، فوافق الحاكم على ذلك آنذاك. وأكّد أحد كبار المنانعة في رأس الخيمة الشيخ أحمد بن عليّ بن إبراهيم المناعيّ صحّة ما ذكره أحمد بن جبر تاريخيّا. النفل: الغنيمة أو أيّ كسب ماليّ.

١٠. منقل: موقد معدنيّ للجمر يسهل نقله.

١١. البشت: العباءة الرجاليّة (خليج).

١٢. الملحاء: ما لونها الملحة أي بياض يخالطه سواد.

١٣. محلّى: خبز خليجيّ معيّن محلّى بالسكّر. كِباب: خبز خليجيّ، وتلفظ الكاف كتاء ساكنة بعدها شين «تشباب» والاسم مشتقّ من كبَّ الشيء أي قلبه؛ إذ إنّ الخبز يقلب مع التاوة (الوعاء) على النار.

وحطّتْ بلاليطًا حسِبتُ خيوطَهُ ... بصينيَّةِ الإفطارِ تبرًا على تلِّ[١٤]
وألقتْ بِبَيضٍ كالمُلاءَة فوقَهُ ... لُجينٌ حواشيها مُذَهَّبةُ الأصْلِ[١٥]
وجاءتْ بقُوطيِ الجبنِ من عنز بيتِنا ... وغرشةِ ذي رطلين من عَسلِ النحْلِ[١٦]
فإنْ أحضرتْ أيضًا خميرًا وعرْسِيًا ... فقد أسرَفتْ واللهِ بلْ مَعَدَتْ أهلي[١٧]
ولا نشتري بيضًا لإفطارِ أهلِنا ... لأنَّ دجاجَ البيتِ ركَّكَ في الظلِّ[١٨]
ونأكلُ أحيانًا جَرادًا مُحَمَّسًا ... له طعمةٌ «الكفيارِ» في زمنِ المَحْلِ[١٩]
ونشربُ شايًا معْ حليبٍ مُعطّرٍ ... بحبَّاتِ هالٍ والحليبُ لنا مَحلي[٢٠]
ويا حبّذا الكامي مع التمرِ في الضحى ... ونَخّي وباجِلاّ غرامٌ لدى الطفْلِ[٢١]
وأمّا غدا المسكينِ إذ كنتُ طالبًا ... فما كنتُ أهواهُ وما كان يحلو لي
أجيءِ إلى أُمّي لأمكُثَ لحظةً ... فتغرفُ لي عيشًا مع السمكِ المقلي
فآكُلُهُ كالنارِ وهي تَهُفُّهُ ... لأُسرعَ عبرَ الخَورِ للساحلِ القبلي
نواصلُ بعدَ الظَهرِ بعضَ دروسِنا ... ومَنْ جاءَ بعدَ الدرسِ أُنذرَ بالفصْلِ
وأفضلُ وجباتِ الغداءِ بعطلةٍ ... غدائي على مهلٍ فأنعُمُ بالأكلِ
وقد تُطلقُ الأغنامَ قبلَ فطورِنا ... فتَسرحُ فوقَ النَّدِّ أو تلَّةِ الرمْلِ
فترعى مع الأغنامِ من كلِّ منزلٍ ... وترجِعُ بعدَ العصرِ تُسرعُ للنهْلِ
تروحُ وتأتي للبيوتِ بنفسها ... وتحرُسُها (فطُّومُ) في ساحةِ التلِّ
وإن لم تعُدْ عنزٌ إلى البيتِ في المسا ... خَرَجنا إلى الجيرانِ نجهَرُ بالسؤْلِ[٢٢]
فأُصرُخُ: «يا أجوادُ من شافَ عنزَنا ... لها جبهةٌ غرّاءُ والقرنُ كالنصْلِ»[٢٣]
فيُخرِجُها من شافَها في حَوِيّهِ ... إلينا وعُنْقُ العنزِ طُوّقَ بالحبْلِ
وفخّارةُ الأبقارِ تُطبَخُ في الضُّحى ... طعامٌ وعومُ البحرِ أو حشفُ النخْلِ[٢٤]
فتحلِبُها أُمّي بطاساتِ مَعْدِنٍ ... وتتركُها للأكلِ أو لحسةِ العجْلِ
وتَغمِسُ غنغونًا بملّةِ روبِها ... يعجّلُ في الترويبِ في أوّلِ الليْلِ[٢٥]
وتسكبُ كلَّ الروبِ في داخلِ السِّقا ... لتصنعَ منه الزُّبدَ بالمنِّ والرطْلِ[٢٦]

---

١٤. بلاليط: شعيريّة (خليج).
١٥. لجين: فضّة.
١٦. القوطيّ: العلبة (خليج) وفي اللغة القوطة: القفّة الكبيرة (المنجد)، وقد يكون القوطيّ اسما منسوبا إلى القوط الذين كانوا يقطنون إسبانيا قبل الفتح الإسلاميّ للأندلس. غرشة: قارورة زجاجيّة (خليج).
١٧. خمير: نوع من أنواع الخبز الخليجيّ. عرسي: هريسة من الرزّ والدجاج (خليج). مَعَد: أصاب المعدة بمرض.
١٨. ركّ: ركّت الدجاجة أي جلست على البيض (خليج) وفي اللغة ركَّ الشيءَ: طرح بعضه على بعض (المنجد).
١٩. المَحْل: الجوع الشديد أو الجدب. فطّوم هي فاطمة راعية الغنم.
٢٠. مَحْلي: محلّى بالسكّر.
٢١. الكامي: المادّة المترسّبة بعد غلي اللبن المخيض (وتسمّى في قطر أم بريدة) وتؤكل مع التمر أو الرطب؛ وأصل الكلمة «كامي» قلبت الكاف جيمًا أعجميّة أي التاء مع الشين، وكثيرًا ما يقلب أهل الخليج– ما عدا العمانيّين– الكاف هكذا، فإذا نطقنا –مثلا– كلمة «كلب» قلنا «تشلب»، وكلمة كامي مشتقّة من كمَّ أو أكمى الشيء أي غطّاه؛ إذ إنّ الكامي يغطّي جزءًا من فردة التمر (خليج). النخّي: الحمّص (خليج) والمقصود هنا الحمّص المغلي. الباجلاّ: أو الباجلّةْ كلمة خليجيّة متداولة في كلّ الخليج، وأصلها اللغويّ الباقلاّء أي الفول، ولكن غالبا ما نقلب القاف جيما في الخليج؛ فمثلا: الاسم قاسم نلفظه ونكتبه جاسم، كذلك إمارة الشارقة نلفظها الشارجة.
٢٢. السؤْل: السؤال.
٢٣. غرّاء: بيضاء. الأسل: الرماح.
٢٤. فخّارة: الوجبة المطبوخة للبقر (خليج). طعام: جمع طعامة: نواة التمر (خليج).
٢٥. غنغون: خيشوم السمك (خليج)، كانت ربّة البيت قديما تحتفظ بقطعة مجفّفة من خيشوم السمك او معدته تغمسها في الحليب الذي ترغب في ترويبه ثمّ تجفّفها وتعيد استعمالها لعدّة أشهر؛ وهي بذلك تضيف خميرة الروب إلى الحليب في كلّ مرّة تغمس الخيشوم فيه فيتخثّر الحليب ويروّب بسرعة دون أن تعلم السبب العلميّ. الملّة: وعاء صينيّ (خليج).
٢٦. السقا: السقاء قربة من جلد للماء واللبن. المنّ: وحدة وزن تعادل ٩ أرطال في الإمارات و٥٦ رطلا في عمان وقطر.

وإن جلستْ للخضّ وانتضتِ السّقا ... سمعتُ طنينَ الخضّ كالقرعِ بالطبْلِ[27]
إذا حان وقتُ النومِ تَفرِشُ مِطْرَحي ... وتحكي خراريفًا تنوّمُ أو تُسلي[28]
وإن لاحظت بَدءَ النُّعاسِ تحوّلتْ ... تهوّدُ حتّى يبعدَ النومُ بالعقْلِ[29]
وتُوقظني في الصبح للفرضِ قبلما ... يَصيحُ عليّ الأبُّ يغلظُ في القولِ
تَحِنُّ إلى الماضي وقد شابَ إبنُها ... وفي عيشِها يسرٌ فتنأى إلى الأصْلِ
كأنّ إلهي لم يشأ عندَ خلقِها ... سوى حملِها الأعباءَ للبيتِ والطفْلِ
وناشدها يومًا أبي قسطَ راحةٍ ... وأن تَترُكَ الصبيانَ للطبخِ والشُّغْلِ
فما وافقتْ بل عارضت بدُعابةٍ: ... «أراكضُ من صِغْري وما عَجَزتْ رجلي
أأجلس للحِنَّا وقد شابَ مَفرِقي ... ليخدُمَني ناسٌ وفي قدمي نَعلي؟»
فقلت: أبي دَعها ففي الشُغلِ صحّةٌ ... وتنشيطُ سيرِ الدمِّ للقلبِ والعقْلِ
وفي سقيِها الأغنامَ للنفسِ راحةٌ ... وفي طبخها المكبوسَ فنٌّ به تُبلي[30]
وفي حملها الأحفادَ عطفُ أمومةٍ ... وفي قريها النسوانَ من كرم الأصلِ
فما عوَّلت يومًا على خادمٍ أتى ... وما هجرت قدرَ الهَريسِ ولا المَقْلي[31]
فتسقي نُخيلاتٍ وتحلبُ عنزَها ... ولا زالت الأغنامُ في بيتها تُسلي
وكم فوّحت ليْ الزنجبيلَ كبلسمٍ ... إذا كنت زكمانًا وبان لها سَعْلي[32]
وزعترُها المشهورُ قد فاح عطرُهُ ... صباحًا وقبل النوم تأتي به يَغلي
تُصِرُّ على أن أشربَ الكوبَ طائعًا ... ففيه شِفاءٌ للطبيبِ وللأهلِ
وما ردّها كوني طبيبًا مجرّبًا ... وكهلًا أداوي الناسَ والطبُّ ذا شغلي
إذا نظرت أمّي إلى الكهلِ إبنِها ... رأت إبنها طفلًا فما عاد كالكهلِ
فقد نظرت أمّي إليَّ بقلبِها ... وللأمّ قلبٌ يسبق العينَ للطفلِ
جزاكِ إلهي العمرَ يا بْنةَ سالمٍ ... وأبقاكِ للأبناءِ أمًا وللنسْلِ
فيا ربِّ وفّقني أردُّ جميلَها ... ببرٍّ وإحسانٍ يكون لها وَصْلي
ويا ربِّ طوّلْ عمرها كي يَبَرَّها ... ثلاثةُ أجيالٍ وفي بعضها نسلي

---

٢٧. الخضّ: تحريك السقا (خليج).
٢٨. المِطرح: مفرش النوم الذي يطرح على الأرض أو على السرير، والكلمة مشتقّة من طرح، والغريب أنّها نقلت إلى اللغة الإنجليزيّة واحتفظت بلفظها ومعناها العربيّ بتحريف بسيط «ماترِسْMatress «.
٢٩. تهوّد: تغنّي، وتهوّد في لغة أهل الخليج تغنّي للطفل فقط؛ كي ينام.
٣٠. المكبوس: أكلة خليجيّة.
٣١. الهريس أو الهريسة: طعام مكوّن من القمح المدقوق ثمّ المطبوخ مع اللحم؛ وهي أكلة شائعة في الخليج وخاصّة في شهر رمضان وتسمّى بأسماء أخرى في بقيّة الدول العربيّة، ولكنّ أهل الخليج احتفظوا باسمها العربيّ الأصيل؛ إذ إنّها معروفة عند العرب منذ القدم. وأصل الفعل هَرَس: دقّ وكسر، وفي لسان العرب «سمّيت الهريسة هريسة؛ لأنّ البرّ الذي هي منه يُدَقُّ ثمّ يطبخُ».
٣٢. الزكمان: المصاب بالزكام؛ وهو مرض «البرد» أو «الأنفلونزا» المعدي وهو التهاب غشاء الأنف مع تحلّب مخاطيّ من المنخرين، وفي اللغة زكم القربة أي ملأها، أمّا الكلمة الطبيّة «أنفلونزا Influenza» –التي نتجنّب ذكرها على أنّها كلمة أجنبيّة– فهي عربيّة الأصل أخذها الأوربيّون واستعملوها في الطبّ، وأصلها العربيّ «أنف العنزة»؛ وقد أطلق العرب هذه التسمية على المرض؛ للتشابه في نزول السوائل من أنف المريض ونزوله من أنف العنزة.

وصف معيريض

سأقصر حديثي ووصفي لمعيريض على ما شاهدته في فترة طفولتي، وما سمعته عنها من الأهل والأقارب. أمّا أغلب الأرقام والمسافات التي سأذكرها، فهي تقريبيّة، قدّرتها من ذاكرتي؛ فالبعض من أهل معيريض الذين لم يروا المدن الكبيرة كانوا يسمّونها «مدينة» آنذاك، والواقع أنّها كانت قرية صغيرة مكوّنة من شريط رمليّ، على ساحل البحر، طوله في الأصل قبل الحرب العالميّة الأولى حوالي ١٠٠٠ متر من الجنوب إلى الشمال، وعرضه لا يزيد على ٣٠٠ متر (كما أقدّر). ولكن بمرور الأيّام تمدّد شريطها الساحليّ إلى حوالي ألفي متر؛ بالتكاثر والهجرة إليها من مدينة رأس الخيمة والرمس وغيرهما. ولكن بعد الحرب العالميّة الأولى هاجرت إليها عائلات كثيرة من عرب فارس من الساحل الشرقيّ للخليج، مع سفنهم وما تمكّنوا من حمله. ولم تكن تلك الهجرة لأسباب اقتصاديّة كمجاعة أو فقر؛ إذ كانت الموارد المعيشيّة عندهم أفضل ممّا كانت في معيريض، ولكن كانت الهجرة لأسباب دينيّة واجتماعيّة؛ فقد تولّى الحكم في فارس رضا شاه بهلوي، الغربيّ الهوى والتأييد، وذلك سنة ١٩٢٥م، فغيّرَ اسمها إلى إيران، وأصدر أمرًا دكتاتوريًّا بمنع لبس الحجاب والثياب العربيّة الإسلامية؛ فكانت الشرطة تخلع حجاب النساء بالقوّة في الشوارع والأماكن العامّة، حتّى في المساجد والأماكن المقدّسة. وأمر بأن يشمل ذلك القرار العرب في الساحل الشرقيّ من الخليج العربيّ، الذين كانوا يتمتّعون بحكم ذاتيّ، في شؤونهم الدينيّة والاجتماعيّة، ويدفعون الضرائب السنويّة للفرس. ولم يستطع الإيرانيّون المسلمون مخالفة قرار الشاه أو يتركوا بلادهم، أمّا العرب فاعتبروا السفور مخالفًا لدينهم وقيمهم العربيّة، فقرّر أغلبهم الهجرة إلى بلدان أجدادهم الأصليّة، في الساحل الغربيّ من الخليج؛ فكان أغلب العائلات التي هاجرت إلى رأس الخيمة استقرّت في معيريض، وكوّنت حيًّا جديدًا، يمتدّ شماليّ الحيّ السابق على أرض فضاء؛ فالمهاجرون سنّة وأغلبهم شافعيّون. وقد رحّب بهم حكّام البلاد والأهالي، فعاشوا في وئام وتعاون مع جيرانهم؛ في ركوب البحار، وطلب الرزق، والمشاركة في الشعائر الدينيّة، والمناسبات الاجتماعيّة.

وهناك نظريّات متداولة عن هجرة العرب إلى الساحل الشرقيّ، منها النزاع والحروب بين القبائل العربيّة، ولكنّ هذا مستبعد وغير معقول؛ لأنّ الهجرة شملت أعدادا كبيرة من القبائل العربيّة القويّة التي عرفت بالبأس والقوّة في الحروب. وسمعت من المؤرّخ السعودي (جلال خالد الأنصاري) محاضرة في قطر قال فيها: إنّ أهم أسباب هجرة العرب إلى الساحل الشرقي كان تدخّل البرتغاليّين، الذين غزوا الخليج سنة ١٥٠٦م، في مهنة الغوص التي كانت أهمّ موارد الرزق لهم، وتحديدهم لعدد سفن الغوص التي تخرج كلّ شهر؛ وذلك لخوفهم من أن يتحالف أصحاب تلك المئات من السفن سرًّا مع العثمانيّين ويهدّدوا المصالح البرتغاليّة؛ فسبّب ذلك الإجراء نقصًا شديدًا في الكسب؛ فاضطرّ العرب للهجرة إلى مناطق غير مأهولة في الساحل الشرقي من الخليج، ثمّ استمرّوا في الغوص في نفس المناطق العربيّة، وخاصّة قرب البحرين وقطر، بحريّة. أمّا الفرس فما كانوا يسكنون السواحل؛ لكرههم للبحر؛ لذلك لمّا قويت شوكة إيران وأرادت تكوين أسطول بحريّ، استقطبت العرب؛ ليقوموا بالمهمّة.

خصوصيّة معيريض:

لا يمكن أن أتحدّث عن العمارة في معيريض أيّام طفولتي؛ لأنّه لم تكن هناك «عمارة»؛ فبيوتها الساحليّة الأصليّة شيّدت

من الحجارة والجصّ، ثمّ توسّعت بعد ذلك، وتضاعفت منازلها ببيوت بنيت من الجريد (سعف النخل). كانت معيريض قرية بسيطة وفقيرة. ويستغرب أصدقائي في قطر، كثرة ذكري وحبّي لها، فأجيب ببيت المجنون قيس بن الملوّح:

وما حبُّ الديارِ شَغفنَ قلبي ولكن حبُّ من سكَنَ الديارا

وأنا، وإن كنتُ مواطنًا قطريًا، لكنني لا أشعر بأنني غريب في رأس الخيمة، وكيف أكونُ غريبًا وقد نشأتُ فيها، ولي فيها أهلٌ وأصحابٌ أحبُّهم وأحنُّ إليهم؟ وخير مثالٍ على مشاعري الوطنية نحو البلدين أنه في عام ٢٠٠١ كنتُ مرافقًا لسمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، أمير دولة قطر، في زيارتِهِ الرسميّة لرأسِ الخيمة، وأثناءَ حفلةِ العشاء التي أقامها سمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي للشيخ حمد، ألقيتُ قصيدة ترحيب بالشيخ حمد في رأس الخيمة، بينما أنا مواطنٌ قطريٌ قادمٌ معه من قطر إليها، وكان مطلعها:

حمَدٌ أتى فسَعادتي تتوقَّدُ سَعِدتْ بكمْ داري وصقرٌ أسعَدُ

وقلت فيها:

قطرٌ بلادي لستُ أنسى فضلَها والدارُ هذي حبُّها لا يَخمَدُ
دارانِ في قلبي أُساوي في الهوى فأنا الوفيُّ وما أنا مَن يَجحَدُ
قطرٌ وجلفارٌ وكلٌّ خليجنا دارٌ بها الأهلُ الكرامُ توحَّدوا
فلمَ الحُدودُ على الخرائطِ حُدِّدت؟ فالناسُ أهلٌ والتوَحُّدُ يُحمَدُ
إن لم أكنْ بينَ الجُموعِ مُرحِّبًا فلأنني في القادمينَ مُعدَّدُ
يا ضيفَ داري مرحبًا فَي دارِكمْ دارٌ بها كلُّ الطيورِ تُغرَّدُ

لذلك فحنيني إلى أمارة رأس الخيمة بما فيها معيريض، هو بسبب حبي وشوقي لأهلي وأصحابي فيها، وخير ما يدل على ذلك، قصيدتي إلى صديقي وزميلي الشيخ الدكتور سعود ين كايد القاسمي التي كتبتها له في ١٧-٣-٢٠١٦ ومنها:

يأيُّها الأخوانُ في دارِ الصبا شَوقي إليكم ثابتٌ ويَزِيدُ[١]
الدهْرُ فرَّقَنا وكنّا أخوةً هل يا تُرى دَربُ المَزارِ بَعيدُ؟
لم أنسَ في امعريضَ أوقاتِ المَسا بالبَدرِ أسفرتِ الليالي السودُ[٢]
والبحرُ يُغري في الضحى أقرانَنا فالبحْرُ فيها هادئٌ ووَدُودُ
والركضُ واللِعبُ البريءُ حياتُنا ما ردَّنا سِيفٌ بها ونُدودُ[٣]
أعشاشُنا في ذكرياتي جنّةٌ والصبحُ فيها كلَّ يَومٍ عِيدُ[٤]
أشدو بأصحابِ الصِّبا في قَريتي لكنَّهم – لمّا أزورُ – رُقودُ
إن كانَ مِنهم جاحِدٌ لمودَّتي فالبَعضُ عن صِدقِ الوِدادِ يذودُ
والبعضُ منهم لا يُمَلُّ حديثُهُ في بيتِ فَضلٍ نَيِّرٍ مولودُ
أثني على أخلاقِهِ وأعزُّهُ ما كانَ جَحدٌ طبعَهُ وصدودُ
للهِ أيامَ الصِّبا وشبابَنا يا ليتَ أيامَ الشبابِ تعودُ
شَبَّت بصَدري نارُ شَوقٍ للصبا لهَبًا له كُلُّ الفؤادِ وُقودُ
أما النخيلُ فطيفُها في خاطري والغافُ في شِمَلِ الجدودِ عَديدُ[٥]

---

١. دار الصبا: رأس الخيمة.
٢. امعيريض: قرية ساحلية في رأس الخيمة، مسقط رأس الشاعر.
٣. الندود: منطقة رملية فيها تلال شرق امعيريض.
٤. أعشاش: جمع عشة، والمقصود البيوت المبنية من جريد النخل، وهي غالبية البيوت في امعيريض في زمن طفولة الشاعر هناك.
٥. شمل: منطقة نخيل ومياه عذبة قديمة تُنطق محليًا (شِمَل)، كانت مصيفًا لعائلة الشاعر وآباء والدته، حيث يتم في شمل لمُّ الشمْلَ. الغاف: شجر معمّر وارف الظلال.

لله صيفٌ قد نَعِمتُ بعرشِهِ — والنخلُ واللوزُ الظليلُ شُهودُ[٦]
لولا «البدايةُ» ما اهتدينا للهُدى — في (القاسميَّةِ) للعُقولِ مَزيدُ[٧]
قد كانَ يَجمَعُنا إخاءٌ صادِقٌ — دَربُ النُّهى ما نَقتَفي ونَقودُ
دَرَست مدارِسُنا وضاعَ تُراثُنا — والقلبُ في ماضٍ مَضى مَشدودُ[٨]

ذكرياتي في معيريض عزيزة عليّ. وسهرت مرّة فيها سنة ١٩٩٤، مع أصدقاء طفولتي، نتجاذب ذكريات الطفولة والصبا باستمتاع وانسجام. وفي اليوم التالي في الطائرة إلى الدوحة تاريخ ١٣-١٢-١٩٩٤، تذكّرت أحاديث الليلة السابقة؛ فكتبت قصيدة من الرباعيّات سمّيتها (ذكريات):

جلسنا نَنْبُشُ الذّكرى
ونُطري كلَّ ما يَطرا[٩]
فجاءت كُلّها تترى
أحاديثًا عن الأمسِ

وكِدنا نُدركُ الفَجرا
فقال صُويحبي عُذرا
نَسينا الجُرحَ والكَسرا
وفلعاتٍ على الرأسِ[١٠]
ذكرنا السَّيفَ والبحرا
وجولاتٍ لنا برّا
نجوبُ السهلَ والوَعرا
من امعيريضَ للرمسِ

معيريضٌ ويا عَذْرا
نَشمُّ نسيمَها عِطرا
ونَشْرَبُ ماءَها خَمرا
وفوق ترابِها نُمْسي

ظلامُ الليلِ قد أَسرى
جلَسنا فيه كالأسرى
لنسمعَ قصّةً عُسْرى
عن العِفريتِ فى الحبسِ

قرأنا كلَّ ما يُقرا
وريقاتٍ لنا صفرا
حَفِظنا بعضَها شِعرا
عن المجنونِ والعبسي

---

٦. العرش: جمع عريش هو الغرفة الصفية المصنوعة من جريد النخل. اللوز: جمع لوزة وهي شجرة مثمرة.
٧. البداية: المقصود أول مدرسة نظامية في رأس الخيمة بدأنا الدراسة فيها كلنا الشاعر والشيخ سعود بن كائد.
القاسمية: مدرسة بناها الشيخ صقر قرب حصنه (مقره) حلت محل مدرسة القديمة.
٨. درسَ الاثر: عفا وامتحى.
٩. نطري: نذكر (خليج). يطرا: يطرأ أي يخطر على البال.
١٠. فلعات: جمع فلعة وهي شقّ في الرأس (خليج). وفي اللغة: فلع رأسه بالسيف: شقّه (الوسيط).

حَدقنا ليلةً قَمْرا[1]
بشاحوفٍ يرى البدرا[2]
وبدرٌ يكشفُ الدُّرَّا
ودُخْسٌ همَّ بالعُرسِ[3]

عَبرنا خَوْرَنا عَبرا
صباحَ اليوم والعَصرا
وندفعُ آنةً أجرا[4]
لندركَ حصّةَ الدرسِ

شَرينا الأمسَ لو يُشرى
ولو جُعنا ولو نَعرى
وقلنا ربُّنا أدرى
نبيعُ اليومَ بالبَخسِ

زمانُ الأمسِ قد مَرّا
وذُقنا بعدَه مُرّا
فموتٌ بعدَه أحرى
إذا عِشنا بلا أُنسِ

برج معيريض

فمعيريض قرية تشبه القرى الأخرى على ساحل البحر، ولها معالم خاصّة تميّزها؛ فالخور غربها، والندود (التلال الرمليّة) شمال شرقها، والبريّ (البرج) شرقها، وبيت السركال على ساحل البحر في وسطها. أمّا معيريض من الناحية الجغرافيّة فيحدّها غربًا البحر، وشرقًا أرض سَبِخة (قاحلة ومالحة)؛ بسبب وصول ماء البحر في نهاية الشهر العربيّ أحيانًا؛ ليحاصرها من الشرق والغرب والشمال والجنوب كجزيرة. وكان قريبًا من شرقها الجنوبيّ برج للحراسة له عمارة مميّزة، ارتفاعه حوالي ستّة أمتار، به حرّاس مسلّحون بالبنادق؛ لحمايتها من دخول اللصوص والغزاة من الشرق، أمّا بقيّة الجهات فهي في حماية البحر.

وكان أهل معيريض يعيشون على الملاحة، والغوص، وصيد الأسماك. ويملكون ما يقرب من عشر سفن شراعيّة كبيرة، تجوب الخليج العربيّ وبحر العرب والمحيط الهنديّ؛ للتجارة بين البصرة وفارس، ودول الخليج، والهند وشرق إفريقيا. وأهمّ ما تنقله من الخليج التمر من البصرة إلى الهند وإفريقيا، وتجلب منهما موادّ البناء إلى الخليج، كالكندل (Candle Wood) والأخشاب والحبال والمنقور والباسجيل (وهما من البامبو أي الخيزران، يجلبان من إفريقيا ويشقّ إلى نصفين؛ للاستعمال في السقوف).

سقف بيت قديم في معيريض (بيت السركال)؛ الجسور الخشبيّة من الكندل وفوقها المنقور أو الباسجيل (تصوير حجر).

١. حدق: صاد السمك بالخيط.
٢. شاحوف: قارب خليجيّ خشبيّ لصيد السمك.
٣. الدُّخس: سمكة الدولفين.
٤. آنة: عملة هنديّة كانت تستعمل في الخليج.

وفي فصل الصيف كان أغلب سكّانها يتحوّلون شرقًا لمنطقة النخيل، قرب نخيلهم، التي لا تبعد عن معيريض أكثر من ٢٥٠٠ إلى ٤٠٠٠ متر؛ هربًا من الحرّ الشديد، والرطوبة العالية، حيث الماء الوفير والرطب واللوز وأحواض الماء المنعشة. ولا يبقى في المدينة صيفًا إلا الفقراء والذين لا يملكون نخيلًا.

أمّا ليالي معيريض فكانت حالكة، إلا في الليالي المقمرة، وشديدة الهدوء؛ لعدم وجود كهرباء أو آلات أو سيّارات. ولا يُسمع في ليلها إلا أصوات موج البحر، ونباح الكلاب أحيانًا؛ فينام الناس فيها مبكّرين، في الغالب خلال ساعة بعد صلاة العشاء، ويستيقظ أكثر الناس مع الفجر صباحًا أو على صياح الديكة. ولا يوجد في المدينة سوق، ولكن بها ثلاث أو أربع دكادين صغيرة متفرّقة، تبيع الحاجات الأساسيّة، كالرزّ والطحين والسكّر وبعض المعلّبات، كالفواكه؛ لندرة الفواكه الطازجة. ومن أراد التسوّق لحاجات أخرى، فلا بدّ أن يعبر البحر بالقوارب إلى العاصمة (مدينة رأس الخيمة)؛ ففيها سوق واحد، عبارة عن طريق ضيّق للمشي، طوله حوالي ١٥٠ مترًا، بها دكاكين صغيرة متراصة على جانبيه. ولا يحتاج الأهالي في معيريض لشراء البيض والألبان؛ إذ كانوا يربّون الحيوانات الأليفة، كالدجاج والغنم، في بيوتهم، كما كان الميسور منهم يحتفظ ببقرة في بيته.

ما تبقّى من سوق رأس الخيمة القديم

لم تعرف معيريض ولا رأس الخيمة الطبّ الحديث آنذاك، بل كانت تعتمد على الطبّ الشعبيّ البدائيّ، كالكي، والحجامة، وبعض الأعشاب والمعادن.
وأختتم هذا الفصل بقصيدة (حنين إلى الأطلال) التي أصف فيها حنيني إلى أرض الطفولة.

أهاجَ الأمسُ ما تحتَ الشَّغافِ ... وليسَ لشَغْفِهِ بالأمسِ شافي[1]
أَحِنُّ إلى الصِّبا والأمسِ حتى ... تَودَّ الروحُ نزعًا لانصرافِ
يطولُ الشوقُ يُمعِنُ في عذابي ... فيهجُرُني الكَرى والدمعُ طافي
ولي في الطِّبِّ عِلمٌ ليسَ يَخفى ... وما بدرُ الدُّجى في الكونِ خافِ
وما للشوقِ عندي من دَواءٍ ... وما صبري لهذا الوَجدِ كافِ
أخافُ من الزمانِ ومن فِراقٍ ... وبُعدِ أحبةٍ بعدَ ائتلافِ
ويجري الدمعُ للذِّكرى سخيناً ... وللأطلالِ شوقي غيرُ خافِي
فما لي لا أَكُفُّ عن اشتياقي ... إلى الأطلالِ من نخلٍ وغافِ؟[2]
ومن عُرشٍ وأحواضٍ ولوزٍ ... وطيّاتٍ وعنزاتٍ ضِعافِ[3]
وشُربي من طويّ النخلِ عذبًا ... ألذُّ لدى النديمِ من السُّلافِ[4]
وأجري فوقَ سِيفِ البحرِ صبحًا ... ويسترُني إذا ما شئتُ (هافي)[5]
وكم غُصنا صغارًا في سُرورٍ ... بأوقاتِ الضحى والبحرُ صافي
وشمسُ الظهرِ تنفذُ في جلودٍ ... لأطفالٍ (مُفَسَّخَةٍ) عِجافِ[6]
أما في العلمِ للمشتاقِ طِبٌّ ... يهدِّي القلبَ، للأشواقِ شافي؟
إذا ما الشيبُ في الفودينِ أسرى ... حَننتُ إلى الصِّبا وبه انشغافي
فذكرُ الأمسِ أشجاني بوَجْدٍ ... وحرُّ الوَجدِ ألهمني القوافي

---

١. الشَّغَافُ: غلاف القلب، أَو سويداؤُه وحَبَّته. شغَفه الحب: فتنه وأصاب قلبَه.
٢. الغاف: شجرٌ خليجي معمر يكثر في عمان والإمارات، كثيف الظل.
٣. العِرش: غرفة صيفية من سعف النخل. لوز: شجر خليجي مثمر صيفًا. طيات: جمع طية، وهو سور مزرعة النخيل المشيد من الحصى والطين.
٤. الطوي: البئر في لهجة أهل عمان والإمارات، والأصل البئر المطوية. السلاف: أفضل الخمر.
٥. الهاف: «الكلسون».
٦. مفسخة: عارية (خليجية).

بيتنا في معيريض

ولادتي:
قبل أن أشرع في وصف منزلنا في معيريض، يستحسن أن أتحدّث عن ولادتي فيه؛ إذ إنّها سبقت فترة تذكّري له كما سأصفه.

أخبرني والدي بأنّه كان في مجلسه، من سعف النخل، في معيريض يقرأ في الصباح كتابًا، عندما أتت إليه العجوز السمراء (سارة)، من خلف جريد المجلس تبشّره بأنّ زوجته قد أنجبت ولدًا؛ فكافأها على البشرى بالمتيسّر، وأخذ قلمه وكتب على حاشية الصفحة التي كان يقرأ فيها: ولد حجر الساعة كذا صباحًا، في الثاني من صفر سنة ١٣٦٢ هـ (١٩٤٣م). وبقي ذلك التاريخ في ذاكرته، ولو أنّه نسي اسم الكتاب الذي كان يقرأه آنذاك. وقد قال لي مرّةً في مكتبته في قطر مداعبًا وأنا شابّ: «إنَّ تاريخَ وساعةَ ميلادِك في صفحة من صفحات أحدِ هذه الكتب على الرفوف، فابحث عنها إن شئت». فكيف لي أن أبحث عن صفحةٍ في كتاب بين آلاف الكتب؟!

لم تكن وِلادتي في غرفةٍ معقّمة في مستشفى كما هو الحال اليوم؛ إذ لم يكن هناك أطبّاء أو مستشفيات في رأس الخيمة آنذاك. ولكن ولدت على حصير في خيمة من الجريد، بمساعدة داية محلّيّة من عجائز الحيّ. وكان معدّل وفيات النساء عند الولادة مرتفعًا نسبيًّا. كما كنّا نسمع عن موت فلانة وفلانة عند الولادة؛ بسبب النزيف أو عدم القدرة على إخراج الجنين، وعن الحمّى والمرض بعد الولادة. ولم يكن في خيمتنا إلا سرير واحد للوالد. وكانت كتبه مكدّسة في أركانها. فكانت تلك غرفةَ نوم والديَّ وأنا وأختي. فشاهدتُ علاقة والدي بالكتب منذ ولادتي، كما شاهدَت الكتب ولادتي.

وصف بيتنا في معيريض:

البيت الأوّل:
البيت الأوّل الذي شهد ولادتي، لم يكن قرب البحر، بل كان يفصله عن البحر بيت الحاجّ إسماعيل جكة. لقد ولدت في البيت الأوّل الذي كان كلّه من سعف النخل، كما هي منازل جيراننا في معيريض آنذاك، وكان منزلًا صغيرًا لا يطلّ على البحر. ولمّا بلغت الرابعة من العمر بنى لنا والدي بيتا جديدًا قرب ساحل البحر، سمّيته هنا «البيت الثاني»، ميَّزته ثلاث غرف شيدت من الحجر والجصّ. ويحتمل أنّي كنت قد بلغت الخامسة عندما اكتمل البيت الجديد وانتقلنا إليه؛ لأنّي خُتنت وأنا في البيت القديم. ولا أظنّ أنّ الناس كانوا يختنون الأطفال قبل الخامسة في معيريض. والوالد عرف عنه الدقّة في التواريخ، وقد سألته وهو مقعد في مرضه الأخير: كم كان عمري عند ما كان البيت الجديد يبنى قرب البحر؟ فرفع أربع أصابع من كفّه؛ لأنّه كان مشلولًا ولا ينطق.

لقد كانت عندي ذاكرة «فوتوغرافيّة» وأنا في الرابعة من العمر، في البيت الأوّل. أذكر خيمة والدي، خيمة كبيرة، بابها مقابل الشرق، والخوص (ورق سعف النخل) يتدلّى من جريد الخيمة، وعلى بعض خوصات منه ذباب ميت ملتصق

به؛ بتأثير المبيد الحشريّ الشائع الاستعمال نسمّيه فليت، الذي كان يصبّ في مضخّة صغيرة وترشّ به الخيمة. بحثت عنه في الإنترنت فوجدت اسمه FLIT وكان يحتوي على ٥٪ DDT الخطر في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات من القرن الماضي، ثمّ تمّ إيقافه؛ لتاثيره الضّارّ بالصحّة والبيئة.

وما زلت أذكر أنّني كنت أصبّ الماء على يد جدّتي مريم، أمّ الوالد، وهي تغسل يدها بالماء والصابون، بعد الغداء في تلك الخيمة.

مضخّة رشّ الذباب

وفي داخل الحوش جنوبًا عريش نجتمع فيه؛ للإفطار، بابه مشاهد الشمال. وكانت أمّي تضع فيه منقل الجمر، على الشمال من المدخل، وعليه الشاي مع الحليب. وفي موسم الجراد يكون الجراد مغليًّا في الماء ثمّ يحمّس (يقلى) على النار، ونأكله وحده أو مع الخبز، ولا أذكر أنّنا كنّا نأكل الجراد في غير وقت الفطور. وقد قلت في قصيدة (أمّي) من اللاميّة:

ونأكلُ أحيانًا جَرادًا مُحَمَّسًا — له طعمةُ «الكفيارِ» في زمنِ المَحْلِ
ونشرَبُ شايًا مع حليبٍ مُعطَّرٍ — بحبَّاتِ هالٍ، والحليبُ لنا مَحلي

كان منزل عمّي شرق بيتنا، وفيه يعلّم القرآن لمجموعة كبيرة من الأولاد. وأذكر أنّني قبل أن أتعدّى الرابعة من العمر ذهبت إلى عمّي مرّة وهو يعلّم الصبيان، وكانت بيده عصا، فقلت له أريد أن تعلّمني القرآن؛ فأخذ رأسي بين يديه وحرّكه يمينًا وشمالًا، ثمّ رفعني عن الأرض قليلًا وهو ممسك برأسي وأنزلني، قائلًا: «اذهب لأمّك وقل لها إنّك اليوم ختمت القرآن»، فصدّقته وركضت إلى أمّي أخبرها مسرورًا.

الخيمة:

عشنا شتاء في الخيمة، وهي الغرفة الشتويّة من الجريد، لها سقف محكم الغطاء بالجريد والحصر، مائل على الجهتين؛ لتصريف ماء الأمطار بسهولة، فلا يدخل الخيمة. جدران الخيمة صادّة للرياح، مكوّنة من الجريد المرصوص مع خوصه.

خيمة من سعف النخل

خيمة أمّي

العريش: هو الغرفة الصيفيّة، جريد جدرانها عار من الخوص في نصفه الأسفل، يسمح للهواء بالانسياب داخل الغرفة. أمّا السقف فهو مواز للأرض دون ميلان، للظلّ فقط؛ لأنّ الامطار لا تهطل عادة في الصيف عندنا.

العريش

العريش المكصص

وفي شرق المنزل خيمة قريبة من العريش، بابها مشاهد الغرب وفي شمالها مكان تأوي فيه الغنم. أمّا الدجاج فكنت أشاهده– في البيتين الأوّل والثاني– يصعد طائرًا إلى خشبة طويلة معلقة أفقيًا موازية للأرض، وكأنّها غصن شجرة، قريبة من مكان الغنم، نصبت له خصّيصًا؛ لينام عليها بعد الغروب مباشرة؛ وذلك لأنّ الدجاج لا يعجبه النوم إلا في مكان مرتفع؛ خوفًا من الحيوانات المفترسة. أمّا الديك فينام في وسط الدجاج لا على الأطراف، وقد يكون ذلك بالفطرة؛ للمحافظة عليه؛ لأنّ الحيوان المفترس كالثعلب، إذا أتى ليلًا فسيهاجم الدجاج المتطرّف.

لم نكن نشتري البيض ولا الحليب ومشتقّاته؛ من الروب واللبن والزبد والسمن والجبن؛ فكلّ ذلك متوافر في البيت من حليب غنمنا. والجدير بالذكر أنّ الألبان والبيض لا تباع في الدكاكين والأسواق في رأس الخيمة آنذاك؛ لأنّ كلّ منزل فيه أغنام ودجاج. وفي الجهة الشماليّة من البيت طوي (بئر) لا يزيد عمقها عن ثلاثة أمتار، لا يصلح ماؤها الذي يميل إلى الملوحة للشرب، بل يصلح للغسيل والوضوء.

ما زلت أذكر البنّائين، وهم يبنون جدار المجلس الجديد قرب البحر؛ فكانوا يصفّون الحجارة ويتأكّدون من تساويها وتناسقها في الصفّ مع بقيّة الحجارة تحتها بآلة (القبّان)، وهو ثقل معدنيّ لايزيد عن ٢٠٠ جرام يتدلّى بخيط. وكنت مع الأطفال الصغار نلعب لعبة (الجحيف[١]) في ظلّ الجدار.

البيت الثاني:

أخبرني الأخ محمّد مطر من أهل معيريض، الذي يكبرني عشر سنوات أو أكثر، أنّ الوالد لمّا أنشأ بيته الأوّل شرق بيت الحاجّ إسماعيل، بعيدًا عن البحر، لم يضع فيه مجلسًا، ولكنّه حوّط أرضًا قريبة من البحر بالجريد، ووضع فيها عريشين: أحدهما جعله مجلسه، والآخر مدرسة للصبيان يدرّس فيها عمّي في الأيّام الأولى. وكان محمّد مطر تلميذًا في مدرسة العمّ يتعلّم القرآن. ويذكر أنّه إذا عزم –(دعا) الوالد أناسًا على الغداء– كان الطبخ يتمّ في البيت القديم، فيقوم هو مع بعض الصبيان الذين يدرسون عند العمّ في العريش، فيتعاونون في نقل الغداء من البيت إلى المجلس الجريديّ عند البحر. وكان الوالد عنده طلبة أيضًا في مجلسه، يعلّمهم العلوم الشرعيّة، ومنهم: سيف بن سعيد بن غباش، وأحمد وسعيد ابنا علي الشامسيّ، وأحمد سالم بن بلال. ثمّ أنشأ الوالد بيتنا الثاني في تلك الحوطة القريبة من البحر.

لذلك، لمّا أبلغت سارة الوالد أنّ أمّي أنجبت ولدًا، لم يكن الوالد في البيت الأوّل، بل كان في مجلسه المؤقّت القريب من البحر.

ولمّا بلغت الخامسة من العمر انتقلنا إلى بيتنا الجديد، قرب ساحل البحر، الذي به غرفة لوالديَّ شيدت من الحجارة والجصّ، وبها رفوف رصّت عليها الكتب. فقد نشأتُ ونمت أنا وأختي معهما في تلك الغرفة، أرى الكتبَ عندما آوي إلى فراشي وأراها عند ما أستيقظُ من النوم. ومن النادرِ جدًا بل من المستحيل أن ينامَ الطفلُ في غرفةٍ منفصلة وحدَه آنذاك، حيثُ الظلامِ الدامس قبل وصول الكهرباء للمنازلِ في رأس الخيمة، يدخل الرعب في نفوس الصغار والكبار؛

١. لعبة الجحيف: نعمل خطوطا متوازية ثمّ نقف على قدم واحدة وندفع «جحفًا» بإبهام تلك القدم، عبر الخطوط، في حين القدم الأخرى مرتفعة إلى مستوى الركبة. والجحيف تصغير جحف، وهي قطعة من الفخّار المكسور، أصل الكلمة جحف هي قحف، مثل قحف الجمجمة، قلبنا القاف جيمًا في الخليج.

بسبب اعتقاد المجتمع بالجنّ والعفاريت والسحرة المختبئة في الظلام من حولهم.

كان يلفت نظري دائمًا كتاب أسود كبير، في عشرة مجلّدات، فوق رفّ قريب من مطرح[1] نومي في الغرفة. وبعد أن تعلّمت القراءة، قرأت عنوانه: «تاج العروس». ولم أفهم أنّه قاموس، حتّى بعد المرحلة الابتدائيّة؛ إذ كنت أظنّ أنّه كتاب عن العروس، وله علاقة بالأمور الجنسيّة. وفي قطر طلبت ذاك المعجم من الوالد، ونقلته إلى مكتبتي الخاصّة لذكرى الطفولة، إلى جانب طبعة حديثة منه. ووجدت فيه أنّ طباعته كانت «بالمطبعة الخيريّة المنشأة بجماليّة مصر سنة ١٣٠٦هـ»، الموافق ١٨٨٨م.

وفي السادسة من العمر بدأت الذهاب مع أختي؛ لتعلّم القرآن عند المطوّعة (المعلّمة) آمنة بنت إبراهيم، من البيت الجديد.

تاج العروس القديم

لقد كان مكتوبًا فوق مدخل المجلس سنة (١٣٦٦هـ)؛ أي أنّه تمّ بناء البيت في ذلك العام الموافق ١٩٤٧م؛ أي كان عمري ٤ سنوات، كما ذكر الوالد، ولكن بمرور الزمن تعسّرت رؤية الأرقام.

وأذكر أنّ جدّتي مريم كانت معنا في البيت الجديد، وعاشت حتّى بلغت أنا الثامنة من العمر. أمّا جدّتي عليا، أمّ الوالدة فلم تكن معنا، بل كانت تعيش في الرمس، وتوفيت وهي مصيفة في مصيفنا في شمل، وأنا في حوالي السنة العاشرة من عمري.

سأسهب في وصف البيت لكم من ذاكرتي إسهابًا قد تجدونه مملًا:

لا يبعد البيت الجديد أكثر من ٣٥–٤٠ مترًا عن ساحل البحر الكائن غربًا. ويتكوّن من حوش مربّع الشكل مبنيّ من سعف النخل، تبلغ مساحته حوالي ١٦٠٠ متر مربّع. وهو يشابه البيت السابق في التوزيع والمكوّنات المنزليّة، إلا أنّه تميّز بإضافة مبان مشيّدة بالحجر والجص. ولم يكن في الفريج (الحيّ) الشماليّ غرفة مشيّدة بالحجارة مثل ذلك إلا في بيت محمّد بو حميد بن دلموك.

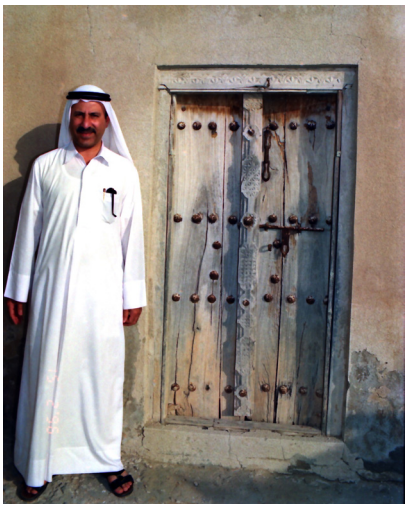

أنا واقف قرب باب المجلس القديم

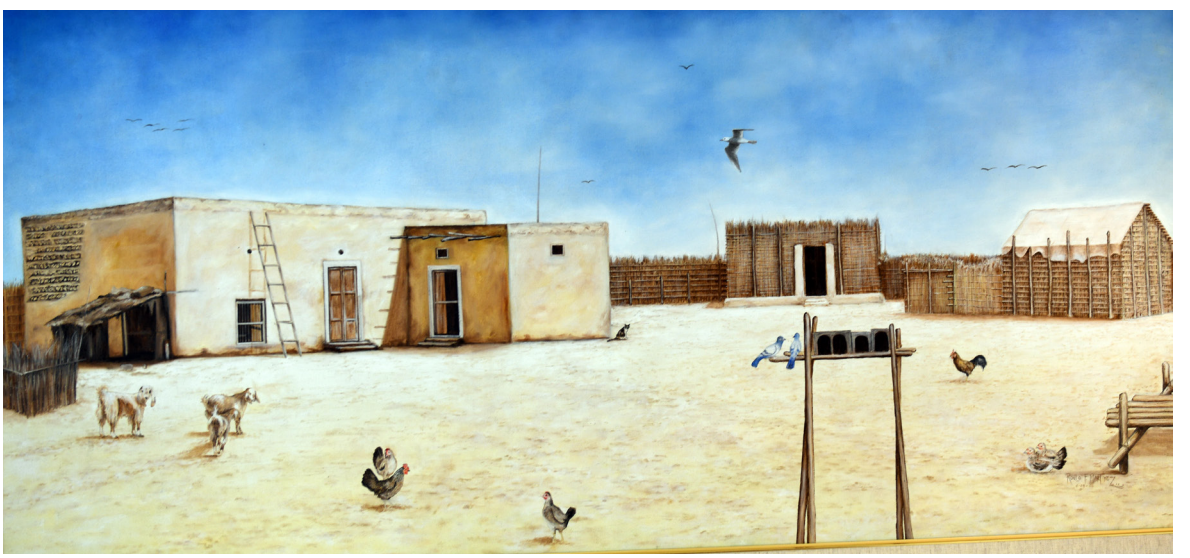

البيت الثاني

١. المطرح: كلمة فصيحة أي المفرش، فهي تطرح للنوم أي تلقى، وأخذتها اللغة الإنجيليزيّة من العربيّة Matress

في سنة ١٩٥٨ التقطت صورًا متعدّدة للبيت، وحديثًا أعطيتها رسّامًا يحوّلها إلى لوحات زيتيّة طبق الأصل؛ فالصورة أعلاه تبيّن الجزء الغربيّ والشماليّ من بيتنا في معيريض؛ ففي يسار الصورة (الجهة الغربيّة) من المنزل، نرى حجرة النوم الرئيسيّة مشيّدة بالحجر والجصّ، وعلى جدارها الخارجيّ مظلّة للبقرة. ولحجرة النوم نافذة واحدة أرضيّة، وعلى بابها تحت السقف كُوّة؛ وهي فتحة مستديرة للتهوية، قطرها عشرون سنتيمترًا، لا غطاء لها، مفتوحة دائمًا. وفي أوّل الصباح أستيقظ على صوت هديل ذكر الحمام في الكوّة، فأراه يدور نافشًا ريشه.
وملاصق بغرفة النوم شرقًا مرفق وهي غرفة صغيرة جدًّا خاصّة لتناول الطعام، للوالد ولي فقط، لا للضيوف. أمّا النساء فلم يكنّ يأكلن مع الرجال آنذاك. وفي غرفة الطعام الصغيرة قطيعة صغيرة لحمّام، طولها متر ونصف وعرضها متر؛ للوضوء والاستحمام فقط، لا لقضاء الحاجة. ولغرفة الطعام بابان: داخليّ من الغرفة، وخارجيّ إلى الحوش (فناء الدار). ومن حجرة النوم باب يؤدّي إلى ممرّ متّصل بالمجلس المطلّ على البحر غربًا. وعرض المجلس أربعة أمتار وثمانون سنتيمترًا وطوله حوالي ٦ أمتار، وبجانبه مخزن للأغذية، استعمل دكّانًا لبيع بعض المواد الغذائيّة قديمًا.

الجهة الغربيّة من البيت بعد مرور ٧٠ سنة على بنائه

وغرفة النوم الرئيسية مطليّة من الداخل بالنورة، التي كانت تحلّ محلّ الصبغ الأبيض، الذي لم يكن متوافرًا. والنورة كلمة عربيّة، ذُكرت في معجم تاج العروس: (النُّورَة، بالضمّ: الهِناء، وهو من الحجر يُحرَق ويُسوَّى منه الكِلسُ). والنورة مسحوق أبيض، يحضر من حرق حجر الجير (المحتوي على كربونات الكالسيوم) فيستعمل في عمليّة البناء أو طلاء الجدران. وشاهدت الناس في معيريض، يجمعون كيزان البحر؛ لعدم توافر الحجر الجيريّ، وهي تحتوي أيضًا على كربونات الكالسيوم، فتكوّم في كومة كبيرة، وتحرق ثم تحوّل إلى مسحوق بالتكسير، فتصبح نورة. كما تخلط النورة مع شحم الحيوانات، ويسمّى الخليط «وَدَك» وتطلى به ألواح السفن، مكان ملامستها للبحر؛ ليمنع تسرّب الماء داخل السفينة. وفي اللغة الودك هو الشحم أو سمن الحيوان.

الكيزان

ومن الممكن استعمال النورة، مثل الأسمنت الأبيض للزينة، وقد استعملت في غرف نومنا؛ لعمل زخارف بخطوط هندسيّة، وأقواس بارزة قرب السقف، المكوّن من خشب الدنقل (كندل Candle wood) وفوقه المنقور (قصب) وعليه الطين. فطول غرفة النوم أربعة أمتار ونصف وعرضها ثلاثة أمتار، وبابها مواجه لشروق الشمس. وعلى الجدار الشرقيّ شمال بابها الرئيسيّ منفذ صغير يؤدّي إلى غرفة الطعام، يليها حمّام للوضوء والاغتسال، كما ذكرت. وجنوب الباب الرئيسيّ للغرفة دريشة خشبيّة (شبّاك).

وفي الركن الجنوبيّ (سرير[1] كبير) للوالد، من خشب أسود، عموديٌّ على الجدار الشرقيّ وموازٍ لجدار العرض الجنوبيّ، مرتفع على أربع قوائم، ارتفاع كلّ منها متر. وفوق القوائم ارتكزت أربعة أعمدة خشبيّة، بارتفاع لا يزيد عن متر، مكسوّة بستائر بيضاء حول السرير، مغطّاة بقماش (تور شاش) أبيض شفّاف يمنع دخول الحشرات.

السرير – صورة من المتحف

وعلى أرض الغرفة تفرش أمّي، لي ولأختي، عند النوم مطرحين من القطن، قريبين من شبريّتها (سريرها الصغير) المصنوعة من الخشب والحبال (كما في الصورة). وارتفاع الشبريّة نصف متر، وهي موازية للجدار، بجانب شبّاك الغرفة.

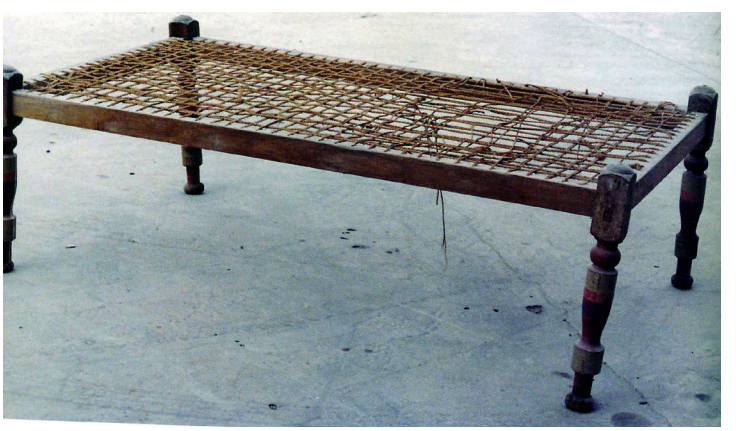

شبريّة

١. في تلك الأيّام كانت كلمة سرير عندنا تعني السرير الكبير المرتفع فقط، وفوقه الأعمدة للقماش الساتر، أمّا السرير الصغير فكان يسمّى شبريّة؛ وهي لفظة من أصول حميريّة ما زالت تستعمل في أرتيريا وعند أهل المهرة في اليمن.

وبجانب جدار العرض الشماليّ وُضعت الصناديق الخشبيّة الأرضيّة المزخرفة بالمسامير النحاسيّة (صندوق بو نجوم)؛ لتخزين الثياب والأدوات المنزليّة بدلًا من الدواليب (الخزانات المرتفعة). وفي الجدران تجويفات مزخرفة تحتوي على أرفف، تُصفّ عليها الأوعية المزخرفة، مثل: الملّات، والصحون الصينيّة، والمرشّات. ويطلق على تلك التجاويف (الروشنات) في الخليج، وفي البحرين (روزنة). ولا شكّ أنّها لفظة أجنبيّة، وقد تكون فارسيّة الأصل؛ لأنّ البنّائين المهرة في الخليج كانوا إيرانيّين.

وجدار الغرفة الغربيّ عليه رفوف الكتب، وليس لذلك الجدار شبّاك؛ لأنّه مشترك مع غرفة التخزين الخارجيّة. وجنوب الغرفة الرئيسيّة خيمة من الجريد لتخزين الطعام، بجانب ظلّة للبقرة.

وفي شمال البيت (انظر منتصف اللوحة الزيتيّة للبيت أعلاه) عريش أنيق (مكصّص[1]) للوالد على دكّة مرصّعة بالحجر والجصّ، وبابه المثبت على عمودين من الحجر والجصّ مشاهد الجنوب.

ثمّ على يمين العريش –كما في الصورة خيمة للوالدة– بابها مشاهد الشرق؛ فخيمة الوالدة مخصّصة لحاجاتها الشخصيّة؛ من ثياب ومقتنيات خاصّة؛ لأنّ غرفة النوم المشتركة مع الوالد مزدحمة بالكتب.

سقف المنزل

خيمة أمّي

وفي أوّل اللوحة المرسومة أعلاه تظهر الصناديق الخشبيّة المرتفعة للحَمام، على أعمدة في منتصف الحوش. التي كنت أربّيها وأنا صبيّ، كما تظهر الدجاج والغنم في الحوش (فناء الدار). وفي اللوحة أدناه يظهر «السيَم» (المنامة) على ارتفاع متر عن الأرض؛ وهو مكان النوم الليليّ للعائلة في أوائل الصيف؛ إذ ننام في الهواء الطلق والظلام، نشاهد النجوم.

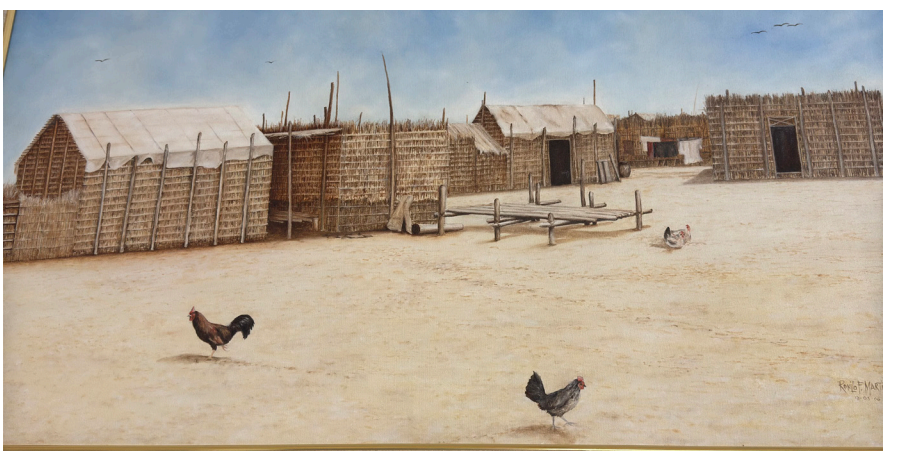

١. المكصّص: أي أنّه مشيّد على دكّة؛ والدكّة هي مرتفع مبنيّ بارتفاع يقرب المتر علوًّا عن الأرض.

وفي الشرق من الحوش، خيمة كبيرة استعملتها الجدّة، مشاهدة الشمال– كما في اللوحة أعلاه– وبجانبها عريش مواز لها، ثمّ خيمة للعمّة مشاهدة جهة الجنوب الغربيّ. ثمّ عريش مشاهد غربًا، بمنزلة مجلس للناس، ومكان الإفطار وشرب الشاي صباحًا.

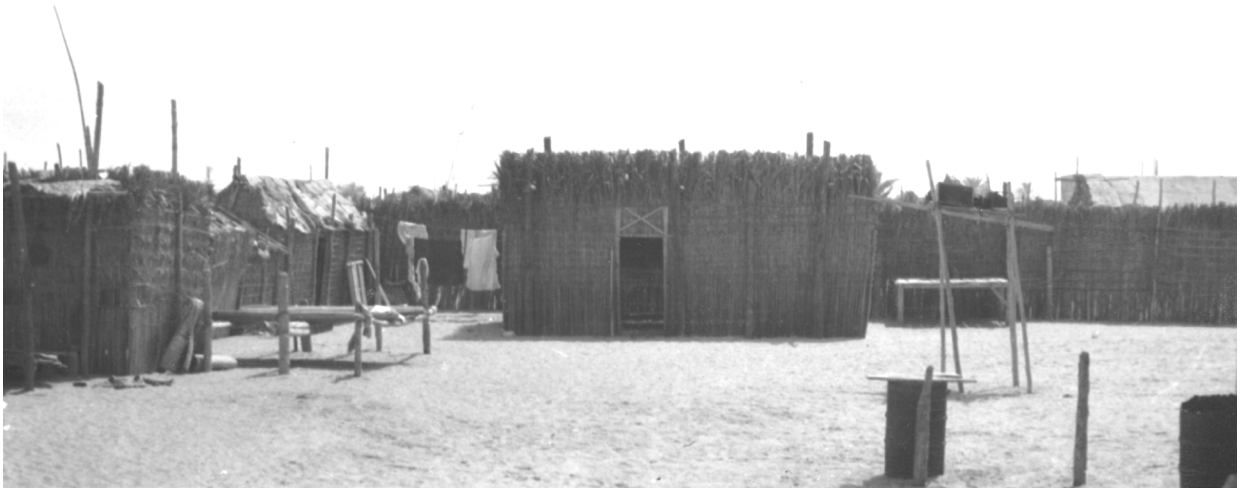

صورة فوتوغرافيّة للمنطقة الجنوبيّة من البيت سنة ١٩٥٨، وفي الوسط عريش الإفطار. وكانت عمّتي تسكن البيت تلك السنة فقط

وقرب السور شرقًا، كانت هناك عشّة للطبخ، وحوطة صغيرة من السعف على شكل (L) للغنم. أمّا الدجاج فكان طليقًا في الحوش. كما يوجد في المنزل تنّور من الفخّار مدفون معظمه تحت الرمل؛ تتجمّع نساء الجيران حوله؛ للخبز بين العصر والغروب.

كان الحويّ واسعًا وأرضيّته رمليّة نظيفة كما هو واضح من الصور، وفيها– وللأسف– حشرات الظمي تتسرّب من البقرة فتمتصّ دماءنا، ولا نحسّ بها إلا بعد أن تنتفخ الحشرة بالدم وتصبح مثل (البالونة) الكرويّة الحمراء على جلودنا (كما سيأتي)؛ ولأنّها من النوع الذي يفرز مادّة مخدّرة للجلد فلا نحسّ بالقرصة.

أمّا لماذا كلّ تلك الحيوانات في المنزل؟

لقد كان طعامنا الرئيسيّ العيش (الرزّ) والسمك، ومن النادر أكل اللحوم الحمراء؛ لأنّها قليلة ومكلفة. ولا تباع منتجات اللحوم والألبان والبيض في معيريض، كما ذكرت آنفًا، فكان عندنا الاكتفاء ذاتيّا من البيض والألبان والسمن؛ لوجود الدجاج والغنم مع بقرة في البيت. ولا يخلو بيت في معيريض من الدجاج والغنم لتلك الأسباب.

مجلس الوالد:

يطلّ مجلس الوالد على البحر القريب منه، وللمجلس ثلاثة درايش (شبابيك) أرضيّة، شمالًا وغربًا وجنوبًا. وكان المجلس يتراءى لي كبيرًا عند ما كنت صغيرًا، ولكنّه في الواقع أربعة أمتار وثمانون سنتيمترًا عرضًا وحوالي ٦ أمتار طولًا.

كان المجلس يخدم أغراضًا متعدّدة؛ فهو مكان الجلسات الاجتماعيّة مع الجيران والزائرين من أهل معيريض، ومكان استقبال الضيوف من خارج معيريض، ومكان نومهم، وخاصّة في فترة القيلولة، وهو غرفة الطعام للضيوف، والمحكمة الشرعيّة الوحيدة لرأس الخيمة، ومكتبة الوالد

مجلس الوالد على اليسار والمخزن على يمين الصورة

للقراءة والبحث، وغرفة التدريس لطلّاب العلم. وكان السقف من الكندل كما في الصورة.

السقف

وعندما صرت صبيًّا كانت مسؤوليّتي أن أصبّ القهوة للضيوف في المجلس عصرًا، أمّا في الصباح فكنت في المدرسة. فلا بدّ من إحضار الدلّة وهي حارة من داخل البيت إلى المجلس؛ إذ لم تصل «الزمزميات» رأس الخيمة آنذاك. ولم يكن عند الوالد مالٌ يكفي لتوظيف مقهوي. كما أنّه من المقبول والمتوقّع اجتماعيًّا أن يصبّ ابن صاحب المجلس القهوة للضيوف. ولم أكن سعيدًا بتلك المسؤوليّة؛ لأنّي كنت أرى وأسمع أصدقائي من صبيان الحارة يلعبون بالقبّة (الكرة الصغيرة تضرب بمضرب خاصّ) قرب المجلس، ولا أستطيع أن ألعب معهم. وعندما أطلب من الوالد أن يسمح لي أن أخرج للعب مع أصدقائي، كان يقول لي: لن يفيدك هذا اللعب شيئًا، وسماعك لأحاديث الرجال في المجلس، من أخبار وعلوم وآداب أهمّ وأنفع لك. ولا أودّ أن أطيل في وصف المجلس، بل سأكتفي بوصفي له في اللاميّة؛ إذ قلت:

فمجلِسُه المفتوحُ لا سورَ حولَه ... ولا حاجبَ الزوّارِ أو مانعَ الوصْلِ
لهُ حائطٌ بالجِصّ شُيِّدَ والحَصى ... يُطلُّ على الأمواجِ في غَرْبِه تَتْلي
وسُقِّفَ بالمَنقورِ فوقَ كنَادِلٍ ... وصُبَّ عليه الطينُ من حَوطةِ النخْلِ[1]
وتَظهرُ كُتْبُ الفِقْهِ فوقَ رُفوفِها ... لبحثٍ وإسنادٍ ومن وَحْشَةٍ تُسْلي
كريمٌ بما في كفِّهِ من دَراهِمٍ ... ولكنَّهُ بالكُتْبِ مالَ إلى البُخْلِ
ومالتْ على الجُدرانِ فوقَ فراشِهِ ... مساندُ من قُطْنٍ وُضِعْنَ على الزِّلّ[2]
فما نَصبَ الكرسيَّ فوقَ فراشِهِ ... ولكنْ كَراسي السَّاجِ صُفَّتْ على الرَمْلِ[3]
لجلسَةِ خِلاّنٍ إذا الشمسُ فارقتْ ... تَطيبُ بها الرَّمْساتُ في أوّلِ الليْلِ[4]
وقبلَ ارتفاعِ الشمسِ تُصبِحُ مجلِسًا ... تسيرُ إليهِ الخلْقُ تجلسُ في الظِّلِّ
فطولَ نهارِ اليومِ يجلسُ والدي ... لإكرامِ زوّارٍ ببِشْرٍ وبالبَذلِ
ويؤوي ضيوفًا من بلادٍ بعيدةٍ ... فيُكْرِمُهم والدَّهرُ يُنذِرُ بالمَحْلِ[5]
ويُلقي دُروسًا في الحديثِ وشرحِهِ ... ونحوٍ وتفسيرٍ وفي وعْظِهِ يُبْلي
ويُفتيهِمُ بالحقِ والعدلِ والتُّقى ... ويأمرُ بالمعروفِ .. ينهى عن الجَهْلِ
فتمشي لهُ الأقوامُ من كلِّ بُقْعَةٍ ... لسمعِ حديثٍ أو سلامٍ وللفَضْلِ
فمجلسُنا يكتَظُّ بالناسِ دائمًا ... وترتصُّ حولَ البابِ أطْبِقَةُ النِّعْلِ[6]

الكرسي الطويل

١. المنقور: نسيج من عيدان القصب (خليج) الكنادل: جمع كندلة، وهي خشبة مقلّمة من الفروع تستعمل في بناء البيوت، كأعمدة وجسور (خليج).
٢. الزلّ: جمع زوالي، وزوالي جمع زوليّة وهي السجّادة (خليج). وفي اللغة الزليّة: نوع من البسط (المعجم الوسيط).
٣. الساج: نوع من الخشب.
٤. الرمسات: جمع رمسة، وهي الحديث بين الناس (خليج).
٥. المحل: الجدب.
٦. النِّعل: والنِّعلة جمع نعال وهو الحذاء في الخليج، أمّا في الفصحى فالنّعال جمع والمفرد نَعْل، وهو مؤنّث في الفصحى ومذكّر في لهجة ساحل عمان.

طوي المنزل:

مرادفات البئر في اللغة كثيرة؛ ففي لغة الإمارات الطوي، هو البئر، وفي قطر يسمّى الجليب (القليب). والطوي مذكّر عندنا لا مؤنّث، خلاف للبئر، أمّا في اللغة فالطوي هو البئر المطويّ بالحجارة فقط. والطويّ ركن آخر من أركان بيتنا في معيريض، كما هو الحال في أغلب بيوت القرية. ولأنّ المدينة رمليّة، وقريبة من ساحل البحر، فالماء قريب من سطح الأرض؛ فلا يزيد عمق الطوي في الغالب عن مترين أو ثلاثة، ولا يبنى سور حوله. والماء ليس عذبًا، فلا يصلح للشرب، ولكن للغسيل فقط، كغسيل الثياب والأواني والقدور. ويطلق على مائه (الخَرِيج) فهو في درجة بين ملوحة ماء البحر وعذوبة ماء الشرب. ولم يكن الدشّ للاستحمام قد وصل إلينا آنذاك؛ لشحّ المياه العذبة؛ فكان البحر حمّامنا نهارًا إلا في الشتاء، أمّا في المساء فكنت أغتسل بماء الطوي. أقف جانبه وأسحب الماء بإناء معدنيّ نسمّيه (كِعِد)، أدلّيه فيه بالحبل، وأتركه يغطس في الماء ثمّ أسحبه، وأصبّ الماء على رأسي، فينساب على الجسم. وبعد الاغتسال بماء البحر أو بماء الطوي نزيل الملح عن الجسم بقليل من الماء العذب؛ لأنّ الملح مع العرق يسبّب لنا نموّ الجراثيم الفطريّة على الجلد، وخاصّة في زاوية الفخذ والإبط حيث يكثر العرق، فيحمرّ الجلد ملتهبًا ويسبّب حكّة شديدة؛ وذلك الالتهاب يسمّى محلّيًّا (أم ازليغة). ويعالج بغسله بالماء العذب، ووضع بودرة (تلكوم Talcum powder) على منطقة الالتهاب، فتمتصّ الرطوبة والعرق وتتركه جافًّا، وتخفّف احتكاك الجلد فيبرأ. وفي فصل الشتاء لا يمكن الاستحمام في البحر أو بماء الطوي؛ بسبب البرودة، فنستعمل للغسل حوالي ٤–٥ لتر من الماء المسخّن بإبريق معدنيّ على نار الحطب. ولكن لوالدي (سماوَر) لتسخين الماء بالفحم في حمّامه.

السماور

والسماور إناء معدنيّ أسطواني له صنبور جانبيّ، يملأ بالماء ويوضع الجمر في أسفله، وهو روسيّ المنشأ، وشائع الاستعمال في آسيا الوسطى ثمّ إيران وتركيا والعراق.

ولأنّ جدران الطوي رمليّة، وعمقه بسيط والماء فيه قليل، سقط أعمى– كما سمعت– مرّة في طوي في حيّنا، فأخرج دون أن يصاب بأذى؛ لكون الطوي في القرية رمليّ الجوانب، غير مطويّ بالحجارة. أمّا الاطُواية (جمع طوي) في منطقة النخيل الزراعيّة في رأس الخيمة فهي عميقة نسبيًّا، قد تصل إلى ٨ أمتار، وهي مطويّة بالحجارة وماؤها عذب. ويسحب منها الماء بدلو كبير من جلد البقر، بحبال يسحبها ثور، وتدور الحبال على بكرة خشبيّة كبيرة تسمّى (منجور)، وهي كلمة مشتقّة من نجَرَ. وهذه هي الطريقة التي كانت تسقى بها المزارع قديمًا.

حيوانات بيتنا

الغنم:

كان عندنا في البيت خمس غنمات وتيس، حُبست بين جدران من سعف النخل حتّى لا تخرج إلى الحوش. ولكن بعد أن تحلبها أمّي في الصباح الباكر، كانت تطلقها مع شروق الشمس للخروج من البيت، فتتّجه شرقًا بين السكيك إلى خارج المدينة بنفسها، حيث تنتظر أغنام الحيّ الراعية البلوشيّة (فَطّوم). وبعد أن تجتمع الأغنام حولها كلّ صباح، تسرح بها مسافة كيلوين أو ثلاثة فوق الندود (التلال)، وهي منطقة رمليّة تحتوي تحتها مدينة جلفار الشهيرة، قبل أن يدفنها الزلزال المفاجئ قديمًا عن بكرة أبيها. والندود– بلغة أهل رأس الخيمة– تلال رمليّة، ومفردها نَدّ؛ وهي لفظة غير معروفة خارج الإمارات العربيّة المتّحدة، ولكنّ ابن منظور يقول في لسان العرب: النَّدّ: التلّ المرتفع في السماء، لغة يمانية.

فعلى الندود ترعى الأغنام الحشائش القليلة، ثمّ تعود بها فَطّوم عصرًا إلى مشارف المدينة، وتترك الأغنام تتّجه بصورة تلقائيّة إلى بيوت أصحابها؛ بحكم التعوّد وشدّة الظمأ؛ لعدم توافر الماء فوق الندود. وللراعية مكافأة أسبوعيّة من أصحاب الغنم إمّا بيزات قليلة، أو أطعمة، كالرزّ والطحين والسمن. وقد يحدث – في النادر– أن تسير عَنز من الأغنام برفقة عنز أخرى إلى بيت أصحاب العنز الأخرى؛ فعندما يكتشف أصحابها غيابها، يذهب منهم شخص، وغالبًا ما تذهب صاحبة البيت، مع بعض عيالها في سكيك القرية، وينادي منادٍ منهم عن فقد عنز، ويعدّد أوصافها. وأذكر أنّني ذهبت مع أمّي أنادي لذلك الغرض أحيانًا. فيقول المنادي بصوت مرتفع يُسمع في البيوت المجاورة: «من شاف عنز سوداء لها قرنان طويلان يا مرحومي الوالدين؟». فينظر الجيران بين أغنامهم فإن وجدوا العنز المفقودة، أخذوها إلى الباب وسلّموها لأصحابها. وقد سردتُ ذلك في لاميّة الخليج، إذ قلت:

وقد تُطلِقُ الأغنــامَ قبلَ فطورنا	**فتَسرحُ فـوقَ النَّـدِّ أو تلَّـةِ الـرمْلِ**[١]
فتَرعى مـع الأغـنامِ من كلِّ منـزل	**وتَرجِـعُ بعدَ العصرِ تُسرعُ للنهْـلِ**
تـروحُ وتأتـي للبـيوتِ بنفـسِها	**وتحرُسُـها (فـطُّومُ) في ساحـةِ التلِّ**[٢]
وإن لم تعُدْ عنزٌ إلى البيتِ في المسا	**خَرَجنا إلى الجيرانِ نجهَرُ بالسُّـؤْلِ**[٣]
فأَصرُخُ: «يا أجـوادُ من شافَ عنزَنا	**لها جبهـةٌ غـرّاءُ والقرنُ كالنـصْلِ»**[٤]
فيُخرجُها مَـنْ شـافَها فـي حَـويِّهِ	**إلينـا وعُنْـقُ العـنزِ طُـوِّقَ بالحبْـلِ**[٥]

١. سرّح الماشية: أطلقها في أيّ وقت كان (خليج)، ولكن في اللغة سرحت غدوة وراحت بالعشيّ (لسان العرب).
٢. فطّومة: فاطمة.
٣. السؤْل: السؤال.
٤. غرّاء: بيضاء.
٥. الحويّ: هو ما يحتويه المنزل من أرض داخل الحوش أو السور (خليج) وفي اللغة: الحويّ: استدارة كلّ شي.

أهالي معيريض مثل بقيّة أهالي رأس الخيمة، يربّون الماعز لا الضأن (الخراف) التي يسمّيها البعض عندنا «طماطم». وفي لسان العرب: الطمطم: الأعجَم الذي لا يُفْصِح، والطمطم: ضرْب من الضأن .. بناحية اليمن. وأعتقد أنّ الجوّ الحارّ جدًّا– مثل جوّ الخليج– يصلح للماعز ذات الشعر الخفيف، لا للضأن ذي الصوف الكثيف. وأهالي الإمارات يفضّلون أكل لحم التيس – ذكر الماعز–على لحم الخروف، خلافًا للحال في قطر والمملكة العربيّة السعوديّة؛ إذ يفضّلون الخروف ذا الكفل السمين.

وكانت أمّي هي التي تهتمّ بالغنم، والدجاج، والبقرة، في البيت؛ تحلب الغنم في الصباح، ثمّ تسقيها وتطلقها؛ فتعمل من حليب الغنم جبنًا لذيذًا لنا. وقد سمعتها تقول: إنّ الجبن من حليب الماعز أفضل ممّا يصنع من حليب البقر. ولا بدّ للحليب من جراثيم تنمو فيه ليتحوّل إلى الروب أو الجبن. وتلك الجراثيم البكتيريّة غير الضارّة موجودة في البيئة، تقوم بذلك العمل المفيد إذا ترك الحليب مدّة طويلة، كافية لتكاثرها ونموّها؛ فالبكتريا تفتّت سكّر الحليب اللاكتوز (lactose) وتحوّل حموضة الحليب إلى قلويّ، فيتخثّر ويروّب؛ لذلك فإنّ الذي يعاني من حساسية الحليب– لصعوبة هضم سكّر الحليب– يستطيع أكل الروب وشرب اللبن الزبادي دون حساسية. ولكنّ الوالدة وغيرها من نساء المجتمع الخليجيّ آنذاك، توارثن عبر القرون، طرق تطعيم الحليب بتلك الجراثيم؛ لتسريع عمليّة التحويل، دون أن يدركن ذلك. كنت أرى الوالدة تضع (الغوض) وهو معدة مجفّفة لسمكة في برمة الحليب (إناء من الفخّار عادة) وتحرّكها فيه برهة، ثمّ تسحبها وتغسلها وتجفّفها للاستعمال في اليوم التالي. والواقع أنّ البكتيريا التي تعمل على تحويل الحليب إلى روب أو جبن تعلق في معدة السمكة فتتكاثر على سطحها، ثمّ تنتقل إلى الحليب الجديد عندما تلامسه، وكأنّ جرعة من البكتيريا المطلوبة ألقيت فيه، فتبدأ في التكاثر مباشرة، بدلًا من انتظار التلوّث من الجوّ بعد فترة طويلة. كما أنّ ملّة الفخّار (البرمة) أفضل لترويب الحليب بسرعة من ملّة الصين*؛ لأنّ المسامّ الفخّاريّة تدخلها البكتيريا وتبقى فيها، فبمجرّد صبّ الحليب في البرمة تبدأ البكتيريا بالتكاثر والنشاط، كما شرحت.

البرمة

الملّة

والوالدة لا تحلب البقرة إلا بعد الغروب، عندما تطعمها «الفخّارة»، ثمّ تضع حليبها في البرمة؛ ليروّب خلال الليل. ولكنّها تحلب الغنم صباحًا للإفطار فقط. ولم نكن في حاجة لشرب لبن أو أكل روب من حليب الغنم؛ لوجود بقرة في البيت. فإن غابت البقرة أو مرضت، شربنا حليب الماعز ولبنها.

البقرة:

كانت البقرة تطلق– مثل الغنم– صباحًا؛ للبحث عن حشيش خارج المدينة، فتعود إلى البيت قبل الغروب وحدها، وقد ظمئت أيضًا. ولكن الحشائش المتوافرة غير كافية لإشباع البقرة، وخاصّة في غير موسم الشتاء الجافّ؛ فكانت أمّي تطبخ لها طعامًا كلّ يوم عند الغروب. وطعام البقرة المطبوخ يسمّى «فخّارة»، وهو مكوّن من نوى التمر وأوراق اللوز الجافّة وسمك العومة الجافّة (السردين)، يغلى كلّ ذلك الخليط في الماء في صفيحة معدنيّة، ثمّ يقدّم إلى البقرة بعد أن

* الملة: وعاء مثل الطاسة لكن مصنوع من الصين (السراميك)، مقعر يوضع فيه السائل، والجمع: ملال.

يبرّد. وأنا أعتقد أنّ اسم طعام البقرة «الفخّارة» نسبة إلى الإناء الذي طبخ فيه. وأكاد أجزم أنّ طبخ الفخّارة في صفيحة معدنيّة شيء حديث في زمننا، وقبل ذلك كان الطبخ للبقرة وإطعامها في «فخّارة» وهي البرمة (الجرّة) من الفخّار؛ ففي اللغة: الفخّارة: هي الجرّة من الخزف. ولقد ذكرتُ الفخّارة في (اللاميّة):

وفخَّـارةُ الأبقـارِ تُطْبَـخُ فــي المسا   طعامٌ وعُومُ البـحـرِ أو حَشَفُ النخْلِ

وإطعام البقرة السردين شيء صحّيّ لا للبقرة فحسب، بل للشاربين من حليبها كذلك؛ لأنّ السردين غنيّ بدهن الأميجا ٣ الذي له فوائد صحّيّة للجسم والقلب.

تسقى البقرة من الماء العذب، كما تسقى من صلالة العيش (الرزّ)، أي مائه، بعد غليه، وهو الماء المتبقّي من شخل الرزّ؛ أي تصفيته بالمشخلة. فلا ترمي أمّي ذلك الماء، بل تجمعه؛ لسقي البقرة به. وجيراننا الذين نهديهم من خيرات البقرة، كاللبن والجبن، يجمعون صلالاتهم ويرسلونها لبقرتنا. وقد تكون كلمة «صلالة» لما تجمّع من ماء الرزّ المشخول لفظة خليجيّة، ولكن لها أصول فصيحة كما أظنّ؛ ففي لسان العرب الصُّلْصَلةُ والصُّلْصُلةُ والصُّلْصُل: بَقِيّة الماء في الإدارة وغيرها من الآنية، والصَّلاصِل: بَقايا الماء.
ولعدم وجود ثور في البيت، تؤخذ البقرة إلى منطقة النخيل؛ للتزاوج مع أحد الثيران العديدة المستخدمة في ريّ النخيل. وبعد أن تلقّح تترك مع الأبقار السائبة، قرب منطقة ضاية شرق مدينة الرمس؛ لأنّ العشب متوافر هناك، وكذلك الماء، حيث تعرف الأبقار نبعًا عذبًا يظهر في سيف بحر الرمس (حوالي أربع كيلومترات عن ضاية)، بعد أن يثبر (يجزر) البحر، فتشرب منه. وبعد ما يقرب من تسعة أشهر من يوم التلقيح، تذهب الوالدة مع الخالة مريم إلى ضاية؛ للعودة بالبقرة إلى البيت؛ كي تنجب مولودها ويستفاد من حليبها. وأخذ بقرتنا الحبلى من معيريض لتسرح بين ضاية والرمس خلال فترة الحمل، أمر خاصّ بنا فقط، لا يفعله الآخرون من سكّان معيريض؛ وسبب ذلك أنّ الرمس، مسقط رأس أمّي، حيث يعيش أهلها، وقد اشترت البقرة من الرمس؛ لذلك فعلت ببقرتنا ما يفعله أهلها بأبقارهم؛ للرعي قرب الرمس. وأهلها في الرمس يعرفون بقرتها، فيبحثون عنها بين الأبقار هناك؛ ليطمئنوا أمّي عليها.

وبعد صلاة المغرب تجلس أمّي؛ لحلب البقرة، مقدار ملء طاسة كبيرة، ثمّ تترك بقيّة الحليب للعجل ليرضع، وقد قلت في اللاميّة:

فتحلِبُهـا أُمّـي بطـاساتِ مَـعْدِنٍ   وتتركُهـا لـلأكلِ أو لـحسةِ العِجْـلِ

منطقة الرمس

الطَّاسة

وأخبرتني أمّي أنّ البقرة تدرّ حليبًا أكثر عندما يرضع العجل منها؛ أي أنّها لا تفرّط بكلّ حليبها عند الحلب، بل تحجز بعضه لعجلها. وفي قول أمّي هذا بعض الصواب علميًّا لا كلّه؛ فالبقرة لا تستطيع أن تحجز الحليب وتمنعه من النزول، لكنّها تتجاوب مع لمس عجلها ورائحته ورضعه من ضرعها، فتفرز هرمون الأوكسيتوسن Oxytocin من غدّة (pituitary) في المخّ، فيدخل الهرمون الدمّ، ويصل إلى الضرع، فيجعل الحلمات تتفتّح وتتّسع فتدرّ الحليب. فهو

تجاوب نفسيّ، لا شعوريّ بين الأمّ وصغيرها؛ يسبب إدرار الحليب تلقائيًّا لا إراديًّا. وهذا التفاعل النفسيّ في درّ الحليب أمر عضويّ للأمومة، غير مقصور على البقرة، بل هو عامّ في كثير من الحيوانات الثديّية، وكذلك الإنسان. والمعروف عن الناقة أنّها إذا فقدت رضيعها بالموت أو الذبح، تحزن فيقلّ درّ حليبها؛ فلكي تدرّ الحليب يأتون لها بجلد رضيعها وقد حشوه بالتبن، فما أن تشمّ جلد الرضيع حتّى تدرّ الحليب.

ألبان البيت

الروب:

تضع الوالدة الحليب في برمة (إناء أو قدر فخّاريّ) مخصّصة للترويب فقط، وتتركها حتّى الصباح وقد تحوّل الحليب إلى روب. أمّا لماذا استعمل الناس البرمة لترويب الحليب عبر العصور في الخليج، ولم يستعملوا الملّة المصنوعة من السراميك أو الزجاج؟ فالتفسير العلميّ الذي لم يدركه عامّة الناس آنذاك، أنّ البرمة الفخّاريّة تحتوي على مسامّ تدخل فيها الجراثيم المفيدة لصنع الروب؛ أي يروّب فيها الحليب للمرّة الأولى– كما ذكرت– ولا يمكن إزالتها تمامًا بالغسيل، في حين يسهل إزالتها بالغسيل من الملّة الزجاجيّة أو الصينيّة؛ فالحليب في تلك البرمة يروّب بسرعة؛ لتوافر كمّيّات كبيرة من جراثيم الترويب فيها.

اللبن الخليجيّ والزبدة والسمن:

تسكب أمّي الروب في السقا (جلد الماعز المخصّص للخضّ). ويُعلّق السقا بين أعواد ثلاثة– مثل رافعة آلة التصوير– ويتمّ تحريك السقا خضًّا لمدّة ١٥–٢٠ دقيقة.

وبعد تلك المدّة من الخضّ، يسكب اللبن في ملّة كبيرة، فتتجمّع الزبدة وتغفّي (تطفو) على سطح اللبن، فتؤخذ وتعزل في إناء، ثمّ تغلى على النار لتحويلها إلى سمن.

وقد يضاف إلى السمن– وهو على النار– بعض البهارات؛ لتحسين طعمه ورائحته.

السقا

الكامي:

يؤخذ بعض اللبن للشرب، ويسخّن الباقي على نار هادئة حتّى ينفصل الماء ويتجمّد الباقي؛ فالطبقة المتجمّدة تسمّى «جامي» (كامي) في الإمارات، وتنطق الجيم ch باللهجة الخليجيّة، وهي مقلوبة عن كاف (كامي). ويؤكل الكامي اللذيذ مع التمر. وإذا زادت كمّيّة الكامي عن الحاجة، يجفّف في الشمس ويصبح يقطًا (إقطًا)، يسهل حفظه؛ للتخزين والأكل مع التمر بعد تودينه في الماء في أوقات أخرى.

الكامي

اللبنة:

كانت الوالدة تعمل من اللبن اللبنة؛ وذلك بصبّ اللبن في كيس من قماش قطنيّ، ويترك معلّقًا حتّى يصلّ (يشخل) منه الماء، وتبقى اللبنة في الكيس، وهي مشابهة للكامي إلا أنّها طريّة وليّنة أكثر.

أمراض البقرة:

من سوء الحظ، كان لوجود البقرة والغنم في داخل حوش منزلنا جانب سلبيّ، لا يمكن أن أنساه؛ فكم عانيت والأهل من لسعات الظمَي (القراد) التي كانت تلك الحيوانات تنقلها إلينا. فالقراد التي كنّا نسمّيها محليّا الظَّمَي (وقد يكون ذلك؛ لأنّها تظمأ لشرب الدمّ) حشرة طفيليّة تتغذّى على دماء الحيوانات، لا تطير ولا تقفز، ولكنّها تنقل الأمراض الجرثوميّة من حيوان لآخر. كنت والعائلة نعاني من لدغاتها أو لسعاتها المتكرّرة كثيرًا. كانت تنقلها إلى بيتنا البقرة والأغنام. ولكنّ أكثر الأهالي يعتقدون أنّها تأتي مع البقر لا الغنم؛ فكانت تلك القراد تلتصق بجلد أرجلنا أو أيدينا ونحن نجلس أو نلعب على الرمل في حوش المنزل. لا نراها؛ لصغر حجمها، ولا نشعر بلسعتها إلا بعد أن تشبع وتنتفخ بالدم، فنحسّ بحكة في موقع التصاقها؛ فنبدأ بحكّ المنطقة، قبل أن نراها، ثمّ نراها بعد الحكّة، مثل الكرة الحمراء ملتصقة بالجلد، وكأنّها تفّاخة (نفّاخة، بالونة). حمراء؛ لرقّة جلدها.

القراد

فالحشرة تجد الإنسان أو الحيوان بشمّها لرائحته، أو تستشعر حرارته؛ فعندما تلامس جلد الضحيّة، تفرز مادّة مخدّرة؛ كي لا يشعر بها وهي تغرز سنّها الأنبوبيّ المدبّب في الجلد؛ لتمتصّ الدم. كما أنّها تفرز مادّة تمنع الدم من التجلّط حتّى ينساب بسهولة في أنبوبها. وتستطيع أن تسحب من الدم قدر وزنها مئتي مرّة فتنتفخ. وخطورتها تكمن في نقلها الجراثيم مسبّبة أمراضًا مختلفة. ولم نكن ندرك أنّ بعض الأمراض التي أصابتنا بالحمّى كانت منها.

أمّا أمراض البقرة، فأذكر حالات من الضعف، وقلّة الحركة، وقلّة الأكل ليومين أو ثلاثة، فترسلني أمّي؛ لطلب السيّد ضاعن، المشهور في معيريض بعلاجه للبقر. فكان ضاعن يركّز علاجه على لسان البقرة، بمسحه ثمّ غرز دفرة (إبرة كبيرة طولها حوالي ١٠ سم) في عدّة مناطق من اللسان بعد تسخينها على الجمر. ثمّ يدلّك اللسان ويضغط على موقع الإبرة حتّى يسيل الدم. وبعد ذلك بيوم، تعود البقرة إلى الأكل وتسترجع قواها. ولا أدري إن كان ذلك بسبب علاجه أو أنّ البقرة أصيبت بفايروس، نقله لها الظمي أو عدوى من حيوان آخر، شفيت منه تلقائيّا؛ بفعل حصانتها الجسميّة. وأنا أرجّح الاحتمال الأخير.

الدجاج:

كان عندنا ما لا يقل عن عشر دجاجات، وديك في فناء المنزل، تسرح بحريّة، وتلتقط ما يعترض طريقها؛ من حشرات، وديدان نادرة، ولكنّنا نطعمها الشعير، وبقايا الطعام. وتُترك دجاجة أو دجاجتان لتركّ على بيضها (تحضن بيضها) حتّى يفقس، في حين نأكل بيض بقيّة الدجاج. وعند غروب الشمس تطير الدجاج، وتحلّ على خشبة مرتفعة، موازية للأرض؛ لتنام عليها. ومع بزوغ نور الفجر تصقع (تصيح) الديكة في كلّ بيت في الحيّ. وقد ذكرت ذلك في اللاميّة، قائلًا:

ونَسمَعُ صَقْعَ الديكِ بعدَ سَحورِنا إذا اللّيلُ أمسى مشرقَ الرأسِ كالكهلِ

ويعتقد الناس أنّ الديكة تصقع لإيقاظهم، وبعض الخرافيّين يدّعون أنّ القصد من صياح الديك هو إيقاظ الناس لصلاة الفجر، مثل المؤذّن. ولكن دراسات حديثة بيّنت أنّ الديك يصقع؛ للاطمئنان على دجاجه ليس إلا.
ومن أمراض الدجاج التي شاهدتها: كساح أو شلل الدجاج، وخاصّة إذا اقتصر طعامها على بقايا الرزّ الأبيض لمدّة طويلة؛ وذلك لنقص فيتامين (D)، فتتحسّن بعد أيّام قليلة من إطعامها الحبوب.
وتتنمّر الدجاجة بعد أن يفقس بيضها، وتحيط بها فراريجها، فتقف بالمرصاد، وتهجم على أيّ قطّ أو حيوان يقترب من صغارها؛ فمنظر الدجاجة وحولها الفراريج، تدور بهم وتدرّبهم على الأكل، من المناظر التي لا تمحوها الأيّام من ذاكرتي.

الصلال:

صلال

وأذكر مرّة أنّي اصطدت صلالًا (طير النورس) وأنا صبيّ، باستعمال المعضاة التي كنّا نصنعها من الميادير (الصنّارات) والخيط. تتكوّن المعضاة من خيط طوله حوالي مترين، وأربعة ميادير تربط بشكل دائريّ. نضع في أحد الميادير سمكة صغيرة كالعومة (السردين)، ونربط المعضاة بالخيط، ويثبّت الخيط بحجارة ثقيلة تدفن في أرض سيف البحر، فلمّا ينقضّ الطير على السمكة ينشب الميدار في أنفه أو منقاره، فلا يستطيع الهروب.
فنمسكه ونقطع جزءًا من ريش جناحيه؛ كي لا يطير، ونتركته يمشي في فناء البيت. وكنت أطعمه سمكًا صغيرًا أصطاده له من البحر قرب السيف، أو من بقايا ما نشتريه من السمك، بعد تقطيعه للطعام، فصار لي صديقًا. وكان يركض إليّ إذا رآني؛ كي أطعمه. وبعد مرور سنة عليه في بيتنا، نما ريشه، ولكنّه لم يغادر المنزل، بل صار يصيد الفئران ويأكلها، فصرت أفخر به. فسمن وكبر وصار شرسًا، يصرخ كالكلب بصوته المميّز المزعج، إذا اقترب منه غريب، وقد يهاجمه، فخافه الأطفال وابتعدوا عنه. وأظنّ أنّ الاسم الخليجيّ لهذا الطير (الصلّال) متعلّق بصوته المميّز؛ ففي لسان العرب: طِينٌ صلاَّل ومِصْلالٌ، أَي يُصَوِّت كما يصوِّت الخَزَفُ الجديد؛ وقال النابغة الجعديّ:

فإنَّ صَخْرَتَنا أَعْيَتْ أَباكَ، فلا ... يَأْلُو لها ما اسْتَطاعَ الدَّهْرَ إِخْبالا
رَدَّتْ مَعَاوِلَهُ خُثْمًا مُفَلَّلَةً ... وصادَفَتْ أَخْضَرَ الجالَيْن صَلاَّلا

ولكنّ شراسة صلّالي، تطوّرت وزادت، فقام يهاجم فراريج الدجاج، ويسرطها كاملة، فتهرب منه الدجاجة الأمّ؛ لأنّ صوته مخيف. وجريمته الأخيرة جعلت أمّي لا تطيق رؤيته في البيت، فأصرّت عليّ بشدّة أن أتخلّى عنه وأتخلّص منه؛ فأخذته إلى سيف البحر مكرهًا، وحملته من جناحيه، ورفعته في الهواء بلطف، فطار في الهواء يرفرف بذيله حرًّا طليقًا، وتركني، حزينًا على فراقه، بعد سنة من الصحبة. وقد ذكرت قصّتي مع الصلّال في لاميّة الخليج، قائلًا:

وأنصبُ معضاتي لصيد حُرَيْشَةٍ ... وأخْتِلُ خلف النَّدِّ أنظرُ من حولي[1]
فأصطادُ صلاّلًا أقصُّ جناحَه ... وأطلقه في الحوشِ يمشي مع العِجْلِ[2]
فعاش طويلًا في الحويّ كحارسٍ ... ويأكل فئرانًا ويسرف في الأكلِ[3]
فرَاشَ جناحيه وكرَّشَ سامنًا ... وصال على الأفراخِ صولًا وبالصلِّ[4]

١. المعضاة: أداة لصيد الطيور البحريّة معمولة من ثلاث صنّارات (خليج).
٢. الصلاّل: طير النورس. الحوش: الأرض المحيطة بالدار داخل سور المنزل(خليج).
٣. الحويّ: داخل السور الذي يحوي الدار.
٤. راش: نما ريشه.

وأعدم أفراخ الدجاج بنهمه ليسرطَ بالفرخين منها بلا قطْلِ[٥]
وسّرحتُه في البحر بعد ريُوقِه فطار طليقًا في الهواء بلا كَبْلِ[٦]
ولوّحتُ كفّي للوداعِ بِعَبْرةٍ فلم يلتفت نحوي ورَفْرَفَ بالذيلِ

الكلب:

وكان عندنا في البيت كلبٌ نحيفٌ من النوع السلوقيّ، لونه أحمر فاتح، يعيش في فناء الدار، لا يسمح له بدخول الغرف، ولا يلمسه أحد باليد؛ لأنّه يعدّ نجسًا، مع أنّ لمس شعره الجافّ جائز. كنّا نطعمه من بقايا الطعام، فيحرس البيت والحيوانات. ولا ينبح إلا إذا دخل غريب المنزل. وكان يرافقنا مع أغنامنا وبقرتنا عندما نتحوّل من معيريض إلى المصيف في شمل، ويبقى معنا حتّى نعود إلى معيريض بعد الصيف.

كما كانت عندنا كلبة مرّة أنجبت عددا من الجراء، تربيهم وترضعهم في حفرة عملتها قرب الجدار الغربيّ لحوش البيت. فمرّة ارتفع مستوى البحر كثيرًا ودخل الجهة الغربيّة من حوش المنزل، فأغرق الجراوة ليلًا في الحفرة، كما ذكرت سابقًا. ورأيت أمّي تبكي حزنًا على الجراوة وشفقة على الكلبة المسكينة.
وخلافًا للحال في الدول الغربيّة، لم تكن عندنا علاقة حميمة مع الكلاب المنزليّة؛ لأسباب دينيّة، فلا نلعب معها، ولا نلامسها.

القطّ:

عندما كنت بين السابعة والثامنة من العمر أهداني أحد الأصدقاء من أطفال الجيران قطًّا صغيرًا من صغار قطّتهم. فتعلّق القطّ بي كثيرًا وتعلّقت به، حتّى عند النوم يأتي للنوم معي في فراشي، فتبعده أمّي، فيعود إلى فراشي إذا غفلت أمّي عنه. وعندما أعود من المدرسة، ويسمع صوتي، يأتيني مسرعًا إلى الباب من أيّ مكان كان فيه؛ ولذلك أتعمّد أقول عند الباب: «شش» ليأتيني مسرعًا. ولم تكن جدّتي مريم راضية عن تعلّقي بالقطّ؛ فقد كانت ترى أنّ تربية القطط مناسبة للبنات لا للأولاد؛ لذلك قرّرت التخلّص من القطّ، فأرسلته مع رجل من الجيران إلى الطرف الجنوبيّ من قرية معيريض، بعيدًا جدًّا عن بيتنا. فلمّا عدت إلى المدرسة وعملت الصوت المعتاد لم يأتني القطّ؛ فذهبت أبحث عنه في كلّ مكان في البيت، فلم أجد له أثرًا. ثمّ أخبرتني أمّي بما فعلت جدّتي؛ فبكيت كثيرًا ذلك اليوم حتّى ندمت جدّتي على ما فعلت. ولكن عند غروب الشمس رأيت فجأة القطّ يدخل باب المنزل؛ فصرخت فرحًا وركضت أحمله بفرح شديد. ولم أعرف كيف استطاع ذلك القطّ الصغير أن يعرف الطريق إلى بيتنا من آخر القرية وهو لم يرَ إلا بيتنا وبيت جارنا الذي ولد فيه.
ولقد قرأت أنّ القطط تتمتّع بقدرة خاصّة تسمّى «غريزة العودة إلى المنزل»، التي تساعدها في العثور على طريق العودة إلى المنزل. ويقال: إنّ القطط قادرة على استخدام المجالات المغناطيسيّة للأرض– من المحتمل أن تكون مقترنة بإشارات الرائحة– لتحديد موقع منازلها.

كان ذلك القطّ ماهرًا في صيد الفئران. ولقد شاهدته مرّة في حوش المنزل يقتل عقربًا يمشي على الرمل. وكان للقطّ مهارة غريبة، وطريقة عجيبة في قتل العقرب بالفطرة؛ كأن يضرب العقرب بمخالب إحدى يديه بسرعة البرق، في حين يرفع اليد الأخرى لتغطية فمه خوفًا من أن تلسعه، وكرّر تلك العمليّة حتّى تمكّن من قتل العقرب، دون أن يصاب بأذى، ثمّ ترك العقرب المقتول في التراب، فأسرعت الدجاج لأكله. ولكن لماذا قتله إن لم يكن يريد أكله؟ قرأت أنّ بعض القطط تقتل العقارب لتأكلها، لذلك يجوز أن الدجاج خطفها منه.

سافرت إلى الكويت وأنا في السنة الخامسة عشرة من العمر، وسافر الوالد والوالدة وأختي إلى قطر، فبقي القطّ مع عمّتي في المنزل. ولمّا عدت من السفر بعد سنة، ورآني القطّ، لم يركض إليّ كالعادة، ولكن اقترب منّي بحذر، فأخذته

٥. القطل: القطع.
٦. سرّح: أطلق. الريوق: الإفطار.

ووضعته في حضني.
ثمّ سافرت العمّة لتنضمّ إلى العائلة في قطر، وبقي القطّ يتجوّل في بيوت الجيران فيعطفون عليه ويطعمونه من بقايا طعامهم؛ لأنّه كان معروفًا لديهم بأنّي صاحبه، ثمّ أخبروني بأنّه أصيب بالعمى في عين واحدة بعد سنة من سفر العمّة. ثمّ انقطعت أخباره عنّي بعد ذلك. وأتوقّع أنّه أكمل عشر سنوات من العمر قبل أن يموت.

حَمام المنزل:

لقد اشتريت وأنا صبيّ حمامتين؛ أنثى وذكر، من شخص يربّي الحمام، فتركتهما في قفص، ووفّرت لهما الماء والطعام بمساعدة أمّي لمدّة أسبوع، ثمّ وضعت لهما صندوقًا خشبيًّا مرتفعًا على خشب الكندل، به حبوب الشعير والماء، وله فتحة كبيرة لخروج الحَمام بحرّيّة؛ فكانتا تخرجان وتطيران خارج المنزل، ولكن تعودان إلى بيتهما في ذلك الصندوق الذي فيه الشعير. فتكاثر الحمام؛ ممّا حتّم عليّ أن أضيف صناديق أخرى لها.
وكان الحمام تحلّ في أوّل الصباح في كوّة الحائط على باب غرفة النوم التي أنام فيها مع الأهل، فتدور فيها، فأستيقظ على صوت هديلها.

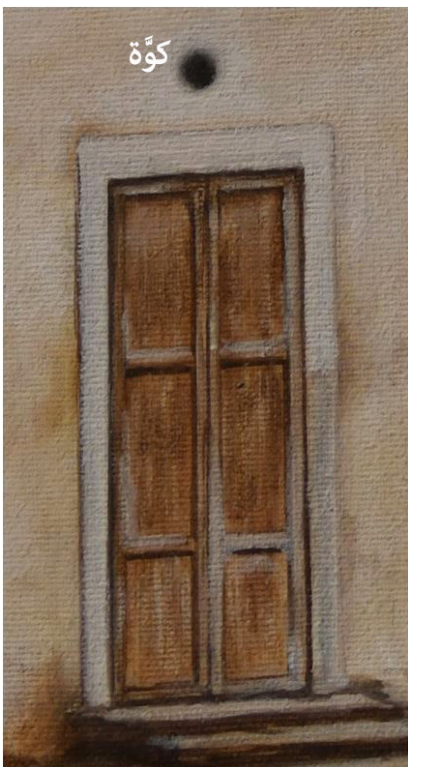

الخبز في بيتنا

لا يباع خبز التنور في معيريض، ولكنّ أمّي وجاراتها يخبزن في بيتنا كلّ يوم. والخبز يعمل من الطحين المتوافر في السوق أو يعدّ في المنزل من طحن القمح.

الرَّحى:

مع أنّ الطحين كان متوافرًا في الأسواق، إلا أن طحنه من القمح أرخص؛ فكنت أشاهد أمّي مع النسوان يطحنّ بالرّحى حبّ البرّ (القمح) للخبز. كما كنّ يستعملن الرّحى، لصنع الجريش (القمح المكسّر) لطبخات أخرى.

التنّور

كانت الرّحى عبارة عن فلقتين مستديرتين متشابهتين من الحجر، قطر الواحدة حوالي ٤٠ سنتيمترًا. وفي مركز الفلقة السفليّة مسمار من الحديد أو وتد من الخشب، وهو قطب الرّحى. وتركّب عليه الفلقة العلويّة التي تدور حوله، ويكون في وسطها ثقب لدخول القطب. وفي الفلقة العلويّة مقبض خشبيّ جانبيّ لتحريكها. وفي قطب الرّحى يضرب المثل، ويروى أنّ عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) قال في إحدى خطبه: «إنّه ليعلم أنّ محلّي منها (الخلافة) محلّ القطب من الرّحى».

يفرش الثِّقال تحت الرّحى. والثقال سفرة من الجلد أو القماش الغليظ. والكلمة فصيحة الأصل، إلا أننا في الخليج قلبنا الثاء إلى تاء، فهي في اللغة الثِّقال بالكسر، ويوصف في المعاجم بأنّه جلدٌ يُبْسَطُ، فتوضع فوقه الرَحى، فيُطْحَنُ باليد ليسقطَ عليه الدقيق. وقد قال زهير بن أبي سلمى:

فَتَعرُكْكُم عَركَ الرَحى بِثِفالِها وَتَلقَح كِشافًا ثُمَّ تَحمِل فَتُتئِمِ

تلقّم الرّحى بحفنات صغيرة من القمح للطحن، وكلّ حفنة تسمّى لهوة. ولقد انقرض استعمال الرّحى في البيوت بعد مرحلة طفولتي، إلا أنّي احتفظت بتلك الرّحى التي استعملتها أمّي مع بعض أدواتنا المنزليّة آنذاك في بيتي الحالي، كقطع تراثية للذكرى. وكنت أراقب أمّي صغيرًا وهي تطحن القمح، وأرى الطحين يتجمّع على الثقال.

التنّور:

لا يكاد بيت في رأس الخيمة يخلو من تنّور، ولكن ليست كلّ التنانير للخبز؛ فهي تستعمل لشوي السمك والطبخ، مثل طبخ الهريس. فالواقع أنّه يندر استعمال التنّور للخبز في مدينة رأس الخيمة؛ لسببين: خبز التنّور يشترى من الخبّاز

غالبًا، وما يعمل في أكثر البيوت هو خبز على التاوة، مثل المحلا والجباب وخبز الخمير. أمّا في معيريض، فلا أذكر وجود خبّاز تجاريّ، على الأقلّ ليس في حيّنا حيث الخبز في التنّور المنزليّ هو القاعدة.

التنّور

أصل التنّور:

التنّور بمعنى الفرن، لفظة قديمة وردت في القرآن في سورة هود (حتّى إذا جاء أمرنا وفار التنّور) وجمعها تنانير، وقيل: إنّها لفظة فارسيّة، والحقيقة أنّ الفارسيّة أخذتها من الأكاديّة tinûru؛ إذ إنّها وردت في ملحمة جلجامش. ولانتشار الاسم في العربيّة والفارسية وكثير من اللغات الآسيويّة قال ابن دريد في العين: إنّ التنّور ورد في كلّ لسان. ولأنّ اللغات الساميّة لها جذور مشتركة، فنحن لا نشعر بأنّها بعيدة عن لغتنا العربيّة؛ فلفظة «تنُّور» عربيّة فصيحة، تشير إلى النور والنار، فنارتِ النارُ أضاءت، وتنوُّرُ الشيئ إضاءَته. والواقع أنّ استعمال التنّور للخبز، كان سائدًا في حضارات ما بين النهرين، واليمن، وفارس، والهند، والسند. وبقي تنّور الخبز في كثير من الدول العربيّة والآسيويّة والإفريقيّة، وخاصّة في الدول التي يكثر تاريخيًا فيها القمح، مثل: العراق، ومصر، واليمن.

التنّور في رأس الخيمة:

صنع البداة (البدو في جبال رأس الخيمة) التنّور واستعملوه، كما يستعملون الحجر للخبز عليه مباشرة؛ لأنّ الخبز طعامهم الرئيسيّ، وكانوا يزرعون القمح فوق الجبال. وقُطر الرغيف عندنا حوالي ٢٢ سم، ولكن عند البداة أكبر، قد يصل إلى ضعف ذلك، كما هو الحال في اليمن. أمّا الحضر في مدن رأس الخيمة، فأكلهم الرئيسيّ الرزّ لا القمح، فيندر استعمال تنّور الخبز لذلك، مع أنّهم يخبزون أنواعا أخرى من الخبز كـ (الرقاق والمحلّى والخمير والفطير والجباب)؛ وذلك باستعمال التاوة (مقلاة حديديّة مسطّحة)، لغير الوجبة الرئيسيّة، التي هي عندنا الغداء.

التاوة للخبز

جدّتي علّمت أمي الخَبز:

كانت جدّتي مريم– أم أبي– لها شهرة وتفنّن في الطبخ، وتعلّمت أمّي فنّ الطبخ والخبز منها. وكان أبو الجدّة محمّد تاجر لؤلؤ، يذهب في سفينته إلى الهند كلّ عام مع عائلته، بما فيها ابنته مريم ويبقى هناك أسابيع أو شهورًا حتّى يبيع كلّ ما عنده من لؤلؤ. ففي أثناء وجود العائلة في الهند، يستأجر مسكنا، وطبّاخات هنديّات للطبخ. فكانت جدّتي مريم– وهي صبيّة– تتعلّم مع أمّها طبخ أصناف الطعام من الهنديّات؛ فبرعت في الطبخ.

كان تنّور الخبز الذي أسّسته الجدّة، ركنًا أساسيًّا من بيتنا في معيريض أثناء طفولتي، وكنت أتسلّى بالتفرّج على النساء وهنّ يخبزن؛ لذلك سأسرد ما أذكره من مشاهدتي لما كان يدور حول التنّور في بيتنا.

تنّور بيتنا:

كانت أمّي تشتري التنّور من البداة؛ سكّان الجبال في رأس الخيمة. والبداة يصنعون الأدوات المنزليّة الخزفيّة بمهارة؛ من طين خاصّ أو صلصال. وتنّور الخبز يشبه الجرّة الخزفيّة الكبيرة أو الحِب (الزير) بفم واسع في أعلاه، وله فتحة

جانبيّة للتهوية. يحفر له البنّاي (البنّاء) –الذي يبني البيوت– في الأرض حفرة، يركّزه فيها ويثبّته بالطين. ويُسّخّن التنّور بإشعال النار بحطب يلقى فيه، فإذا خمد اللهب وبقي الجمر في أسفله يكون جحف التنّور (خزفه أو فخّاره) حارًا جدًا. وإذا لم يكن الحطب كافيًا لإشعال النار، في حالات نادرة، يضاف إلى الحطب أحيانًا اضطرارًا روث البقر الجافّ أو بعر الجمال. ولقد تقزّزت لمّا رأيت ذلك أوّل مرّة، وقلت للنساء: إنّني لن آكل من ذلك الخبز. ولكن علمت أنّ استعمالهن للروث نادر جدًا، كما لا نشم للروث رائحة في التنّور؛ ولذلك لا يؤثّر في طعم الخبز ورائحته بعد أن يحترق. مع ذلك فإنّني رفضت أن آكل خبز ذلك اليوم. ولاحظت عند اشتعال الروث لهبًا أزرق اللون خلافًا للهب الحطب. ولمّا بحثت في ذلك حديثًا، وجدت أنّ الهنود الذين كانوا يستعملون الروث كوقود، قد أثبتوا أنّ في روث البقر غاز الميثان الناتج عن تخمّر الروث؛ وهو مصدر اللهب الأزرق. ولقد استخدم الإنسان روث الحيوانات مصدرا للطاقة منذ آلاف السنين؛ إذ تمّ تكديسه وتجفيفه، ثمّ حرقه بهدف التدفئة والطبخ، وما زال يستخدم في شتّى أنحاء العالم لدى العديد من الشعوب البدائيّة، خاصّة في بعض المناطق الإفريقيّة والآسيويّة الفقيرة. بل يتمّ حاليًّا استخدام روث الحيوانات في توليد الكهرباء في بعض الدول الفقيرة.

لا تضع كلّ عائلة في حيّنا في معيريض، تنّورًا للخبز في بيتها، لما يحتاج ذلك من جهد تعاونيّ فوق قدرة ربّة بيت بمفردها، ولكنّ أغلب العائلات في رأس الخيمة تضع تنّورًا صغيرًا لغير الخبز كالشوي، والطبخ. وكان للتنّور دور غير مرئيّ في المجتمع، لا يدركه إلا من تمعّن بدقّة؛ فإعداد الهريسة في رمضان يصعب تخيّله آنذاك دون التنّور؛ فالهريسة أكلة شعبيّة في الخليج تصنع من القمح واللحم، وهي معروفة عند العرب قبل الإسلام. ويقال: إنّ الهريس في اللغة هو الحبّ المهروس (المدقوق بالمهراس) قبل طبخه، وبعد الطبخ تسمّى هريسة. فلإعداد الهريسة في رمضان، يغلى اللحم والقمح المهروس على نار الموقد الحامية، باستعمال الحطب كوقود ظهرًا، ثمّ يترك القدر – أو البرمة في رأس الخيمة– وفيها ما تمّ غليه، في التنّور الحارّ المغطّى، ليكتمل نضجه على نار خفيفة حتّى قرب الغروب؛ إذ يستخرج لِلَّتّ (الخلط) والإعداد للأكل. والغريب أنّ التنّور بحرارته في مجتمعنا، كان يقوم مقام الثلّاجة نوعًا ما، قبل وصول الكهرباء إلى البلاد؛ فإذا بقي طعام في القدر بعد الغداء فيمكن حفظه عن التخمّر والفساد في التنّور على نار خفيفة حتّى المساء؛ والسبب في ذلك أنّ الجراثيم التي تفسد الطعام لا تعيش وتنمو إلا في معدّل معيّن من الحرارة، فلا تنمو في الطعام الحارّ؛ لأنّ الحرارة تقتلها، في حين أن برودة الثلّاجة تمنعها من التكاثر.

والجدير بالذكر أنني كثيرًا ما أذكر هنا البرام (الأوعية الفخارية) لأن رأس الخيمة اشتهرت قديمًا بصناعة وتصدير البرام. حتى إن بعض أبناء الإمارات الأخرى كانوا يمزحون مع أهل رأس الخيمة ويسمونهم «أهل البرام».

الدور الاجتماعيّ للتنّور:

لقد لعب تنّور الخبز دورًا اجتماعيًّا مؤنسًا في بيتنا؛ إذْ تشبّ أمّي النار في التنّور بعد العصر؛ لتجتمع نساء الجيران حول التنّور في الساعة الأخيرة قبل غروب الشمس للخبز، وتبادل الأحاديث والأخبار أثناء الخبز. فكان ذلك اللقاء بمنزلة مجلس يوميّ لأمّي وصاحباتها من الجيران؛ إذ يضمّ اللقاء مع الوالدة الجارات. فكلّ واحدة منهنّ تأتي بعجينتها جاهزة في حسينة (إناء خزفيّ يعجن فيه). وتمّ الاتّفاق مع سيّدة فقيرة أكبر سنًّا وخبرة من بقيّة النساء ولها محبّة واحترام أن تتولّى عمليّة الخبز؛ وهو إلصاق العجين على جدار التنّور الحارّ، واستخراج الخبز الحارّ من التنّور. وقد تمّ الاتفاق مع تلك المرأه أن تأتي بلا عجينة معها.

المرفعة

وأذكر أنّ تلك المرأة (الخبّازة) كانت تجلس قرب فوّهة التنّور الحارّ للخبز، ويدها في (المرفعة)، وهي بمنزلة قفّاز دائريّ الشكل مصنوع من طبقات من القماش القطنيّ، يحمي يد الخبّازة من حرارة التنّور. وتعدّ بقيّة النساء العجين لها؛ كي تخبزه. ولإعداد العجين، تأخذ

إحدى النساء قطعة من العجين على شكل كرة صغيرة، وترقّه (تفرشه وتدحوه) باستعمال المحلاي (خشبة أسطوانيّة لفرش العجين) ولوح من الخشب يوضع العجين فوقه.

المحلاي

وكانت أمّي تدرّب أختي الصبيّة على رقّة العجين، حتّى أتقنتها، فأوكلت لها مهمّة رقّ عجينة منزلنا أحيانًا. ويوضع العجين الجاهز على (تفال) قرب الخبّازة. أمّا الأولاد الذكور فلا يسمح لهم بالجلوس مع النساء أثناء الخَبز، لكن يسمح لهم الوقوف قرب التنّور للتفرّج.

الطابي والمحماس

تضع الخبّازة العجين المفروش على المرفعة في يدها، فتعدّلها وتدحوها أكثر بتحريكها على المرفعة، ثمّ تدخلها داخل التنّور الحارّ وتلصقها بسرعة على جداره، وتخرج يدها بسرعة من التنّور، ثمّ تغطّي فوّهته بصحيفة معدنيّة؛ للحفاظ على الحرارة. وكلّما استوت خبزة نزعتها بيدها العارية من التنّور بسرعة. وإذا التصقت خبزة بجدار التنّور بشدّة يصعب نزعها، استعملت المحماس (آلة حديديّة تستعمل إمّا لتحميس القهوة في الطابي، أو فصل الخبز عن جدار التنّور).

وقد يكون ابن الروميّ، الشاعر العبّاسيّ في بغداد، الذي وصف الخبّاز، رأى في بغداد مثلما رأيت في معيريض، ولكنّه أروع منّي وصفًا ودقّة؛ إذ قال:

ما أنسَ لا أنسَ خبّازًا مررتُ به ... يدحو الرقاقةَ وشكَ اللمح بالبصرِ
ما بين رؤيتها في كفّه كرةً ... وبين رؤيتها قوراءَ كالقمرِ
إلا بمقدارِ ما تنداح دائرةٌ ... في صفحة الماء يرمَى فيه بالحجر

ورأيت أمّي تطلب من الخبّازة بأن ترتاح أحيانًا وتقوم هي بالخبز، وأحيانًا تفعل بقيّة النساء ذلك؛ لترتاح رأفة بها.
وبعد أن يتمّ خبز كلّ العجين، تضع كلّ امرأة خبزة أو خبزتين في إناء الخبّازة، مكافأة لها على المساعدة. وتأخذ كلّ واحدة خبزها وتنصرف إلى بيتها، قبل أن يجهر المؤذّن بأذان المغرب. وكان عشائي غالبًا ما يكون خبزة من ذلك الخبز اللذيذ، مدهونة بالزبدة أو السمن، وقد نثر عليها السكّر.

المطوّعة

«المطوّع» في الخليج هو الذي كان يتولّى تعليم أطفال الحيّ وتحفيظهم القرآن الكريم وتلاوته، وكذلك إمام المسجد؛ لأنّه في الغالب يعلّم الأطفال القرآن أيضًا.

تعكس ذكرياتي عن أيّام الطفولة مع معلّمتي في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات من القرن الماضي في مسقط رأسي، قرية المعيريض في رأس الخيمة، من ساحل عمان الذي دخل في اتّحاد سمّي الإمارات العربيّة المتّحدة سنة ١٩٧١، وتأخّرت رأس الخيمة سنة واحدة، قبل الانضمام إليه.

عندما بلغت السادسة من العمر رتّب والدي مع أمّي وأمّه، إرسال الحاجّية خديجة علي حسن (من قبيلة بني خالد)؛ لترتّب مع جارتها وصديقتها المطوّعة آمنة إبراهيم، أن تكون المعلّمة الخاصّة، تدرّسني وأختي القرآن دراسة خصوصيّة، دون طلبة آخرين، فوافقت. كان ذلك في سنة ١٩٤٩م. وكانت الحاجّية تسكن بجوار بيت المطوّعة آمنة في خيمة مع أخيها الأعمى جمعة.

وللحاجية تاريخ مع عمّتي عائشة؛ إذ كانت بمنزلة المربيّة لها ثم لي. وكانت تسكن في بيتنا أيام طفولتي، ثمّ استقلّت في بيتها المبنيّ من سعف النخل، مع أخيها الأعمى جمعة. ولكن كانت تقضي معظم النهار في بيتنا؛ لمحبّة الأهل واحترامهم لها. وكانت محبّة جدًّا لي أيّام طفولتي، لذلك كنت أعتبرها بمثابة الأم. وأذكر أنّها كانت تأخذني معها في زياراتها لبعض بيوت أصحابها في الحيّ.

المفارقة في قصّة معلّمتي هي أنّها عملت معلّمة رغم أنّها كانت أمّيّة؛ لم تعرف القراءة والكتابة، ولكنّها كانت تستطيع قراءة القرآن وتعليم الأطفال قراءته. ولم يكن ذلك أمرًا غريبًا بالنسبة لجيلها. فتتعلّم بعض نساء آنذاك قراءة القرآن، وعرف القليل منهنّ قراءة الكتب المكتوبة بالخطّ القرآنيّ. لقد كانت تلك القراءة للقرآن مزيجًا من الحفظ غيبًا في البداية، مع التعرّف على رسم بعض الحروف. والواقع أنّ معلّمتي لم تتمكّن من قراءة الرسائل ولا الكتب، بل القرآن فقط. ولقد لاحظتُ بعض المسلمين من الهنود والباكستانيّين، غير الناطقين بالعربية، يقرؤون القرآن حفظًا، لكنّهم لا يستطيعون فهم معنى الكلمات العربيّة.

طاعة المعلّمة:

قامت الحاجية بأخذي وأختي إلى منزل معلّمتي، آمنة إبراهيم، في أوّل يوم دراستي للقرآن، وأبلغتها الرسالة الأبويّة الخليجيّة المعتادة في صباح ذلك اليوم الأوّل، ونحن نسمعها قائلة لمعلّمتي، بأنّ الأهل يقولون لك: «اللحم لك والعظم لهم». والقصد من هذا البيان تخويف الطفل، وحثّه على الاجتهاد، وأنّ الأسرة منحت المعلّمة الإذن بضرب أطفالها إن دعت الحاجة لتعليمهم؛ أي يجوز للمعلّمة أن تضرب لحم الطفل كما تشاء أمّا عظامه فتعاد للأهل. وكان الغرض من هذا البيان في اليوم الأوّل من المدرسة هو أن يسمع الأطفال أنّ المعلّم أو المعلّمة سيكون لهما السيطرة الكاملة، وعلى الطفل الطاعة التامّة. ولا يمكنهم تقديم شكوى إلى أولياء الأمور إذا ضربهتم المعلّمة أو ضربهم المعلّم.

كانت مدرستي بيت المعلّمة، مبنيّا من جريد النخل، كأغلب المساكن في معيريض؛ لذلك فالأصوات تسمع بسهولة بين بيوت الجيران. ويمكن لأيّ شخص أن يتحدّث مع جاره عبر الجدار من خلال أعواد الجريد، دون الحاجة إلى الخروج من المنزل.

نبدأ الدوام للقراءة في المدرسة بعد الإفطار؛ أي بعد شروق الشمس، وغالبًا قبل الساعة السابعة صباحًا. ولم نكن نحن – الأطفال أو المعلّمة – نعرف الوقت بالساعة، ولكن نعرفه بحركة الشمس والأذان. كنّا نجلس على الرمل في ظلّ العريش صباحًا، والمصحف أمامنا على المرفع. وعندما يتقلّص الظلّ ننتقل إلى داخل العريش أو الخيمة، حسب الطقس في ذلك الفصل. وبعد دوام المدرسة لا يطلب من الطفل واجبات منزليّة.

مرفع القرآن

وأطفال الحيّ يلعبون في الساحات وقرب البحر من بعد الغروب حتّى بعد صلاة العشاء، ثمّ يعودون إلى بيوتهم للنوم؛ ففي الليالي غير المقمرة، كانت القرية مظلمة وهادئة للغاية؛ فلم تكن هناك كهرباء أو سيّارات أو آلات لإصدار الضوضاء. فبعد ساعة أو ساعتين –بعد صلاة العشاء حوالي الساعة العاشرة ليلًا– يكون معظم السكّان نائمين. ولأنّ منزلنا كان بالقرب من شاطئ البحر، كنّا ننام في غير أوقات الشتاء ليلًا على المنامة (السِيَم) المرتفع عن الأرض قليلًا في فناء البيت، فأسمع أحيانًا أمواج البحر وقت النوم، ما لم يكن البحر هادئًا.

المنامة الحقيقيّة لبيتنا

جدار حوش بيتنا الجريديّ

وفي مناسبات نادرة، عندما كان مدّ البحر مرتفعًا، يخترق البحر جدار حوشنا (السياج) من جريد النخيل إلى عدّة أمتار داخل فناء منزلنا. ولم يؤثّر ذلك علينا إلا مرّة واحدة عندما أغرق جراء كلبتنا، حديثي الولادة في حفرة بالقرب من السياج من الداخل. كان على الكلاب أن تبقى داخل الجدار الحدوديّ (الحوش)، ولا يسمح لها داخل غرف المنزل أبدًا؛ لأنّها تعتبر حيوانات نجسة.

وقبل الساعة الخامسة صباحًا، تنشط القرية من جديد؛ عندما تصيح ديكة القرية. فعند شروق الشمس، يجب على الأطفال تناول وجبة الإفطار مع الشاي والحليب ثمّ الذهاب إلى المدرسة سيرًا على الأقدام لقربها.
وفي الضحى– أي حوالي الساعة العاشرة صباحا– تسمح لنا المطوّعة بفسحة، مقدارها نصف الساعة، نذهب فيها إلى البيت؛ لأكل التمر وما توفّر معه، مثل: الجامي (الإقط)، أو اللبن الخليجيّ، ثمّ نعود للمدرسة. كنّا نذهب مشيًا حيث يبعد بيت المعلّمة حوالي خمس دقائق عن بيتنا. وعند أذان الظهر، ينتهي دوام المدرسة فنعود إلى المنزل.
في نفس الحوش الذي ندرس فيه أنا وأختي كانت أمّ عليّ، أمّ زوج معلّمتنا، تدرّس القرآن لأطفال من الفريج (الحيّ). فكانوا يجلسون في الجهة المجاورة من نفس الحوش (فناء بالمنزل)، نراهم ونسمعهم، ولكن لا نختلط بهم. وكان الأطفال أولادًا؛ لأنّ تعليم البنات غير مرغوب آنذاك.

شطارة أختي:

عندما كنت طفلًا، كان مجتمعنا يتوقّع أن يكون الأولاد أكثر ذكاءً من البنات، لكنّني واجهت صعوبة في التنافس مع أختي؛ لأنّها كانت أكبر منّي بثلاث سنوات. كان عمري ستّ سنوات وهي في التاسعة من عمرها؛ فكانت أقدر وأسرع منّي على حفظ القرآن. وكانت المعلّمة تعتقد أنّ الصبيّ يجب أن يكون أذكى من البنت؛ فـ«الذكورة» يجب أن تعوّض فارق الثلاث سنوات في العمر.

كان المطلوب منّا–نحن الأطفال– تكرار قراءة الآيات المطلوبة حتّى «نغيّب» السورة أو الدرس المقرّر؛ أي نحفظه غيبًا، وخاصّة في نهاية الأسبوع الدراسيّ؛ وهو يوم الخميس، الذي نأتي فيه للمعلّمة بـ«خميسيّة» وهي أجرة التعليم، مقدارها روبيّة واحدة عن كلّ تلميذ منّا. ومع أنّنا نتعلّم القراءة من الحروف التي أمامنا في المصحف، كان اعتمادنا على الحفظ «غيبًا»، والحروف تساعد على الحفظ؛ بتكرار رؤيتها في إعادة القراءة مرّات عديدة. ولا شكّ أنّ أختي، التي كانت تكبرني بثلاث سنوات، أقدر منّي على الحفظ؛ ولذلك أوصت المعلّمةُ الحاجيةَ خديجة بأن تنقل لوالدي انطباعها، بأنّ آمنة (أختي) أذكى منّي في حفظ القرآن. ولم يعجب ذلك التقرير أبي وأمّي وجدّتي الذين يعتقدون بأنّي ذكيّ جدًّا؛ فكيف تكون البنت أكثر ذكاءً من الولد؟ ولم يضعوا في الاعتبار فرق السنّ بيننا.

استشار الوالد المطوّع العجوز الشيخ عبد العزيز الرجبانيّ، الذي كان يمارس الطبّ الشعبيّ؛ فسأله إذا كان هناك شيء يمكن عمله لتحسين ذكائي، فقال الشيخ الرجباني: «نعم، نقعوا له سبع زبيبات في الماء، ليتناولها على الريق كلّ صباح». لقد راقني ذلك العلاج؛ لأنّ طعم الزبيب المنقوع كان جيّدًا في الصباح؛ إذ يمتصّ الزبيب المجفّف الماء فينتفخ ويصبح أكبر حجما، وأكثر ليونة. وكنت أرغب في زيادة عدد حبّات الزبيب في وجبة الإفطار، لكنّ الأسرة رفضت تعديل الوصفة المحدّدة بسبع حبّات من قبل الشيخ المعالج. والعدد سبعة عدد مقدّس؛ فقد خلق الله تعالى الكون في ستّة أيّام وفي اليوم السابع استوى على العرش.

كنت سعيدًا جدًّا بتلك الوصفة الطبّيّة اللذيذة. ولكن في السنة التالية، وقد كبرت سنة، تحسّنت قدرتي وخبرتي على الحفظ؛ فصرت أحفظ القرآن مثل أختي، فكانت المعلّمة سعيدة بأدائي، فاعتبرتني ذكيًّا جدًّا، ولسوء الحظّ، فإنّ مديح المعلّمة وشكرها على ذكائي جعلني أخسر زبيبي المنقع صباحًا، وللأسف!

وكان الشيخ الرجبانيّ معروفًا أيضًا بطرد الأرواح الشرّيرة من المرضى المسكونين بالجنّ بقراءة القرآن وضربهم بالعصا.

لم تكن المطوّعة آمنه تعرف الكتابة، ولكنّها تعرف قراءة القرآن فقط. أمّا عمّتي عائشة فكانت لا تعرف الكتابة، ولكنّها كانت تقرأ الكتب للنسوان ما دامت بخطّ يشبه خطّ القرآن، ولا تستطيع قراءة الرسائل المكتوبة باليد.

تعلّمي للخطّ:

وفي السنة التالية عاد زوج المعلّمة من سفر طويل؛ إذ كان بحّارًا في سفينة السيّد أحمد بو غيث السعديّ (قريبهم)، فطلب منه الوالد أن يعلّمني الكتابة؛ ولأنّ الوالد له شهرة في صعوبة الخطّ، لم يحاول هو أن يعلّمني. فكان عليّ، زوج المطوّعة، يعلّمني كلّ يوم شيئًا من الكتابة على لوح صغير مع طبشورة، ثمّ بالقلم والقرطاس. ومع أنّ اختراع قلم الحبر الجافّ قد تمّ بالفعل، ورأيته مع رجلٍ، إلا أنّه لم يصل إلى أسواقنا. ثمّ تعلّمت استعمال الريشة كقلم، أغطّها في حبر وأكتب بها.

كانت الأقلام تحمل كمّيّة صغيرة فقط من الحبر في كلّ مرّة، وكان لا بدّ من غمسها بالحبر بشكل متكرّر لكلّ كلمة تقريبًا. كما تعلّمنا نحن الأطفال، أن نصنع حبرًا مستخرجًا من الشنيوب (الحبار، الخشاق Squid). فكنّا نصطاد الحبار من البحر الضحل، قرب الشاطئ ليلًا، باستعمال الرماح المعدنيّة والمصابيح الكهربائيّة. فنمشي في المياه الضحلة التي تصل إلى مستوى الركبة؛ بحثًا عن الحبار؛ فعندما نعثر عليه، نوجّه نور المصباح نحو عينيه، فيعشيه النور، ولا يتمكّن من الرؤية؛ لذلك يبقى ثابتًا في مكانه في الماء، فوق رمال قاع البحر كالأعمى، فنغرز ظهره بالرمح ونخرجه. وتعلّمنا كيف نتجنّب أن يرشّنا الحبار بحبره، بتحويل مؤخّرته بعيدًا عنّا. فكيس الحبر عبارة عن كيس عضليّ، نشأ كامتداد للأمعاء الخلفيّة؛ إنّها غدّة فرعيّة معدّلة تنتج مادّة حبريّة (ملانين Melanin)، يستخدمه الحبار؛ للدفاع عن النفس بنفث سحابة من الحبر من حوله؛ لإرباك الحيوانات المفترسة.

وبعد صيده نستخرج كيس الحبر، فنجفّفه ونطحنه إلى بلوّرات الحبر المجفّفة، ثمّ نذوّبها في الماء في زجاجة فارغة؛ فيكون عندنا من الحبّار حبرٌ رخيصٌ، وإن كانت له رائحة سمكيّة. كما كنّا نجفّف لحم الحبار في الشمس ونشويه للأكل.

يجلس الطلاّب الصغار فوق الرمال مباشرة، مثل معظم التجمّعات غير الرسميّة؛ وبخلاف ذلك، كانوا يجلسون على الحصير المصنوع من سعف النخيل. وطالما كان هناك ظلّ للجدار، كان أطفال مدرسة القرآن يجلسون في الظلّ، فوق الرمال والقرآن أمامهم، فيقرؤون وهم ينوصون (يحرّكون رؤوسهم، كما يفعل اليهود وهم يقرؤون التوراة). وأعتقد أنّ تلك العادة في تحريك الجسم تمنع الطفل من أن ينام وهو يقرأ. ولا يوضع القرآن على الأرض بل يرفع عن الأرض على (مرفع) خشبيّ على شكل حرف X. وعندما يتقلّص ظلّ الجدار قرب الظهر، يتمّ نقل الأطفال إلى داخل الغرفة فوق حصيرة.

التحميدة:

بعد سنتين ختمت أنا وأختي معًا المصحف كلّه، وأقيمت حفلة «التحميدة» بهذه المناسبة السعيدة، للتلميذ والمعلّمة والأهل والأصدقاء. فكنت مع مجموعة من أطفال الفريج (الحيّ) ندور على البيوت في السكيك، بثياب نظيفة أو جديدة، وننشد أنشودة نكرّرها على كلّ باب، إعلانًا بأنّي وأختي قد ختمنا القرآن فيعطونا هدايا؛ إمّا مكسّرات أو بيزات (دراهم). فالمكسّرات لنا والبيزات للمطوّعة.

فأحد التلاميذ يقرأ من كرّاس بصوت عال تحميدة (أنشودة) خاتمة القرآن التالية، والكلّ يردّد (آمين).

الحمد لله الذي هدانا .....آمين
للدين والاسلام اجتبانا ..... آمين
سبحانه من خالق سبحانا ..... آمين
بفضله علّمنا القرآنا ..... آمين
نحمده حقّا له أن يحمدا ..... آمين
حمدا كثيرا ليس له يحصى عددا ..... آمين
طول الليالي والزمان سرمدا ..... آمين

بعد أن ختمت المصحف (سنة ١٩٥١)، وقضيت الإجازة الصيفيّة في مصيفنا مع الأهل في شمل، انتقلت للدراسة في مدرسة (أم البراميل) عند الأستاذين: سلطان بن حميد، وعيسى النعيميّ، في مدينة رأس الخيمة سبتمبر ١٩٥١، وكنت قد بلغت الثامنة من العمر.

الحديث عن مدرسة القرآن– أيّام الطفولة– ذكّرني بأشخاص مرّوا عليّ وأحداث مرّت، حول تلك الفترة، سأذكرها باختصار:

وصيّة الحاجية خديجة لي:

أثناء دراستي عند المطوّعة آمنة إبراهيم، وأنا بين السابعة والثامنة من العمر، أخذتني الحاجية الفقيرة خديجة علي حسن معها مرّة عصرًا؛ لتجلب ماءً في جرّة (جحلة) للشرب، تضعها على رأسها، من منطقة الحديبة، التي كانت تبعد عن معيريض ما يقرب من ثلاثة كيلومترا تقريبًا؛ لعدم توفّر الماء في قرية معيريض ولا تستطيع شراءه لفقرها. وفي طريق العودة وهي تحدّثني عمّا سمِعَت من كبار السنّ، عن أجدادي آل بوطاميّ، قالت لي: عندي طلب أريدك أن تفعله لي، فهل توعدني بفعله؟ قلت: نعم، بدون تردّد. قالت: بعد موتي ودفني في القبر، أريدك أن تقرأ على قبري، فوق رأسي سورة الفاتحة. فوعدتها بأنّي سأفعل. ومن غرائب الصدف– بمشيئة الله– أن تموت الحاجية في الدوحة، وأنا طالب في ثانويّة الدوحة، سنة ١٩٦٣؛ فحضرت الجنازة، وقرأت على رأسها في القبر سورة الفاتحة مرّتين، بعد أن ترك المشيّعون القبر. فأرحت ضميري بأنّي قد نفّذت وصيّة الحاجية، التي كانت بمنزلة الأمّ، ولها فضل عليّ أثناء طفولتي.

قصص مع مطوّعتي آمنة:

العلاج بالأفيون:

خلال الفترة التي كانت المطوّعة آمنة إبراهيم تعلّمني القرآن، أنجبت ابنها عبد الله. فمرّة كان الوليد يصيح كثيرًا ولا ينام، فتوقّعت أنّ الطفل عنده مغص في البطن؛ لذلك أرسلتني إلى المتجر المحلّي ومعي روبيّة واحدة لشراء ترياك (أفيون).

أخذ صاحب المحلّ أسطوانة صغيرة مدوّرة داكنة اللون تشبه التمر الهنديّ، وقطع قطعة منها بالسكّين وأعطاني إيّاها مقابل روبيّة واحدة. أخذت المعلّمة قطعة صغيرة جدًا من تلك وغلتها مع الشاي، ثم غرغرت الطفل. فكان الأفيون فعّالًا جدًا في تخديره وجعله ينام.
علمت– لاحقًا– أنّ التيرياك الذي كان أفيونًا؛ متوفّر في المحلاّت التجاريّة، لا يستعمل إلا للعلاج فقط. وقد شهدت تطبيقه في ذلك الوقت على منطقة مؤلمة في قدم والدي بعد لدغة عقرب. لقد ساعد في تخفيف الألم. كانت والدتي فخورة بأنّني وأختي لم نتعرّض لمثل هذه المخدّرات كعلاج. لكنّها أخبرتني أنّ أختي أصيبت ذات مرّة بما اعتقدوا أنّه آلام في المعدة عندما كانت طفلة رضيعة، فصنعت لها امرأة عجوز تركيبة خاصّة من الأدوية العشبيّة؛ وكان أحد المكوّنات «مسحوق زهرة الخشخاش». قالت: إنّ أختي أصبحت هادئة جدًّا مع هذا الدواء العشبيّ، تبحلق بمن حولها صامتة ساكنة. كانت عيناها مفتوحتين، لكنّها لم تبك. وعندما أخبرت والدتي أنّ الخشخاش هو الأفيون، لم تصدّق ذلك. لم يعرف جيلها قطّ ما هو الأفيون، لكنّهم سمعوا عنه مؤخرًا من التلفزيون.
عندما لا يكون هناك دواء حقيقيّ، ويسود الجهل في المجتمع الأمّيّ، تصبح الخرافات العلاجيّة شائعة جدًّا. كانت إحدى الأساطير العربيّة قبل الإسلام الاعتقاد بأنّ شرب دم الملك يشفي من مرض داء الكلب. وطبعًا لم يقتلوا الملوك ليشربوا دماءهم، ولكن قد يتبرّع الملك بالدم بالحجامة.

علاج البوحمير (السعال الديكيّ):
من الاستخدامات العلاجيّة الغريبّة الأخرى التي قامت بها معلّمتي هو البول؛ فعندما أصيب طفلها بالسعال الديكيّ، أرسلتني بوعاء للحصول على بول من طفل معيّن؛ الأب أبيض والأمّ سوداء. وسقت ابنها قليلًا من ذلك البول. وكانت تلك الأسرة معتادة على التبرّع ببول ابنها؛ لعلاج السعال الديكيّ. ولا أدري كيف تنبع مثل تلك الأسطورة الغريبة؛ بأنّ بول الصبيّ المختلط من لونين مختلفين– مثل أمّ سوداء وأب أبيض– يشفي من السعال الديكيّ.

الدراسة في مدينة رأس الخيمة:
بعد الانتهاء من حفظ القرآن انتقلت إلى مدرسة أخرى (مدرسة أمّ البراميل) في مدينة رأس الخيمة، حيث تمّ تدريسنا الحروف الأبجديّة والرياضيّات، بالإضافة إلى القرآن مرّة أخرى. وفي تلك المدرسة، كنّا نستخدم الكرّاسات والأقلام.
وبعد بضعة أشهر في تلك المدرسة، انتقلنا إلى مدرسة ابتدائيّة نظاميّة حديثة تابعة للكويت حيث حصلنا على أقلام رصاص للكتابة. كما أنّ والدي اشترى لي زجاجة حبر أزرق مستورد وقلم حبر جميلًا وحديثًا. وبذاك القلم، شعرت بأنّني كاتب رسائل ماهر وفخور جدًّا.

كتابتي للرسائل وأنا في المدرسة الابتدائيّة:
صرت أكتب رسائل لنساء لهنّ علاقة قويّة مع عائلتي، لأزواجهنّ في الخارج، ومنهنّ معلّمتي السابقة، ونساء أخريات في الحيّ. وقد كافأنني بنصف روبيّة هنديّة للرسالة؛ إذ كانت النساء تملي ما يردن قوله لأزواجهنّ. وتعلّمت بالممارسة، بسرعة، تحرير وإعادة صياغة لغتهنّ العاميّة المحليّة إلى الفصحى؛ ففي بعض الأحيان، أرادت النساء إخبار أزواجهنّ بمعلومات مفصّلة حول ما حدث للأطفال وللماعز أو القطط أو الدجاج، فاضطررت إلى تعديل قصصهنّ العاميّة الطويلة إلى فصحى.
كانت هناك سيّدة مميّزة في حيّنا لم أقم بإعادة صياغة رسائلها، أو تعديل إملائها مطلقًا؛ وهي جارتنا المطوّعة عفراء بنت راشد. لقد كانت سيّدة محترمة جدًّا، ولم تكن معلّمة قرآن فحسب، بل كانت تقرأ الكتب والرسائل أيضًا، إن كُتبت بحروف مشابهة للقرآن. ولكنّها لا تتمكّن من كتابة كلمة واحدة. وكان لديها كتاب يحتوي على نماذج لمختلف الرسائل، اختارت منها ما تشاء، في حين كانت تملي عليّ رسائل لزوجها جمعة بن سيف، الذي كان يعمل قلّافًا (نجّارًا) للسفن في الكويت. وكان حبّ عفراء الكبير لجمعة معروفًا في حيّنا. ربّما كانت قصص الحبّ– مثل قصّة مجنون ليلى التي قرأتها عفراء للنسوان ليلًا– تعكس شعورها الداخليّ بالحبّ تجاه جمعة. وممّا قالت لي–لمّا أملت عليّ رسالة له– اكتب ما يلي:
«أخي العزيز جمعة، أتمنّى أن تكون بصحّة جيّدة وسعادة. كلّنا بخير هنا، لا نحتاج إلى شيء، لا ينقصنا إلا حضورك معنا. أدعو الله أن أراكم في بيتكم قريبًا».

وقد شاهدت بعض الدموع بوضوح في عينيها خلف البرقع، عندما انتهت من الإملاء. ولم أستطع أن أنسى رسالة عفراء حتّى الآن؛ إذ لم يكن من الطبيعيّ أن يطلق على الزوج لقب الأخ، لكنّ عفراء ارتكبت خطأ؛ باتّباع نموذج خطاب خاطئ لا يصلح للزوج.

كانت عفراء تقرأ القصص القصيرة للسيّدات المجاورات في الحيّ ليلًا؛ باستخدام ضوء الكيروسين؛ لأنّه لم يكن لدينا كهرباء في ذلك الوقت؛ فعندما كان عمري بين السنة الخامسة والسابعة، كانت والدتي تأخذني معها ليلًا؛ للاستماع إلى القصص العربيّة القديمة في منزل عفراء، حيث تجتمع النسوان فتتناوب عمّتي وعفراء على القراءة. فكنت أسمع بعض الحكايات العربيّة وقصص الحبّ وأساطير ألف ليلة وليلة العظيمة، وقصّة الزير سالم. فمن المحزن بالنسبة لي أن أدرك الآن أنّه في الأيّام الخوالي- أثناء طفولتي، عندما كان معظم شعبنا يغطّ في أمّيّة وبالأخص النساء- كانت السيّدات الأمّيّات يجتمعن عند امراة أو امرأتين؛ لسماع قصص الأدب بلغة عربيّة فصحى، في حين- في أيّامنا هذه التي تلاشت فيها الأمّيّة- لا تحدث مثل هذه الأنشطة الأدبيّة، بل نساؤنا مشغولات بالتلفزيون.

مدارس البنات:

لقد أسعدني إنشاء المدارس النظاميّة للبنات في رأس الخيمة- بما في ذلك معيريض- بعد أن سافرت؛ للدراسة في الكويت ١٩٥٨. وكما هو متوقّع، كان هناك رفض من الناس في البداية لقبول تعليم البنات؛ خوفًا من أن تكون معرفة القراءة والكتابة طريقا إلى مراسلات سرّيّة وفساد بين الذكور والإناث، كما يدّعون. ولكن- من حسن الحظّ- لم يدم ذلك التردّد طويلًا. وقد أخبرني أحد الأصدقاء من معيريض قصّة طريفة؛ بأنّ عبّارًا فقيرًا (صاحب قارب العبرة)، من الذين ينقلوننا بعبرته عبر خور معيريض إلى رأس الخيمة، كان من أوائل الذين أدخلوا بناتهم المدرسة، في حين أنّ الأعيان والوجهاء وأصحاب السمعة المرموقة، أحجموا، عدا الوجيه الحاجّ إسماعيل عيسى جكّة، فإنّه أرسل ابنته إلى المدرسة منذ البداية. وكان ذلك مستغربًا جدًّا من الناس في ذلك الحيّ الصغير. ولمّا سأله أحد المواطنين: كيف سمح لنفسه أن يرسل ابنته للمدرسة؟ أجاب: عندما تتعلّم بنت العبّار وتصبح متعلّمة، وتجلس على كرسيّ في مكتب، هل يجب أن أقبل أنا على ابنتي أن تجلس على الأرض؟ لا، لن أقبل. فإدخال ابنته في المدرسة شجع الناس في حينا على قبول تعليم البنات.

جارنا الحاج إسماعيل عيسى جكّة، يستحق أن أخرج عن موضوع المطوعة قليلًا لأتحدث عنه. لقد كان من الأغنياء القلائل نسبيًّا في الحيّ الشماليّ من معيريض، ومن وجهاء الحي، وله سفينة كبيرة (بوم) تدرّ عليه دخلًا جيّدًا. وكان جارًا لنا، ولكنّه- خلافًا لبقيّة العائلة من أهل جكّة- لم يكن يميل إلى الوالد؛ بعد أن تولّى والدي الإمامة والخطابة والقضاء الشرعيّ، وصار مقرّبًا للشيوخ. وأخبرني الوالد بأنّه لم يقع بينه وبين الحاجّ إسماعيل أيّ خلاف، ويكن له احترامًا وتقديرًا. بل إنّ لآل جكّة (وهم من قبيلة المناصير) نسبًا مع آل بو طاميّ؛ إذ تزوّج منهم جدّ الوالد، فمنهم أمّ جدّي. مع ذلك كان الوالد يزور الحاجّ إسماعيل في مجلسه أحيانًا؛ لأنّه أكبر سنًّا، مع أني لم أر الحاج إسماعيل في مجلس الوالد قط. وكانت ختانتي قد تمّت في مجلس الحاجّ إسماعيل، بحضور والدي.

وكان الحاجّ إسماعيل أوّل من أدخل الراديو في معيريض. فكان والدي يزور مجلسه أحيانًا؛ للاستماع إلى الراديو أيّام الثورة المصريّة التي تعاطف معها البالغون من رجال الحي. كنّا نسمع من مجلسه المبنيّ من الجريد محطة «صوت العرب» من القاهرة من مسافة بعيدة؛ عندما قامت حرب السويس سنة ١٩٥٦. وكنت أستمع لخطب جمال عبد الناصر بشغف ولم أتجاوز السنة الثالثة عشرة من العمر. وكنت ثاني شخص في معيريض عنده راديو، ولذلك الراديو قصّة تستحق الذكر في فصل مستقل.

أنا والحاجّ إسماعيل جكّة:

عندما كنت بين السنة الثامنة والتاسعة من العمر، أتت سفينة الوالد (السنبوك) من الهند، وكان محمّد عبد الله حردان- وكيل الوالد على السفينة- بمنزلة الأخ الأكبر لي أثناء طفولتي، مع أنّه يقرب من والدي سنًّا. فكان قد اشترى لي «بُجلِيًّا» (مصباحًا كشّافًا) طويلًا من الهند يعمل بالبطّاريّات الجافّة. ولم أكن قد رأيت في رأس الخيمة كشّافًا بذلك الحجم والقوّة؛ فكنت في غاية الفرح والسرور، أنتظر غروب الشمس وحلول الظلام بفارغ الصبر لأجرّب مصباحي. فلمّا صار الظلام خرجت من البيت بمصباحي أجرّبه؛ بتسليط الضوء على سيف البحر، وجدران البيوت، وأوجّهه إلى السماء،

فأرى عمود النور المرتقع منعكسا على النَّدى في الجوّ. وبينما أنا مشغول ومبسوط أنظر إلى عمود النور نحو السماء في منتهى السعادة، وإذا بالحاجّ إسماعيل يمرّ جانبي، في الظلام، ويخاطبني قائلًا: «هل رأيت الملائكة في السماء»؟ فلم أجب، وقد يكون أراد أن يمازحني، ولكنّه أفسد عليّ فرحتي وسروري بالمصباح الكبير لأني اعتبرت ذلك استهزاءً بي.

الحاجّ إسماعيل مع ابنته وبومه في البحر خلفه سنه ١٩٥٩

وفي إحدى إجازاتي إلى الوطن، عائدًا من أمريكا، زرت الأصدقاء في رأس الخيمة ومعيريض، وأنا متقدّم في سنّ الشباب، فأحببت أن أزور جارنا الحاجّ إسماعيل؛ لأسلّم عليه، لأنّه من أعمدة رجال الحيّ المشهورين، ولكن تفاجأت بأنّ الحاج إسماعيل سمع عن وجودي في معيريض؛ فبادر بالطلب من محمّد عبد الله حردان أن يبلغني سلامه، ويدعوني للغداء عنده، فلبيّت الدعوة مسرورًا؛ فقابلني بلطف واحترام وتقدير، وقد أعدّ لي وليمة. وكذلك قابلته باحترام وودّ. ولكن في زيارة لاحقة- بعد بضع سنوات- أردت أن أبادر بزيارته؛ للسلام عليه، ولكنّي -للأسف- علمت أنّه كان قد انتقل إلى رحمة الله. فالله يرحمه ويغفر له.

أعود الآن إلى مطوّعتي التي أصبحت مريضتي:

تمرّ السنين وتنتقل مطوّعتي من معيريض إلى قطر. وفي عام ١٩٩٨ تصاب بجلطة قلبيّة؛ فتدخل في غرفة الإنعاش تحت إشرافي. فبينما كنت أقوم بجولة على مرضى القلب في قسم الإنعاش في الطابق السادس من مستشفى حمد مع الشباب من الأطباء المقيمين (المتدربين)، رأيت مريضة عجوزًا نحيفة، جالسة في سريرها. سلّمت عليها، فأجابتني بحرارة، ومدّت يدها. وعندما مددت يدي إليها حاولت تقبيل يدي؛ فسحبت يدي بسرعة إذ شعرت بحرج؛ لأنّ تقبيل يد الطبيب أمر غير مألوف لدينا. فلماذا أرادت المريضة العجوز التي لم أعرفها تقبيل يدي؟

عرفتني؛ لأنّ أهلها عرفوا من الممرضات بأنّي سأكون طبيبها، أمّا أنا فلم أعرفها حتّى قرأت اسمها على ملفّها الطبّيّ، فأدركت بأنّها مطوّعتي آمنة، التي كانت بمنزلة الأمّ لي. عند ذلك اقتربت من سريرها فقبّلت رأسها، واعتذرت؛ لعدم معرفتي لها، وأخبرت الفريق الطبّيّ المرافق بأنّها معلّمتي التي علّمتني القرآن أيّام طفولتي، قبل المدارس النظاميّة.

بدأت حديثها معي، معتذرة عن تصرّفها معي أيّام طفولتي، فقلت لها: لمَ تعتذري، ولم أر منك إلا الخير؟ فقالت: أخاف أن أكون قد ضربتك، وأنت طفل أعلّمك القرآن. قلت: لا، والله لم تفعلي، ولو فعلتي فلا ذنب عليك.

تلك الأحداث الاجتماعيّة والطبيّة التي رويتها في هذا المقال، تبدو الآن بدائيّة وقديمة للغاية، مقارنة بعصرنا الحديث. وسبب اهتمامي بهذه القصّة هو أنّها جزء من تاريخ التعليم والطبّ البدائيّ في الخليج، الذي أهتمّ به، والذي لا تعرفه الأجيال الجديدة الناشئة. ولأنّ الموضوع الأول الذي يهمني هو الطبّ والعلاج أيّام طفولتي، فقد كرّرت ذكر بعض طرق العلاج القديمة. وقد كتبت قصّة معلّمتي هذه مع مجموعة طريفة من قصص لمرضى عالجتهم في مستشفى الرميلة، وفي مستشفى حمد، نشرتها في مجلّة القلب الطبيّة Heart Views؛ فقد دخلت المعلّمة وحدة العناية المركّزة في مستشفى حمد، بعد سبع ساعات من آلام الصدر الذي امتدّ إلى الذراعين والظهر مع الغثيان والقيء. وأكّدت صورة صدى القلب والإنزيمات القلبيّة في الدم احتشاء عضلة القلب الحادّ (نوبة قلبيّة)؛ فعالجناها حتّى تحسّنت.

كان من الممتع أن أرى أنّ معلّمتي- وهي أكبر سنًّا من والدتي- سجّلت سنة ميلادها في الملفّ الطبّيّ سنة ١٩٤٠، بينما كان ميلادي أنا سنة ١٩٤٣. كانت أعياد الميلاد أو التقديرات العمريّة للجيل الأكبر سنّا في الخليج- ولا تزال- مجرّد تخمينات؛ فهم- في الغالب- لا يكذبون بشأن أعمارهم، ولكن لا يحسنون التقدير والحساب، كما لم يكن لديهم سجلّات أو شهادات ميلاد أو مستشفيات في ذلك الوقت. رفضت معلّمتي الخضوع لتصوير الشرايين التاجيّة بالمنظار القلبي (القثطرة) في البداية، لكنّي أقنعتها؛ فوافقت بعد شهر. ففحصتها وتبيّن أنّ عندها تضيّقات في الشرايين التاجيّة الثلاثة، لكنّها رفضت قبول التدخّل الجراحي أو بالقسطرة. ولم تتألّم كثيرًا، بل تحسّنت على العلاج الطبّيّ لفترة من الوقت. وبعد مرور عام -وبسبب آلام الصدر المتكرّرة- وافقت على اقتراحي أن نزرع لها ثلاث دعامات تاجيّة، وقد تمّت بنجاح، وبعد ذلك لم تعد تعاني من ألم في الصدر، والحمد لله.

هدية آمنة إبراهيم

وبعد سنوات من خروجها من المستشفى، صارت مقعدة في بيتها؛ فذهبت مع أمّي وأختي؛ لزيارتها في منزلها، فحدّثتني عن أيّام دراستي عندها، وأهدتني بعض الصحون القديمة المصنوعة من الصين، كانت محتفظة بها من أيّام معيريض.

أخبرتني أختي أمّ خالد مرّة ونحن نستعرض ذكريات مدرسة القرآن معًا- أنّ المعلّمة آمنة ضربتها عدّة مرّات؛ لعدم الانتباه أحيانا، ثمّ منعها زوج المعلّمة -علي عبد الله- من ضربها بعد ذلك. أمّا أنا، فقد كانت تتظاهر بأنّها ستضربني أحيانًا، ولكنّها كانت ترفع صوتها غاضبة عليّ؛ لتسمعها الحاجية خديجه جارتها، فتأتي بسرعة؛ لمنعها من ضربي. وكانت كلّ بيوت الحيّ معمولة من جريد النخل، فمن السهل سماع ما يدور في بيوت الجيران. وأعتقد أنّها كانت تفعل ذلك بالاتّفاق مع الحاجية؛ لتخويفي؛ لكي أجتهد في الحفظ أكثر، ولكنّها لم تضربني قطّ. قبل أن أنشر هذا المقال عن مطوّعتي في مجلّتنا الطبيّة، ذهبت مع أمّي وأختي كما ذكرت؛ لزيارتها- وهي مقعدة في السرير- فقبّلت رأسها، وجلست بجانب سريرها. كانت طريحة الفراش آنذاك، لكن كانت ذاكرتها سليمة. كانت سعيدة جدًّا برؤيتنا. لقد سألتها إن كانت لا تزال تتذكّر علاج ابنها بالترياك والبول. قالت نعم، إنّها فعلت ذلك، وأضافت المزيد من القصص عن الأيّام الخوالي. قالت لي: إنّ البول الذي جئت به لم يفلح في شفاء عبد الله (ابنها) من السعال الديكيّ، فاضطررت إلى استخدام علاج آخر وُصف له؛ ممّا أدّى إلى شفائه. وكان ذلك «شرب ملعقة من بول الحمار ممزوجة بملعقة ماء يوميًّا حتّى توقف السعال». وكانت مقتنعة أن بول الحمار كان علاجًا ناجعًا. ولم أشأ أن أخبرها آنذاك بأن السعال الديكي مرض فيروسي، لا يستمر عادة أكثر من أسبوع، وحصانة الجسم تشفي المريض منه، لا بول الحمار.

هدية آمنة إبراهيم

في طريق العودة في السيّارة، أخبرت والدتي أنّني سعيد؛ لأنّها لم تعالجنا بالبول الذي استخدمته معلّمتي. قالت: لم يقبل والدك ذلك العلاج، لكنّها تعرف من عائلتها دواءً أفضل للسعال الديكيّ؛ وهو «الشنيوب» السلوق (سلطعون الشاطئ، أو أبو رزقين أو سرطان البحر).

إنّني أدرك حقيقة أنّ مورارجي ديساي، رئيس وزراء الهند (١٩٧٧-١٩٧٩) كان معروفًا بدفاعه عن علاج البول. وقد نُصح بشرب بوله عندما كان في الأربعينات من عمره لعلاج البواسير. لقد فعل ذلك، ويعتقد أنّ البواسير تحسّنت لديه بسبب البول. ولذلك واصل تلك الممارسة مدى الحياة؛ فعاش ٩٩ عامًا كما يدّعون.

وفي ٢٠١٢/١٢/٣١م انتقلت معلّمتي آمنة إبراهيم (أم عبد الله) إلى رحمة الله، عن عمر يناهز ٩٠ عامًا؛ فحضرت جنازتها ودفنها بتاريخ ٢٠١٢/١/١. لم أكن قد رأيت ابنها- الذي ذكرته أعلاه لكم- منذ السنة الثانيه من عمره، الذي أحضرت له- وأنا تلميذ أمّه- مرّة أفيونًا، ومرّة بول الصبيّ؛ للتطبّب به. ولكن عرّفني عليه أحد أقاربه؛ إذْ كان يبكي بجوار قبر أمّه. كان الشعر الأشيب (باين) عليه، وهو في الخامسة والستّين من عمره. قدّمت نفسي إليه وعزّيته. فقال لي: كانت أمّي تحبّك وتعتبرك بمنزلة ابنها، وتذكرك بالخير دائمًا. رحم الله مطوّعتي آمنة إبراهيم، وغفر لها، وأسكنها فسيح جنّته.

الدراسة النظاميّة في رأس الخيمة

بعد أن ختمت القرآن عند المطوّعة آمنة إبراهيم مررت بأربع مدارس في مدينة رأس الخيمة: مدرسة أمّ البراميل، ومدرسة بيت فتلو، ومدرسة بيت المفتول، وأخيرًا المدرسة القاسميّة.

مدرسة أمّ البراميل (١٩٥١):
أُدخلت مدرسة يعلم فيها الأستاذ سلطان بن حميد بن مطر السويديّ سنة ١٩٥١ بعد أن ختمت القرآن، وأنا في الثامنة من العمر. سُمِّيَت تلك «مدرسة أمّ البراميل»؛ وهي مدرسة سبقت المدرسة النظاميّة، وكانت مبنية من الجريد ومسقّفة بقطع من البراميل، ويحيط بها سور صغير من البراميل على الرمل، حسب ذاكرتي. وهي مدرسة أسسها الشيخ حميد بن محمد القاسمي وأخيه الشيخ كايد، وكان أستاذنا عيسى من تلاميذها سابقًا.
كنّا نجلس على الرمل والقرآن أمامنا. وكان الأستاذ سلطان صاحب الخطّ الجميل يعلّمنا الخطّ، بجانب قراءة القرآن. وكان عيسى حمد النعيميّ، الذي كان تلميذًا لسطان من قبل، يقوم بدور جيّد بمساعدته في تدريسنا. فكان معنا من الطلّاب الذين أذكرهم في المدرسة: أبناء الشيوخ القواسم: سعود بن كائد، وعبد الملك بن كائد، وعبد الله بن حميد. ومن المواطنين: محمّد بن بكر، وحمد سلمان. ولا تزيد المدّة التي قضيتها أنا معهم في تلك المدرسة أكثر من ستّة أشهر؛ إذ انتقلت المدرسة بمن فيها إلى بيت صغير بقيّة تلك السنة، كما سأذكر أدناه. ولقد ذكرت الأستاذ سلطان ومدرسة أمّ البراميل، قائلًا:

فأذكر أستاذي الذي علّم الهجا — فسلطانُ طودٌ في المدارس شاهقُ
ولكنّني أنسى (البراميل) ويحها — وما رمتُ نكرانًا لأنّيَ واثقُ

ويذكر زميلي الأخ محمّد عبد الرحمن بن بكر – الذي كان يكبرني قليلًا، ومن سكّان مدينة رأس الخيمة– أنّ مدرسة أمّ البراميل عبارة عن خيمة من الجريد مغطّاة بصفيح من البراميل، قرب مسجد الجامع الكبير في رأس الخيمة؛ فإذا نزل المطر نلجأ للاحتماء بالمسجد. ودرّسنا في تلك المدرسة سلطان بن حميد وعيسى النعيميّ، ثمّ انتقلنا منها إلى بيت عبد اللطيف فتلوه كما يسمّيه الأخ محمّد عبد الرحمن بكر، أو (بيت أسد) كما يسمّيه الشيخ سعود بن كائد القاسميّ. فتلوه نسيب التاجر أسد وكلاهما عوضيّان.

بيت فتلوه (١٩٥١–١٩٥٢):
تمّ تحويل بيت فتلو إلى مدرسة لنا، سنة ١٩٥١. ويذكر البيت محمّد بكر جيّدًا، فيقول: إنّ عبد اللطيف فتلو عوضيّ، ونسيب التاجر أسد العوضيّ. وأنا أذكر ذلك البيت كما يذكره محمّد، بأنّه كان مجاور بيتي الشيخ حميد بن محمّد والشيخ كائد بن محمّد. ودرّسنا في تلك المدرسة الأستاذ سلطان بن حميد وعيسى والشيخ بن فلاو. وكان والدي يدرّس اللغة العربيّة للطلبة الأكبر منّي سنًّا. وذكر الأخ محمّد بكر استاذًا آخر في تلك المدرسة اسمه محمّد سليمان، عراقيّ، يدرّس اللغة الإنجليزيّة. أمّا أنا فلا أذكره، ولم يدرّسني. ولقد قابلت الأستاذ محمّد سليمان في زيارتي إلى رأس الخيمة بعد عقود، وأنا في الأربعين. ولم أتذكّر أنّي رأيته من قبل.

مدرسة بيت المفتول (١٩٥٣-١٩٥٤):

في سنة ١٩٥٣ تمّ نقل مدرستنا إلى بيت أكبر (بيت المفتول)، الذي كان مِلكًا للشيخ محمّد بن سالم، والد الشيخ صقر، فانتقلنا إليه مع كلّ الأساتذة. فسلطان وعيسى يدرّساننا القرآن والخطّ، والوالد يدرّس فيها اللغة العربيّة والدين للأكبر سنًّا منّي، ويدرّسنا الشيخ حميد بن فلاو الحديث، ويدرّس جمعة خان (الباكستانيّ) اللغة الإنجليزيّة. فأنا أذكر جيّدًا أستاذي جمعة خان، الذي كان يدرّسنا اللغة الإنجليزيّة من كرّاسات صغيرة مطبوعة في الهند، وأذكر أنّه يسمّي المعلم باسم هنديّ «بابوجيّ».

وقد ذكرت أساتذتي في اللاميّة، قائلًا:

وعلَّمنا خانٌ كتابَ رطينةٍ ... وسلطانُ معْ عيسى الحسابَ معَ الحلِّ[1]
وأرغمنا عيسى على حِفظِ درسِنا ... ولو كانَ جغرافيّةَ البحرِ والسهلِ
فعيسى وسلطانٌ عرفناهما معًا ... هما علَّما القرآنَ والخطَّ من قبلِ
فما أنا بالناسي ولا الناسُ قد نَسُوا ... بأنّهما كانا سراجينِ في السُّبلِ
أنارا لنا دربَ المعارفِ والنُّهى ... فلن يُنكِرَ المعروفَ من كانَ ذا عقلِ
وقد قال شوقي عن أساتذةِ الصِّبا ... بأنَّهمُ كادوا يكونونَ كالرسْلِ[2]

في تلك السنة- ١٩٥٣- أرسل الشيخ صقر بن محمّد أخاه الشيخ حميد بن محمّد ووالدي (وكان يرافق الشيخ حميد ابنه الصغير أحمد بن حميد) إلى قطر والبحرين والمملكة العربيّة السعوديّة والكويت؛ لطلب المساعدة لفتح مدارس نظاميّة حديثة، بعد أن نجح الشيخ صقر بن سلطان القاسميّ في الشارقة على الحصول على مساعدة الكويت في فتح مدرسة نظاميّة بمنهج كويتيّ. وروى لي الأخ الشيخ أحمد بن حميد قصّة تلك السفرة التي كان يرافق والده فيها وهو صبيّ صغير. اعتذرت قطر والبحرين والمملكة عن عدم فتح مدارس، ولكن وعدوا بالتبرّع الماليّ للمدرسة، غير أنّ الشيخ عبد الله السالم الصباح أمير الكويت رحّب بالطلب في الحال، وأرسل مدير المعارف عبد العزيز حسين إلى رأس الخيمة؛ لدراسة المتطلّبات. وفي السنة التالية-سنة ١٩٥٤- أرسلت الكويت الأستاذ محمود الجعفراويّ (فلسطينيّ) مع كتب المناهج الكويتيّة، ودفاترها إلى رأس الخيمة، كما سيأتي.

الشيخ بن فلاو (١٨٨٩ - ١٩٩٥):

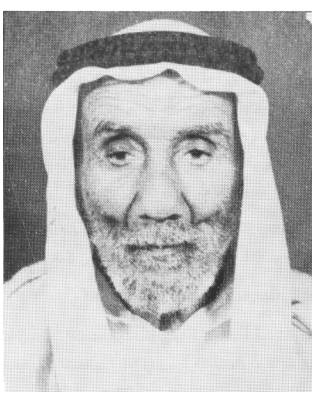
بن فلاو

أمّا شيخنا- الشيخ حميد بن أحمد بن فلاو المطروشيّ- فقد كان من مواطني إمارة عجمان، درَس العلوم الشرعيّة عند الشيخ محمّد بن عبد العزيز المانع في قطر خلال (١٩١٣-١٩٢٠)؛ فكان يدرّسنا الحديث، ويطالبنا بحفظه غيبًا، وكنّا نجلس من حوله بشكل نصف دائريّ، على الأرض المفروشة ببساط، والعصا بجانبه. ومرّة، سألني زميل يجلس خلفي سؤالًا، فأدرت ظهري قليلًا؛ لأجيب الزميل، فصار ظهري مقابل الشيخ، فأخذ العصا وشخطني بضربة مؤلمة على ظهري، قائلًا: «لا تعطِ شيخك ظهرك». وكانت تلك أوّل وآخر ضربة تلقّيتها من أستاذ في حياتي طول سنين دراستي. وفي البيت ذهبت أشتكي عند والدي على الشيخ بن فلاو الذي ضربني. فسألني الوالد: ما السبب؟ فأخبرته بما فعلت. فقال: أخطأت التصرّف، ففعل الشيخ خيرًا في تأديبك، فلا تفعل مثل ذلك مرّة أخرى. وقد كان الشيخ بن فلاو من أصحاب الوالد.

أذكر أنّ الشيخ بن فلاو كان يدرّسنا في مجلس بيت المفتول الذي حُوّل إلى فصل لدروس الشيخ، فبدأ في الدرس الأوّل يحفّظنا نسب النبيّ- صلّى الله عليه وسلّم- بهذا المطلع الذي لم أنسه حتّى اليوم: «أبوهُ عبدُ اللهِ عبدُ المطّلبْ، وهاشمٌ عبدُ منافٍ قد حُسِبْ..».

---

١. خان: الأستاذ جمعة خان، مدرّس لغة إنجليزيّة من باكسان. سلطان: الأستاذ سلطان بن حميد السويديّ. عيسى: الأستاذ عيسى النعيميّ.
٢. شوقي: الشاعر أحمد شوقي؛ إذ قال:
قم للمعلّمِ وفِّهِ التبجيلا ... كاد المعلّمُ أن يكون رسولا

وممّا ميّز درس الشيخ بن فلاو أنّه في الساعة العاشرة صباحًا، تأتيه صينيّة طعام من بيت الشيخ حميد بن محمّد القاسميّ، صاحب الوالد، فيها البلاليط والخبز المحلّى والتمر والجامي (الكامي). فكانت توضع في منتصف الغرفة، ونحن ننتظر الشيخ بفارغ الصبر يخلص الدرس حتّى نأكل معه.

بعد تلك السنة سافر الشيخ بن فلاو إلى الغارية في قطر يعلّم الأطفال، ويخطب ويؤمّ الناس في الصلاة ١٧ سنة؛ لحصوله على راتب أفضل من رأس الخيمة. ثمّ عاد إلى عجمان في آخر حياته.

وقد قلت في لاميّة الخليج عن درس بن فلاو:

ألا تذكُرا درسَ الحديثِ بغرفةٍ ... وقد درَّسَ ابن افْلاوِ عن خاتمِ الرُّسْلِ[١]
ألا تذكُرا صِينيَّةً كانَ خُبزُها ... خميرًا بجنبِ الدّبسِ أو عسلِ النَّحلِ[٢]
وتَمرٍ وكامي في صحونٍ وملَّةٍ ... نراها طوالَ الدرسِ في وسطِ الفصلِ[٣]
تَوَدُّ أيادينا تصافحُ خبزَها ... ولكنَّ إبنَ افْلاوِ يُمعنُ في المَطلِ

كان الوالد ينتقل بالعبرة (قارب) بين معيريض ورأس الخيمة؛ لتدريس ثلاث حصص في الأسبوع فقط. وكان التنقّل– للتدريس إلى مدينة رأس الخيمة– يشقّ عليه كثيرًا؛ لأنّه كان القاضي الرسميّ للبلاد، فلا بدّ أن يكون في البيت لمقابلة الخصوم صباحًا كلّ يوم؛ لذلك درّس في رأس الخيمة سنتين فقط، وطلب من الشيخ صقر إعفاءه من تلك المهمّة بعد ذلك. وقد قلت عن قدوم الوالد وقدومي للمدرسة في اللاميّة، على لسان زملائي وهم يحدّثونني:

فوالدكُمْ يا صاحِ درّسَ أوّلًا ... قواعِدَ علمِ النحوِ كالإسمِ والفعلِ
أما كانَ يأتي في الصباحِ بعَبْرةٍ ... إذا خطفَ العبّارُ سارتْ على رَسْلِ؟[٤]
كما كنتَ تأتي من مَعَيريضَ عابِرًا ... صَباحًا وظُهرًا للدروسِ مَدى الحولِ
وكم عُدتَ عبرَ الخورِ لِلبَرِّ سابِحًا ... مساءً مع الأقرانِ عَودًا إلى الأهلِ[٥]

وبعد أن توقّف الوالد عن الذهاب إلى رأس الخيمة للتدريس، صار الشيخ خالد بن صقر (ابن الحاكم)، يأتي إلى الوالد في مجلسنا في معيريض، ثلاث مرّات في الأسبوع بالعبرة؛ لتكملة دراسته للنحو.

الأستاذ محمود الجعفراويّ:

وصل الأستاذ محمود الجعفراويّ، الفلسطينيّ، رأس الخيمة سنة ١٩٥٤، وكان مبتعثا من وزارة المعارف في الكويت؛ فتولّى إدارة مدرسة بيت المفتول، وبدأ بتقييم مستوى الطلبة، الذين لم يتعلّموا إلا الخطّ والقرآن والقليل من الحساب؛ فقسمنا إلى ثلاثة فصول: أوّل، وثان، وثالث، ابتدائيّ. فالصغار وبعض المبتدئين في أوّل ابتدائي، والأكبر الذين تعلّموا القرآن ومبادئ الخطّ والحساب في ثان ابتدائي. فكنت أنا وعبد الله المزروعيّ، ومحمّد عبد الرحمن حسن، ومحمّد يوسف عبد الله، ومحمّد علي مطر، وسالم درويش، في الثاني ابتدائي. وفي الثالث ابتدائي: خالد بن صقر، وعبد الملك بن كائد، وسعود بن كائد، ومحمّد بكر، وحمد بن سلمان.

وكلّف الجعفراويّ الأستاذ عيسى بتعليمنا كتاب الجغرافيا، ولم يكن الأستاذ عيسى ولا غيره في رأس الخيمة يعرف الجغرافيا؛ فطلب منّا أن نحفظ دروس الجغرافيا من الكتاب غيبًا، كما كان يفعل معنا في حفظ القرآن، فامتثلنا لأمره، وحفظنا الكتاب كلّه، في تلك السنة.

كنّا نلبس ثيابنا العربيّة في المدرسة (الكندورة)، قبل أن يستلم الأستاذ الجعفراويّ إدارة المدرسة. وممّا يؤكّد ذلك اللباس

---

١. ابن فلاو: الشيخ حميد بن فلاو أستاذ السيرة النبويّة والحديث.
٢. خمير: نوع من أنواع الخبز الخليجيّ.
٣. الكامي: المادّة المترسّبة بعد غلي اللبن المخيض، وتؤكل مع التمر أو الرطب. ملّة: آنية صين عميقة.
٤. العبرة: قارب يعبر به الناسُ الخورَ أو الخليج الصغير (خليج). خطف: رفع الشراع (خليج). العبّار: الذي ينقل الركّاب من جهة الخور إلى أخرى.
٥. كان من معاناتنا أنّنا– أحيانًا– إذ لم نجد عبرة تنقلنا عبر الخور مساءً من مدينة رأس الخيمة حيث ندرس، إلى معيريض حيث نسكن؛ نضطرّ أن نسبح مسافة ألف مترٍ من البحر العميق رابطين كتبنا ودفاترنا على رؤوسنا، محافظين عليها من البلل حتّى نصل الجهة الأخرى من البحر.

قصّتي مع صاحبي الشيخ سعود بن كائد القاسميّ، الذي كان جالسًا على مقعده، فأحببت أن أمزح معه، فمسكت عقاله من فوق غترته مازحًا، وسحبته وأنا أركض، فصار العقال يحزّ في رقبته، وكاد يختنق، ولكنّه تمكّن من سحب العقال، وضربني به؛ لأنّه كان أكبر سنًّا وأقوى منّي، وهذا يؤكد أننا كنا نلبس اللباس الوطني قبل وصول الجعفراوي. وقد ذكرت ذلك في اللاميّة:

لبسنا طَوالَ العامِ ثوبًا وغترةً ... كما لبسَ الآباءُ في البيتِ والشغلِ
وأَذكُرُ أنّي قد سَحَبتُ تغَشْمرًا ... عقالَ سعودٍ من على الرأسِ بالختْلِ

ولكن الأستاذ محمود الجعفراويّ أرغمنا على اللباس الإفرنجيّ، كما هو متّبع في مدارس الكويت، وهو البنطلون بدلًا من الثوب (الكندورة)، والحذاء (الجوتي) بدلًا من النعال، وإطلاق شعر الرأس (تواليت) بدلًا من أن نحلقه كلّ أسبوعين. ولم يكن مجتمعنا راضيًا عن ذلك، ولكن كان الحاكم الشيخ صقر يدعم تحديث المدرسة؛ للتماشى مع النظام الكويتيّ. وكانت أمّي تعتبر اللباس الإفرنجيّ لباس النصارى، ولا يصحّ للمسلمين لبسه، ولكنّ الوالد لم يعترض على أن نخضع لنظام الكويت التي ترعى المدرسة. وقد ذكرت ذلك اللباس في اللاميّة، قائلًا:

وشرّعَ محمودٌ مناهجَ درسِنا ... نِظامًا كويتيًّا وعدَّلَ في الأصلِ
فأوّلُ ما قد سَنّ تغييرُ لُبسِنا ... كَنادِيرُنا باتتْ بِدائيّةَ الشكلِ[1]
وأدخلَ زِيًّا لم يكنْ في ديارِنا ... كما شرَّعَ (الجوتيَّ) لا طَبقةَ النعلِ[2]
تمدُّنُنا يجلوهُ فوقَ رؤوسِنا ... (تواليتُنا) المفروكُ بالعطرِ والحلِّ[3]
ألا تَذكُرا لمّا لَبِسنا ملاَبسًا ... كما يَلبَسُ الإفرنجُ غصبًا عنِ الأهلِ
وقد ردَّدتْ أمّي بأنَّ لباسَنا ... لِباسُ النصارى، لا يليقُ لذي الأصلِ[4]
لبِسنا بناطيلًا تناسلَ هُدبُها ... وكم نَصلتْ من غيرِ قصدٍ على الرجلِ[5]

ولم يعجب اللباس الإفرنجيّ أحدًا إلا زملاءنا من أبناء الشيوخ القواسم؛ فقد أغرموا به، واعتبروه تحضّرًا؛ فصاروا يلبسون البنطلون حتّى خارج المدرسة. ولم نقلّدهم– نحن أبناء المواطنين– لعدم استحساننا والأهل والمجتمع له.

١. كنادير: جمع كندورة؛ وهو اسم الثوب في ساحل عمان (الإمارات)، وتسمّى في الكويت دشداشة (خليج).
٢. الجوتيّ: الحذاء (هنديّة).
٣. تواليت: لفظة أجنبيّة أطلقت على شعر الرأس الذي يعتنى به، وقد أُطلق هذا الاسم؛ لتمييزه عن الشعر الذي كان يحلق نهائيًا كلّ بضعة أسابيع. فرَك: مسح (خليج) وفي اللغة: فرك الشيء: حكّهُ.
٤. لباس النصارى: كانت النساء في معيريض ورأس الخيمة عامّة يسمّين الأوروبيّ–مثل الإنجليزيّ– نصرانيًّا، ولم تعرف النساء آنذاك أنّ هناك عربًا ومسلمين يلبسون البنطلون، فكنّ يطلقن على كلّ من لبس البنطلون نصرانيًّا. والجدير بالذكر أنّنا لم نشاهد في أيّام طفولتنا أحدًا يلبس البنطلون إلا الإنجليز، إلى أن فتحت المدارس وبدأ العرب يفدون إلى منطقتنا؛ للتدريس.
٥. نصلَ: نصل السروال: أي سقط إلى أسفل (خليج). وفي اللغة: نَصلَ: خرجَ. ويقالُ نصل السيف من قرابه. وقد يكون الأصل اللغويّ نسلَ: انفصل عن غيره وسقط، ويقال: نسل الثوب عن الإنسان. (المعجم الوسيط)

الصورة أعلاه أخذتها بآلة تصويري، بصورة آليّة على قاعدة ثلاثيّة Tripod، في نزهة في رأس الخيمة، سنة ١٩٥٩ أثناء الإجازة الصيفيّة، يظهر فيها الشيوخ أبناء القواسم بالبانطلونات، من اليمين: محمّد بن سالم القاسميّ، ثمّ سعود بن كائد القاسميّ، ثمّ أنا، ثمّ عبد الملك بن كائد القاسميّ، ثمّ سعيد بن أحمد بن غباش، ثمّ أحمد بن حميد القاسميّ. وأمام الصورة سلطان بن محمّد القاسميّ (حاكم الشارقة الحاليّ) الذي كان مصيفًا في رأس الخيمة.

وقد قلت للشيخ أحمد القاسميّ عن ذلك اللباس، في القصيدة القاسميّة:

فإن كان قهرًا في المدارسِ لُبسُهُ ... فما كان في الرحلاتِ للعُربِ لائقُ
فهل كان رمزًا للتمدّنِ ويحنا؟ ... وهل في كناديرِ الديارِ عوائقُ[1]
فما لي وأبناءَ القواسمِ يا تُرى؟ ... فما لُبسُهم كفرٌ بربكَ خارقُ!
أما كان يكفي أنّني ما لبِستُهُ ... لأنّي مُحِبٌّ للتراثِ ووامقُ[2]

وكان الأستاذ الفلسطينيّ محمود الجعفراويّ يدرّس أغلب الدروس، وناظرًا للمدرسة، كما كان يدرّب المعلّمين: سلطان، وعيسى، على التعليم الحديث. وفي سنة ١٩٥٤ تمّ توظيف الأستاذ خميس الموسى (الفلسطينيّ) الذي كان يعمل في دبي، وكان أصغر سنًّا من الجعفراويّ، وأقرب لنا نشاطًا، وأقلّ تشدّدًا، وشكّل منّا كشّافة، ودرّبنا على الانتظام فيها، وعلّمنا اللغة الإنجليزيّة، ورافقنا في رحلات كشفيّة.

الأستاذ خميس الموسى على الكرسيّ أمامنا في الصورة وأنا وأحمد حميد القاسميّ خلفه أمام الشبّاك

١. كنادير: جمع كندورة؛ وهي الثوب، في لغة أهل الإمارات.
٢. وامق: محبّ.

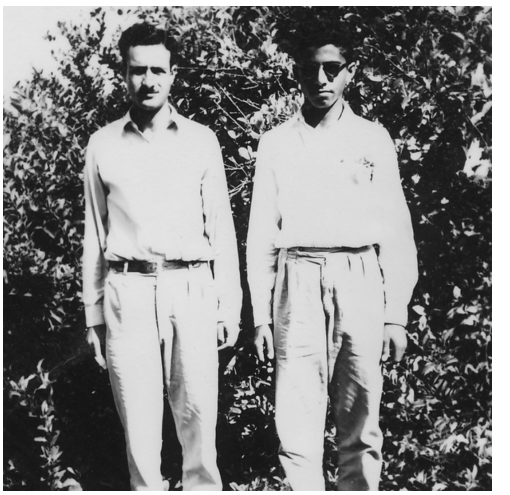

صديقي الشيخ أحمد حميد مع الأستاذ خميس

مع الأستاذ محمود الجعفراويّ في فيلكا – الكويت

وفي سنة ١٩٥٦ نقلت الكويت الأستاذ الجعفراويّ؛ للتدريس في جزيرة فيلكا الكويتيّة، واستبدلت به الأستاذ الفلسطينيّ أحمد راغب. وفي سنة ١٩٥٩ زرت أنا والشيخ سعود بن كائد وعبد الله المزروعيّ الأستاذ الجعفراويّ في جزيرة فيلكا، كما هو في الصورة أعلاه. فكان هو الذي يلبس اللباس العربيّ ذلك اليوم في فيلكا، ونحن نلبس اللباس الإفرنجيّ، الذي أرغمنا هو عليه في رأس الخيمة.

المدرسة القاسميّة:

ولا غَروَ أنَّ (القاسميّةَ) زَيّنتْ ... مفاهيمَنا بالعلمِ في زمنٍ عُطْلِ[١]
وكانت حُجيراتٌ على الرملِ شُيّدَت ... مقابلَ حِصْنِ الشيخِ في موقعِ عزْلِ[٢]
ففي الخمسِ والخمسينَ كانَ افتتاحُها ... ليجتمعَ الصفَّانِ في غرفةِ الفصلِ[٣]
فخمستُنا صفٌّ وزادوا بفصلنا ... ثمانيةً في الفصلِ جمعًا بلا فَصلِ[٤]
لهم درسُهم في كتبِهم ودروسُنا ... يفصِّلها الأستاذُ بالمنطقِ الفَصلِ[٥]
فأحمدُ في فصلي بصفٍّ مُؤخَّرٍ ... رِباعَتُهُ رَبْعي على الخيرِ والفضلِ[٦]
وأكبرُ منّا خالدٌ ورفاقُهُ ... سُعودٌ وعبدُ المَلْكِ قد رُفِّعوا قبلي[٧]
وبكرٌ وبِنْ سلمانَ في صفِّ خالدٍ ... وأنسانيَ الشيطانُ باقيةَ النُّبلِ[٨]

بنى لنا الشيخ صقر بن محمّد القاسميّ، حاكم رأس الخيمة، مدرسة من الجريد، قرب منزله في سدروه، سمّاها المدرسة القاسميّة، كما ذكرتها في اللاميّة أعلاه. وفي السنة التالية بنى خمس حجرات متجاورة من الحصى والأسمنت، ممتدّة من الشرق إلى الغرب، لا سور لها ولا بها دورات مياه. وكنّا نشرب الماء من بئر سدروه الشهير غرب المدرسة، الذي كان يبعد حوالي خمسين مترًا عنها؛ فكنّا ننزل الدلو الصغير إلى قاع البئر ونسحب به الماء فنشرب من الدلو مباشرة.

---

١. القاسميّة: أوّل مدرسة بنيت خصّيصا للتدريس، لا منزلا للسَّكن، وفتحت سنة ١٩٥٥م. عُطل: خالٍ من الحليّ والزينة.
٢. حِصن الشيخ: مقرّ الحاكم آنذاك، حوّل الآن إلى متحف.
٣. الخمس والخمسين: سنة ١٩٥٥.
٤. فصل: فاصل.
٥. فصل: قاطع.
٦. أحمد: الشيخ أحمد بن حميد القاسميّ. رباعة وربع: جمع ربيع وهو الصديق والمرافق (خليج).
٧. خالد: الشيخ خالد بن صقر القاسميّ. سعود: الشيخ سعود بن كائد القاسميّ وكيل وزارة الصحّة في الإمارات (١٩٧٦–١٩٩٨م). عبد الملك: الشيخ عبد الملك بن كائد القاسميّ.
٨. بكر: محمّد عبد الرحمن بن بكر: وزير العدل في الإمارات (١٩٧١–١٩٧٩م) بن سلمان: حمد بن عبد الله بن سلمان، وكيل وزارة الزراعة في الإمارات (١٩٧١–١٩٩٦م).

ولي مع شرب الماء من بئر سدروه قصّة طريفة ذكرتها في اللاميّة شعرًا واضحًا:

فمدرستي لا السورُ حُوّطَ حولَها ... ولا موضعٌ للماءِ فيها ولا الأكلِ
نؤُمُّ طويًّا إن ظَمِئنا لشربةٍ ... فنمتَحُ ماءَ البئرِ عُكِّرَ بالرملِ[1]
ويشربُ بدوُ الشيخِ بالدلوِ في رضًا ... مع الرملِ مخلوطًا ولم يشخلوا مثلي
أغطّي على الدلوِ الصغيرِ بغترَتي ... لأشربَ منهُ الماءَ صُفّيَ بالشخْلِ[2]
فلوَّمني مِنْ أُمَّةِ البدوِ شايبٌ: ... «تكبّرت .. أم بطْرًا» يردّدُ ذو جهلِ
يسامِحُهُ ربّي فقد كانَ جاهلًا ... يسقِّهُ من شخلي ويعجَبُ من فِعلي

وكنّا قد انتقلنا إلى المدرسة القاسميّة سنة ١٩٥٥، وبدأت فيها في الصفّ الثالث الابتدائيّ، وكان معنا في نفس الغرفة طلّاب الرابع الابتدائيّ؛ لقلّة الغرف. وخلال تلك السنة زيدت غرف جديدة إلى المدرسة، ثمّ قرّر المدير ترفيعنا إلى الرابع الابتدائي خلال نفس السنة.

المدرسة القاسميّة

أوائل الطلبة
بمدرسة القاسمية الابتدائية برأس الخيمة في اختبار
نهاية العام الدراسي: ١٩٥٦/٥٥م

مسلسل	الاسم	الصف	الشعبة	الترتيب
(١)	ـ محمد إبراهيم المزروعي	أول روضة	جـ	الأول
(٢)	ـ محمد جمعه صراي	ثاني روضة	أ	الأول
(٣)	ـ أحمد علي الشرهان	ثالث روضة	أ	الأول
(٤)	ـ حجر أحمد حجر	الأول الابتدائي	أ	الأول
(٥)	ـ خالد صقر محمد القاسمي	الثاني الابتدائي	أ	الأول
(٦)	ـ سعود كايد محمد القاسمي	الثاني الابتدائي	أ	الأول مكرر

هذه صورة من مطبوعات المعارف في رأس الخيمة، تذكّرني بأوائل الطلبة، ولكنّ التاريخ خاطئ؛ إذ كنت في الصفّ الثالث الابتدائيّ سنة ١٩٥٥، لا أوّل ابتدائيّ.

وكانت العبرات (القوارب) التي تعبر بنا الخور بين معيريض ورأس الخيمة متعبة، تعتمد على الريح لدفع الشراع، أو ندفعها بالمجاديف التي كنّا نتعاون على تحريكها. كما أنّنا كنّا نعاني من عدم قدوم العبرات عند غروب الشمس لأخذنا من رأس الخيمة إلى معيريض؛ فنضطرّ أحيانًا لوضع كتبنا على رؤوسنا ونسبح عبر الخور. ولكن بعد الانتقال إلى المدرسة القاسميّة، اشترى الشيخ صقر لنا– نحن طلبة معيريض– عبرة خاصة، تحرّكها آلة تعمل على البترول، فارتحنا كثيرًا.

كان الحصن– وهو منزل الحاكم الشيخ صقر– قريبًا من المدرسة، قد لا يبعد عنها أكثر من ١٠٠ متر تقريبًا، فكنت– أحيانًا– في أثناء فسحة العصر آخذ معي زملائي من صفّي، وأذهب معهم لمجلس الشيخ صقر، نسلّم عليه ونشرب معه الشاي، فتسرّه زيارتنا، فيحدّثنا ويحثّنا على الاجتهاد.

وفي سنة ١٩٥٧– وأنا في صفّي في حصّة اللغة الإنجليزيّة ضحًى– أرسل الشيخ صقر عسكريًّا من حرسه إلى المدرسة يطلبني أن أذهب إليه في مجلسه. ولمّا أخبر الحارس أستاذي خميس الموسى، معلّم اللغة الإنجليزيّة بطلب الشيخ لي، سمح لي بالخروج من الصفّ. كان الشيخ في مجلسه الخارجيّ، وهو عبارة عن أرضيّة من الحصى والجصّ، مرتفعة حوالي متر عن الأرض، وعليها سقف دون جدران (انظر الصورة أدناه). وكان الهواء الطلق يمرّ بسهولة فيخفّف الحرارة على الجالسين، ولم تكن في رأس الخيمة كهرباء آنذاك. فأمرني الشيخ أن أجلس جانبه. وكان عنده رجلان

١. الطويّ: البئر (خليج). نمتح: نسحب ماء البئر بالدلو، المعكّر بالرمل.
٢. الغترة: غطاء الرأس (خليج).

من الإنجليز الرسميّين، لا يعرفان العربيّة، فأمرني أن أسألهما عن حاجتهما، فأخبراني أنّهما مهندسان مكلّفان بدراسات جيولوجيّة، ويريدان أن يذهبا إلى منطقة بعيدة في جبال رأس الخيمة، لكنّهما يخافان من البدو هناك؛ لذا يطلبان أن يرسل الشيخ معهما جنديّين من حرسه؛ للحماية. فأمرني الشيخ أن أخبرهما بموافقته، وعيّن لهما حارسين، ثمّ سمح لي بالعودة إلى المدرسة. ولم يكن الشيخ خالد ابن الشيخ صقر في البلد آنذاك ليستعين به في الترجمة، ولا يريد أجنبيًّا يترجم له؛ خوفًا من أنّ الإنجليزيّين أتوه لأمر سرّي.

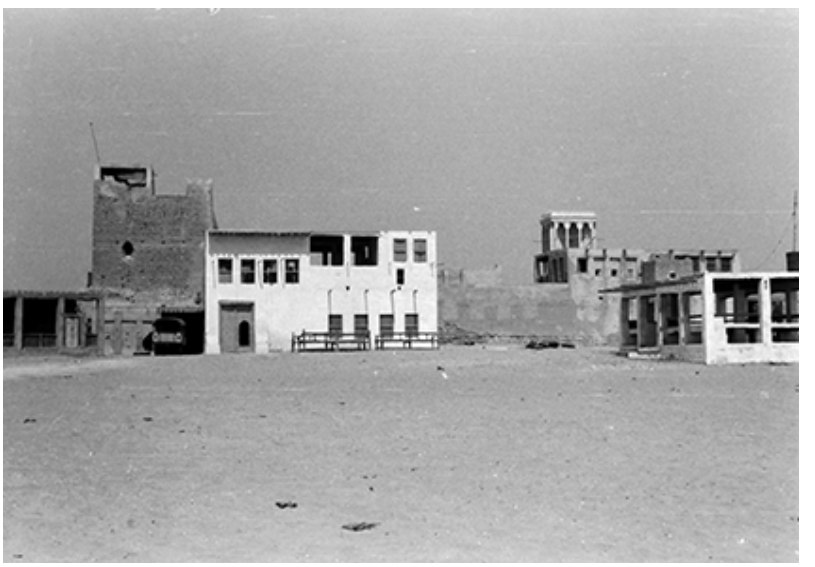

حصن الشيخ صقر على اليسار والمجلس الخارجي على يمين الصورة

فلي علاقة خاصّة بالشيخ صقر؛ لأنّي ابن القاضي الذي عيّنه للبلاد، وتعوّدت أن أذهب إلى مجلسه مع الوالد منذ طفولتي؛ لذلك حزنت وبكيت على الشيخ صقر كثيرًا لمّا توفّاه الله؛ فقد كان بمنزلة الوالد لي، ورثيته في يوم وفاته في ٢٧-١٠-٢٠١٠، وممّا قلت:

قضى الله فاستعبرتُ حزنًا على صقرٍ ... أراه بعين الأمسِ إذ كنتُ في صغري
فقدتُ الكَرى أبكي عليه بلوعةٍ ... أفكّرُ فيما كانَ منّي ومن صَقْرِ
بكيتُ على صقرٍ وقد كانَ والدًا ... بكيتُ عليه في الصباحِ وفي العصرِ
فإنْ كانَ مِنْ برٍّ بُكاءٌ ومِنْ وفا ... فلا شكَّ أنَّ الدّمعَ يا شَيخُ من برّي
فحُبّي لصقْرٍ قد نَما مُذْ طفولتي ... فقد كانَ لي عَوْنًا على العلمِ والفكرِ
تذكّرتُ أيّامَ الصّبا، ما نسِيتُها ... وفضلُكَ في التعليمِ يَبقى مَدى العُمْرِ
تواضعتَ للتلميذِ والشيخِ والفتى ... ترحّبُ بالزوّارِ بالكفِّ والثغْرِ
ولا حول لي إلا رثاؤُكَ والدًا ... حننتَ عليَّ من صبايَ ومن صِغري
فلستُ أوفّي في رِثائي جَميلَكمْ ... ولو صُغتُ أشعاري عقودًا من الدُّرّ
فشكري على مَرِّ الزمانِ أصوغُهُ ... بلا منَّةٍ منّي على المَدحِ والشكرِ

أنا والقواسم:

لقد ذكرت مرارًا علاقاتي الاجتماعية مع أبناء وآباء الشيوخ القواسم في رأس الخيمة، في ذكريات طفولتي، وخَصَصْتُهم بقصيدة منفردة سمّيتها (القصيدة القاسمية). ولن أسردها هنا، لكن سأقتبس من مقدمتها بعض الفقرات التي تبين سبب الصداقة والمحبة معهم، ولماذا كتبتُ تلك القصيدة.

لقد قضيت صيف سنة ٢٠٠٤ مع عائلتي في مونترو السويسرية، وتمتعت بالمشي يوميًا بعد الغروب على شاطئ البحيرة الهادئة، مع أخي وصديق طفولتي وصباي الشيخ أحمد بن حميد القاسمي (أبي طارق). وفي مايو ٢٠٠٥ ذهبت

إلى المدينة السّويسريّة نفسها لقضاء إجازة قصيرة برفقة أبي طارق، ولكن تفاجأت أن صاحبي للأسف لم يكن هناك! وتوقعت أن يصل قريبًا. فمشيت حول البحيرة وحيدًا صامتًا، في الطريق نفسه الذي كنت أمشي فيه مع صاحبي في السنة السابقة. ثم عدت إلى الفندق المُطلّ على البحيرة، وجلستُ في الشرفة، مستنشقًا نسيم الصباح العليل المنعش، أنظر إلى البحيرة الواسعة، والطيور الساكنة، والطريق الشائق الذي كنت أطرقه مع أبي طارق. فأطرقت سارحًا في الذكريات، متمعّنًا بجمال البحيرة وهدوئها، ثم انطلقت أطرق باب الشعر، فانفتح لي على مصراعيه، وسحبني إلى بساتين الأشعار الفسيحة، فحلّقت مع أطيارها وأطيافها فوق الأشجار والربا، حالمًا بأيام الطفولة والصبا:

كأنَّ نسيمَ الصبحِ هيَّجَ خاطري فشوَّقني للأمسِ والأمسُ شائقُ

وبينما أنا غارق في جوّ القصيدة، أترنّم وأجول، رن هاتفي المحمول، وإذا بأبي طارق على الخط من رأس الخيمة يودُّ أن يَطْمئنَّ عليّ، فطمأنته على نفسي، لكنه لم يطمئني على نفسه، حيث اشتكى لي من وعكة صحية. فلما عدت إلى القصيدة أواصل ما بدأت، وجدت نفسي أسير في جوٍّ أقلَّ مرحًا وأكثرَ جدية مما كتبت. كما شعرت برغبة في سرد تراثنا وذكر تاريخنا السابق، الذي كان مشتركًا بيني وبين أبي طارق، منذ أن كنّا في المدرسة أطفالًا. ثم جرّني الشعر إلى الحديث عن أبي طارق وعائلته من القواسم.

لا أذكر متى كان أولُ لقاء بيني وبين أحمد، ولكني أذكر والده الشيخ حميد منذ كنت في السادسة من العمر، حيث كان ووالدي يتبادلان الزيارات، لأنّهما صديقان حميمان جدًّا كما ذكرت لأبي طارق في القصيدة:

وكان الذي ما بين شيخي وشيخِكمْ من الودِّ لم يجهلهُ ماضٍ ولاحقُ

ولقد ذكر لي الوالد مرارًا أنّ الشيخ حميد كان أعزّ مَن صادقَ وأكرمَ مَن عرف. ومن كرمه أنه لما أعجب بقصيدة الوالد (اللآلئ السَّنيّة) أصرّ على طباعتها على نفقته في مكة، حيث كانا في الحج معًا سنة ١٩٥٠، ودفع ثلاثين روبية لطباعتها في كُتيّب، وقد كان ذلك مبلغًا كبيرًا آنذاك.

وكان والدي يأخذني معه لزيارة الشيخ حميد مذ كنت في السادسة من العمر. ولازلت حتى الآن أتذكر تفاصيل تلك الزيارات وكأنها حدثت أمس.

كنا نقضي يومين أو ثلاثة أيام أحيانًا عند الشيخ حميد في منزله الصّيفي في العريبي. كانت الجلسة المسائية والمبيت والإفطار قبل شروق الشمس على الدِّكّة أمام منزله. ثم ينتقل الشيخ حميد والوالد والحاضرون إلى ظُلّة حصن الشيخ محمد بن سالم شرق بيت الشيخ حميد. وكان الخصوم يأتون للوالد للحكم في قضاياهم في تلك الظُّلّة بحضور الشيخ حميد ووالده الشيخ محمد. وتأتي من بيت الشيخ محمد فُوّالة الضحى فيها البلاليط والخبز المُحلّى والحلوى والرُّطب والكامي (أكلة خليجية من اللبن المخيض). وعندما تتقلّص ظُلّة الحصن بعد الضحى ينتقل الجالسون إلى المسجد شمال بيت الشيخ حميد. وفي المسجد تكون الصلاة والغداء ونوم القيلولة. وكنت أشاهد الخفافيش في سُبات ساكنةً مُعلّقة من أرجلها في سقف ذلك المسجد عندما أستلقي على ظهري للنوم بعد الظهر.

كنت أجلس ساكتًا خلال تلك الجلسات الطويلة أستمع لأحاديثهم، وأحيانًا يسألني (الشِّيبان) بودٍّ أسئلة مناسبة لسنّي. ولقد كانت لتلك الجلسات وجلسات مجلس والدي آثار على نشأتي وتفكيري، فكسبت منها معارفَ وخبرة، فهي مدرستي الأولى كما ذكرتُ في لامية الخليج:

وأسمعُ من رُوَّادِ مجلسِ والدي أحاديثَ آدابٍ وأخبارَ مَنْ حولي
فأكسِبُ منها خِبْرةً ومعارفًا تُوسِّعُ آفاقي وتُنْقِصُ مِنْ جَهْلي
فتَرْسَخُ في ذِهْني مكارمُ أمَّتي وأخلاقُ آبائي وأفكارُ مَنْ قَبْلي
فمدرَسَتي الأولى مجالسُ والدي أدينُ لها بالعلمِ والحلمِ والفَضْلِ

ولم أكن أتملَّل من جلسات (الشياب) الشِّيبَان، والمبيت على الدِّكّة قرب بيت الشيخ حميد، ولم يضايقني إلا إصرار والدي على إيقاظي لصلاة الفجر مبكّرًا جدًّا. ويضطر أحيانًا أن يصبَّ ماءً باردًا على وجهي إذا لم يتمكن من إيقاظي بالنداء. وكان الشيخ حميد ينقذني من ذلك الإزعاج إذا وصل أثناء محاولات الوالد إيقاظي. فكان يقول للوالد: «أترك حجر ينام فهو صغير، وسنوقظه للصلاة بعد أن نعود من المسجد». لذلك رسخ في ذهني عطف الشيخ حميد عليّ منذ الطفولة.

ولما بلغت الثامنة من العمر أرسلني والدي إلى مدرسة أم البراميل في رأس الخيمة سنة ١٩٥١ بعد أن ختمتُ القرآن في معيريض. وسُمِّيت كذلك لأنها عبارة عن عرش بظُلّة مصنوعة من ألواح البراميل. وكان أحمد قد أُرسل إلى نفس المدرسة أيضًا. والواضح أن والدي والشيخ حميد قد اتفقا على إرسالنا لتلك المدرسة. ولم نبق فيها إلا أشهر قليلة، حيث افتتحت مدرسة رسمية فانتقلنا إليها. لذلك لا أنا ولا أحمد يذكر الكثير عن مدرسة أم البراميل. ولكني أذكر أن الأستاذين سلطان بن حميد وعيسى النعيمي قد درّساني الخط والحساب فيها.

وفي مدرسة بيت فتلوه سنة ١٩٥١ بدأت الصداقة الحقيقية بيني وبين أحمد، وكلانا في الثامنة من العمر آنذاك، ثم نَمَت وتطوّرت في المدرسة القاسمية أكثر. ولأن أحمد تأخر عن الالتحاق بالمدرسة النظامية سنة، كنت في مرحلة دراسية متقدمة بسنة واحدة على المرحلة الدراسية لأحمد، ولكنا كنا في غرفة الفصل نفسها لقلة الغرف. كان مُدرِّس واحد يدرّس المرحلتين معًا. مع ذلك اعترفنا بأحمد كزعيم للفصل، فكان الذي يوزع أدوار اللاعبين لكرة القدم، بل كان الحكم أحيانًا. وكان نصيبي دائمًا حراسة الملعب. كما كان يقترح رحلات الصف ويَنْشَط في الإعداد لها. وكانت علاقاتنا مع الأساتذة علاقات ودية. فكانوا يشاركوننا في الألعاب والرحلات.

والجدير بالذكر أن للشيخ حميد ووالدي اهتمامًا بالتعليم، فكانا قد ذهبا إلى الكويت مندوبَين من الحاكم الشيخ صقر سنة ١٩٥٢ طالبَيْن المساعدةَ في دعم التعليم في رأس الخيمة بالكتب والمدرّسين. فنجحا في المهمّة. وكان الشيخ حميد قد أخذ أصغر أبنائه وهو أحمد معه في تلك الرحلة، لمحبته وعطفه عليه، حيث ماتت والدته وهو صغير.

ومن ذكرياتي عن كرم أحمد أنه دعاني سنة ١٩٥٦ لأكل طعام جديد علينا، لم أسمع به في رأس الخيمة من قبل، يحضّره طبّاخ هندي في مطعم جديد به ثلّاجة تعمل بالكيروسين. وكان اسم الطعام (آيس كريم) وهو عبارة عن حليب وسكّر. فما كان مجمّدًا بل سائلًا مثل الشوربة الباردة نشربه بالملعقة. لذلك تعجبت لما رأيت الآيس كريم الحقيقي المجمّد بعد ذلك في الكويت.

وهكذا خرجت القصيدة القاسمية هذه في النهاية وثيقة تاريخية يستأنس بها أبنائي وأبناء أبي طارق، لا للعلاقة بيني وبين أبي طارق فحسب، ولكن لعلاقتي الشخصية وعلاقة والدي القديمة بالقواسم في رأس الخيمة، كبارهم وصغارهم، كما ذكرت في القصيدة وهوامشها. فكلما نظرت في ألبوم صوري الشخصية القديمة أو سرَحت في ذكريات الصبا والدراسة الابتدائية والمتوسطة، برزت لي صور زملائي وأصدقائي، وفيهم الكثير من أبناء القواسم. وإن طَرَيْتُ لبعض الأصدقاء ذكريات طفولتي وصباي، فلا يمكن تجنب ذكر القواسم، لأنهم جزء من البيئة التي نشأت فيها –كلمة «طريت» هذه، من طرى يطري، خليجية بحتة تعني ذكرت وليست (مدحت) كما هي في الفصحى– ومن أطرف ما تعرضت له في ذكري للقواسم، أنني كنت جالسًا أثناء دراستي في جامعة كولورادو الأمريكية مع بعض الطلبة العرب سنة ١٩٦٨، نستعرض قصصًا عن كرم العرب، وخاصة كرم حاتم الطائي قبل الإسلام. فأخبرت الحاضرين بالقصة عن الشيخ حميد بن محمد القاسمي وثوبه الذي أهداه لشخص طلبه منه للعيد، فدخل البيت وخلع ثوبه وأعطاه لابنه أحمد لكي يسلمه للطّالب، ثم جلس كالمحبوس داخل بيته، ينتظر حتى يُغسل له ثوبه الثاني ويجفف حيث إنه ليس من الأغنياء، ولا يملك من الثياب إلا القليل، حيث قلت مخاطبًا أبا طارق:

أما جاءَه شيخٌ ليطلبَ ثوبهُ وقال: «أُريدُ الآنَ فالعيدُ لاحقُ»
فأرسلكمْ بالثوبِ للشيخِ مسرعًا؟ فشيخُكمُ يا صاحِ للبخلِ ماحقُ

فعلق على تلك القصة التي ذكرتها طالب عربيّ ماركسيّ من الفرع الصينيّ المتشدد، زارنا في كولورادو مع بعض الأصدقاء، لا يعرف شيئًا عن الخليج وأهله، قائلًا لي: «ألا تستحي أن تذكر بإعجاب الشيوخ البرجوازيين والإقطاعيين الذي أذلوا الطبقة البروليتارية ونهبوها، ومصّوا دماء الشعوب، واستغلوا العمال والفقراء». فسكتُ وأنا أفكر في واقع الشيخ حميد المسكين وفيما تخيله الطالب الماركسي، ولم أغضب منه، مع حبّي للشيخ حميد الحليم العطوف الكريم كما رأيته وجالسته وعرفته، وشاهدت إعانته للفقراء والمساكين وهو قليل المال. ولكني قلت للطالب الماركسي: «اترك الأفكار النظرية التي تقرؤها في كتبك الصينية، وتعال إلى الخليج الصيف القادم، وسآخذك لزيارة الشيخ حميد لتقتنع بأن سيرته جزء من التراث العربي الذي يجب أن نفخر به». فضحك وقال: «لا، شكرًا».

لقد كان الشعراء قديمًا يتكسبون بمدح الحكام وكبار رجالات الدولة بما ليس فيهم، نفاقًا ورياءً، ورغبة في جوائزهم. وسردي لسيرة الشيخ حميد بن محمد القاسمي الحميدة لا يمكن أن تكون رياءً ونفاقًا. وأنا حريص على أن أتجنب شعر المدح. فلم أكتب مدحًا حتى الآن إلا لزعيمين وطنيَّين مناضلَين يستحقان المدح، هما الإفريقي نلسون مانديلّا والزعيم

الكوبي فيديل كاسترو. فإن كنت قد كتبت عن بعض الآباء من القواسم في هذه القصيدة، فإني كنت أسرد الواقع التاريخي الذي رأيته آنذاك، شاكرًا لهم الاهتمام بي كأحد أبنائهم أثناء طفولتي وصباي. فكتبت ما عرفت وشاهدت وما سمعت من الوقائع والأحداث أثناء طفولتي في رأس الخيمة، وما أخبرني به والدي. لكن إن كان ما كتبته عن الآباء الماضين من القواسم يدخل في باب الإطراء والمدح، فليكُن، لأن ما ذكرته هو الواقع الذي عرفته. وقد انتقل أولئك الآباءُ الذين ذكرتهم إلى رحمة الله، فمديحهم إذًا رثاء يستحقونه.

أعود الآن لتكملة الحديث عن المدرسة القاسمية:
في المدرسة القاسميّة، كان لنا مدرّس بريطانيّ –وهو السيّد هندكتن (الخبير الزراعيّ) المنتدب من الحكومة البريطانيّة مستشارًا زراعيًّا لرأس الخيمة– يعلّمنا مرّة في الأسبوع مبادئ الزراعة؛ فكان يأخذنا في سيّارة جيب إلى منطقة «الصالحيّة» الزراعيّة، فزرعنا بذورًا أتانا بها من لندن، ومنها الجزر والحمّص (النخي). ولقد استغربنا من لون الجزر لمّا حصدناه، إذ كان أصفر اللون، ولم نكن رأينا أو سمعنا بأنّ هناك جزرًا غير الأزرق الذي تعوّدنا عليه في رأس الخيمة.

وجاءَ خبيرٌ أجنبيٌّ بدارِنا يُعلِّمُنا زَرْعَ الحبوبِ مع البقلِ
ويفهَمُ ما نَحكي فيكتمُ فهمَهُ ليسمعَ ما كنّا نقولُ من الهَزلِ

(وتذكّرت الآن؛ أنّه في سنة ١٩٦٨– بعد ١٣ سنة من دروس الزراعة– توقّفت في لندن في طريق عودتي من الدوحة إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وأثناء ركوبي القطار Subway في لندن، جلست على المقعد، وكان مقابلي رجل بريطانيّ طويل، ينظر إليّ بتمعّن، ثمّ سألني: من أيّ بلد أنت؟ فقلت: من قطر، ولكن؛ لأنّ شكله يشابه أستاذ الزراعة في رأس الخيمة سابقًا، أضفت قائلًا: أنا أصلًا كنت في رأس الخيمة، ودرست في المدرسة القاسميّة؛ فصافحني، وقال: أنت من تلاميذي الذين علمّتهم الزراعة في القاسميّة. قلت: نعم، بالتأكيد أذكر ذلك. ولكن، توقّف القطار في المحطّة التي أريدها فودّعته ونزلت، ولم أره بعد ذلك.
وفي سنة ١٩٥٦–بعد أن استرجَعَت الكويت الأستاذ الجعفراويّ– أرسلت إلى رأس الخيمة الأستاذ أحمد راغب (الفلسطينيّ) مديرًا للمدرسة. وقد أعجب الأستاذ راغب اجتهادي ودرجاتي في الامتحانات؛ فصار يهتمّ بي كثيرًا ويحترمني. وفي نهاية تلك السنة الدراسيّة لسنة ١٩٥٧ اختارني؛ لإلقاء الخطبة في حفلة التخرّج، نيابة عن جميع طلبة المدرسة القاسميّة، بحضور الشيخ صقر بن محمّد، والشيوخ والأعيان وأولياء الطلبة، بعد أن كتبها لي ودرّبني على إلقائها. وذكرت ذلك، قائلًا:

وحفَّظني الأستاذُ راغِبُ خُطبةً خَطَبتُ بها يومًا فأفصحتُ في الحفلِ

وكان فيها مناداة لتحرير فلسطين، والحريّة للعرب، وشجب الاستعمار المهيمن على بلاد العرب. وأذكر هذه الجملة في خطبتي: «الاستعمار دودة تنخر في جسم الأمّة العربيّة». وقام الشيخ صقر بعد الحفل وصافحني، فخورًا بخطبتي.

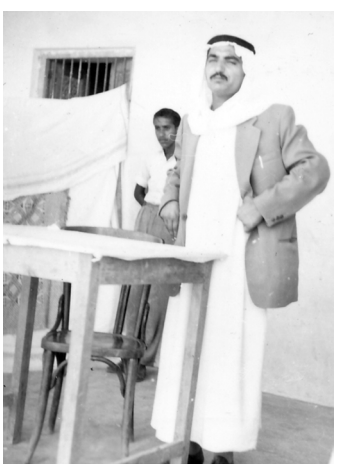
الأستاذ أحمد راغب يقدّمني للجمهور

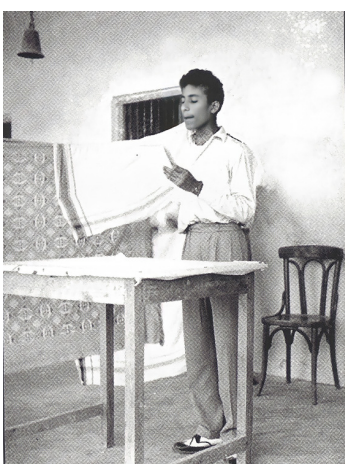
حجر يلقي الكلمة

وفي المدرسة القاسميّة استدعاني مرّةً الشيخ صقر، المهتمّ جدّا بتعليمنا، وعيّنني مسؤولًا عن طلبة معيريض. وكانت مسؤوليّتي تكمن في أنّه: إذا غاب أحد تلاميذ معيريض، دون عذر مقنع لي، أرسل مطارزيّا (عسكريّا) إلى بيته؛ ليحمله إلى المدرسة قهرًا. وكان قد عيّن لي المطارزيّ عليّ بن أحمد بن كلبان؛ لتنفيذ تعليماتي. (وكنّا نلقّبه آنذاك «بابا درياه»؛ أي مارد البحر الخرافي؛ لطوله). وقد أرسلته مرّة؛ لينقل الشيخ فاهم بن سلطان القاسميّ، ابن عمّ الشيخ صقر، قهرًا إلى المدرسة، عندما غاب؛ لأنّي اعتبرته متميرضًا. أمّا الأخ فاهم، فقال لي بعد ذلك بسنين بأنّي كنت مخطئًا؛ إذ إنّه كان محمومًا بالفعل ذلك اليوم، لا متميرضًا. وقد ذكرت تلك القصّة في اللاميّة، قائلًا:

وما إنْ دخلتُ (القاسميَّةَ) قِيلَ لي ... توجَّهْ إلى الشيخ الأمير بلا مَطْلِ
فسرتُ إليه خائفًا متردّدًا ... فبدّدَ خوفي بالثّناءِ على عقلي
وأخبرني صقرٌ بأنّي موكَّلٌ ... على فتيةِ امْعيريضَ بالحقّ والعَدلِ[1]
فإن غابَ منهمْ طالبٌ مُتَمارِضٌ ... بعثتُ عليًّا يحملُ النجلَ للفصلِ[2]
فأوّلُ من جابَ المطارزيُّ فاهِمًا ... إلى الآنَ لا ينسى ويُكثِرُ من عذلي[3]

ومن نشاطاتنا في المدرسة القاسميّة التي شاركت فيها– تحت توجيه وإشراف الأستاذ خميس يوسف الموسى– المسرحيّات التاريخيّة والأدبيّة. وقلت في اللاميّة:

وشاركتُ في التمثيل لمّا أرادني ... خميسٌ لحِفظِ الشعرِ حِفظًا به أُبلي

وكانت مسرحيّة «معن بن زائدة والأعرابيّ الشاعر» أهمّهما؛ قمت أنا بدور الأعرابيّ الشاعر وأخي وزميلي الشيخ أحمد بن حميد القاسميّ بدور معن بن زائدة الشيبانيّ، سنة ١٩٥٦م.

مسرحيّة معن: الشيخ أحمد صاحب العباية السوداء، وأنا أمامه صاحب اللحية.

وقصّة المسرحيّة من الطرائف الأدبيّة التي تستحقّ الذكر؛ وملخّصها أنّ معن بن زائدة– الذي كان من شعراء الكوفة في العراق، وتولّى الإمارة في اليمن وغيرها أيّام العباسيّين– اشتهر بالشجاعة والحلم والكرم؛ لا يغيظ أحدًا، ولا أحدٌ يغيظه، فقال أحد الشعراء: سأقوم: أنا أغيظه لكم، ولو كان قلبه من حجر، فراهنوه على مائة بعير إن أغاظه أخذها، وإن لم يغظه دفع مثلها. فأتى الشاعر (وأنا أمثّله) معنًا، (ويمثّله الشيخ أحمد) وهو جالسٌ مع قومه، فتخطّى الصفوف، حتّى

١. صقر: سموّ الشيخ صقر بن محمّد القاسميّ حاكم رأس الخيمة.
٢. عليّ: عليّ بن أحمد بن كلبان. وكان الأطفال يسمّونه (بابا درياه) وهو اسم خرافيّ لمارد البحر.
٣. جاب: أحضر (خليج). المطارزيّ: الشرطيّ أو العسكريّ (خليج)، وفي اللغة: طَرِزَ: تأنّق في ملبسه. وطرّزَ الثوبَ: وشّاه وزخرفه (المعجم الوسيط). فقد تكون كلمة المطارزيّ الخليجيّة منسوبة إلى الملابس المطرّزة التي كان يلبسها الشرطة قديمًا. فاهم: الشيخ فاهم بن سلطان القاسميّ الأمين العام لمجلس التعاون الخليجيّ (١٩٩٣ – ١٩٩٦).

وقف بين يديه، ودار الحوار التالي:

حجر: أتذكرُ إذ لِحافُك جِلدُ شاةٍ وإذ نعلاك من جلدِ البعير
أحمد: نعم، أذكره، ولا أنساه.
حجر: فسبحان الذي أعطاك ملكًا وعلّمك الجلوسَ على السريرِ
أحمد: ذاك بحمد الله.
حجر: فلستُ مسلِّمًا لو عشت دهرًا على معنٍ بتسليم الأميرِ
أحمد: إذن، والله لا أبالي بك.
حجر: ولا آتي بلادًا أنت فيها ولو جار الزمانُ على الفقيرِ
أحمد: أفتعلم لكَ موضعًا تختفي فيه؟
حجر: فمر لي يا بن زائدةٍ بشيءٍ فإنّي قد عزمتُ على المسيرِ
أحمد: يا غلام، أعطه ألف درهم.
حجر: قليلٌ ما مننتَ به وإني لأطمع منك بالشيء الكثيرِ
أحمد: زده يا غلام، ألف درهم.
حجر: فثلِّثْ إذ ملكت الملك عفوًا بلا علمٍ ولا جاهٍ خطيرِ
أحمد: يا غلام، زده ألف درهم.
حجر: فأنت المرء ليس له كفاءٌ وما لكَ في البريّة من نظيرِ
أحمد: يا غلام، زده ألفي درهم.
حجر: ملكت الجودَ والأفضال جمعًا فبذل يديك كالبحرِ الغزيرِ
أحمد: يا غلام، ضاعف له الحسنات.

فأخذها الشاعر وانصرف، ثمّ ندم على فعله، فرجع إلى معن ومدحه، واعتذر له بأنّ الحامل له على هجوه المائة بعير التي صار الرهن عليها في نظير إغاظته له، فأمر له بمائة بعير يدفعها في نظير الرهن وبمائة بعير أخرى لنفسه (كما تقول كتب الأدب)، فأخذها وانصرف.

كانت الدراسة في رأس الخيمة أيّام الصبا، حافلة بالموادّ التعليميّة والتربوية المختلفة، وبأساتذة أفاضل، أحببناهم واعتبرناهم بمنزلة الآباء والأصدقاء، وخاصة سلطان وعيسى، فأحبّونا وشجّعونا على الجهد والتحصيل. وفي (القصيدة القاسميّة) الموجّهة لأخي وزميلي في المدرسة الشيخ أحمد بن حميد القاسميّ عن الأساتذة الذين علّمونا في المدرسة، قائلًا:

فكان بها عيسى وخانٌ وأحمدٌ ومحمودُ محمودٌ، وسلطانُ سابقُ[١]
ودرّسَ إبن فْلاوِ سيرةَ أحمدٍ نبيّ الهدى، بالخيرِ والحقّ ناطقُ[٢]
ودرّسنا علم الحديث وشرحه وحفّظنا والحفظ للطفل لائقُ
فأحسنُ ما في فصله أكلةُ الضحى محلّى وخبزٌ يفتح النفسَ رائقُ[٣]
وتمرٌ و(جامي) في ملالٍ كبيرةٍ نتوق لها والشيخ بالدرس غارقُ[٤]

---

١. عيسى: الأستاذ عيسى النعيميّ. خان: السيّد جمعة خان أستاذ باكستانيّ، درّس اللغة الإنجليزيّة. وأحمد: الأستاذ الفلسطينيّ أحمد راغب. محمود: الأستاذ الفلسطينيّ محمود الجعفراويّ. وسلطان: الأستاذ سلطان بن حميد.
٢. ابن فلاو: الشيخ حميد بن فلاو.
٣. محلّى: اسم خبز خليجيّ رقيق محلّى بالسكّر.
٤. جامي: كامي (تنطق الكاف جيمًا أعجميّة؛ أي التاء مع الشين) وهو طعام خليجيّ مستخرج من المادّة المترسّبة من غلي اللبن المخيض. ملال: جمع مَلّة وهي وعاء صينيّ عميق.

وفي سنة ١٩٥٧ بعث الشيخ صقر الطلبة الذين أكملوا الثاني متوسّطة قبلنا، إلى الكويت؛ للدراسة في الصفّ الثالث متوسّطة؛ لتعذّر فتح صفّ لهم في رأس الخيمة. أمّا أنا فكنت قد أكملت الأولى متوسّطة آنذاك، وكنت الأوّل في صفّي دائما.

نموذج ١٧

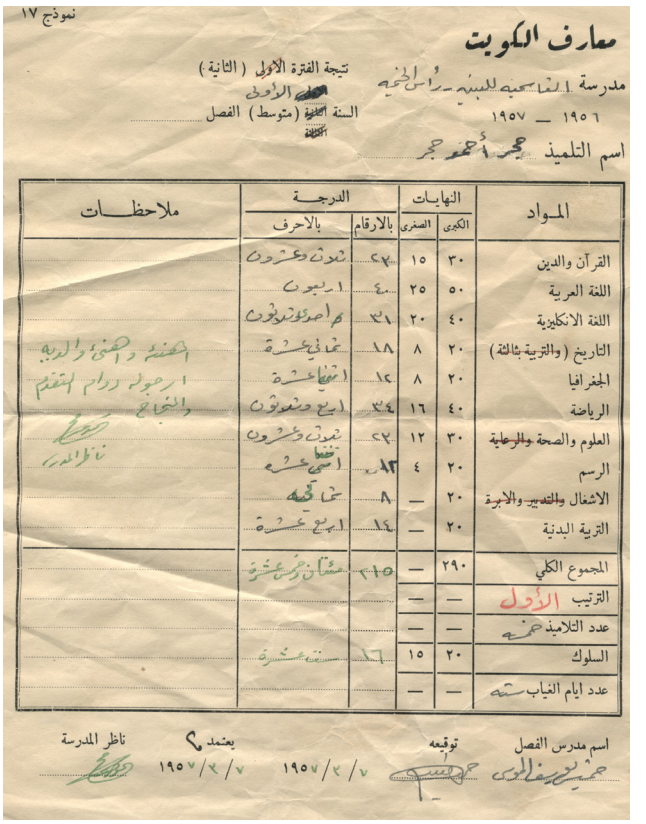

معارف الكويت

مدرسة القاسمية للبنين - رأس الخيمة

١٩٥٦ ـ ١٩٥٧

اسم التلميذ [illegible]

نتيجة الفترة الأولى (الثانية)

السنة الأولى (متوسط) الفصل

المـواد	النهايات: الكبرى	النهايات: الصغرى	الدرجة: بالارقام	الدرجة: بالاحرف	ملاحظات
القرآن والدين	٣٠	١٥	٢٢	ثنتان وعشرون	
اللغة العربية	٥٠	٢٥	٤٠	اربعون	
اللغة الانكليزية	٤٠	٢٠	٣١	واحد وثلاثون	
التاريخ (والتربية بثالثة)	٢٠	٨	١٨	ثماني عشرة	
الجغرافيا	٢٠	٨	١٢	اثنتا عشرة	
الرياضة	٤٠	١٦	٣٤	اربع وثلاثون	
العلوم والصحة والرعاية	٣٠	١٢	٢٢	ثنتان وعشرون	
الرسم	٢٠	٤	١٣	[illegible]	
الاشغال والتدبير والابرة	٢٠	—	٨	ثمانية	
التربية البدنية	٢٠	—	١٤	اربع عشرة	
المجموع الكلي	٢٩٠	—	٢١٥	مئتان وخمس عشرة	
الترتيب الأول	—	—			
عدد التلاميذ خمسة	—	—			
السلوك	٢٠	١٥	١٦	ست عشرة	
عدد ايام الغياب ستة	—	—			

ملاحظات: [illegible] نرجو له دوام التقدم والنجاح — ناظر المدرسة

اسم مدرس الفصل [illegible] توقيعه ٧/٢/١٩٥٧ يعتمد ٧/٢/١٩٥٧ ناظر المدرسة

شهادتي للأولى متوسّطة من المدرسة القاسميّة ١٩٥٧

صورتي في أوّل جواز سفر لي ١٩٥٨

ولمّا أنهيت أنا مع زملائي الثانية متوسّطة في السنة التالية ١٩٥٨ ابتعثنا إلى الكويت؛ لعدم توفّر مرحلة الثالثة متوسّطة، وكان معي عبد الله سالم المزروعيّ ومحمود عبد الرحمن؛ فسكنا معًا في بيت واحد ووضعنا في صفّ واحد.

ماء الشرب في معيريض

الخَرس

سأتحدّث هنا عن ماء الشرب، لا ماء البحر؛ فالماء عصب الحياة، وقال الله- سبحانه- في سورة الأنبياء: ((وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)).

كانت الحياة في رأس الخيمة أيّام طفولتي بدائيّة؛ فلم تكن فيها تمديدات الأنابيب للماء، ولا للمجاري، ولم نسمع بالكهرباء آنذاك.

لم تكن في معيريض آبار مياه عذبة؛ فالماء يجلب لها من منطقة النخيل شرقها؛ لذلك كان الماء العذب المجلوب من بعيد عزيزًا في معيريض المتاخمة للبحر؛ فالماء يجلب إليها من بئر واحدة في منطقة الحديبة، الواقعة في سهول النخيل شرقًا. وتبعد الحديبة حوالي ٢,٥-٣ كيلو مترا عن معيريض.

والمقتدرون من السكّان يشترونه من بائعي الماء، كائد البلوشي أو عيسى البلوشي، اللذين يجلبانه على حميرهما، في صفائح معدنيّة، كنّا نستورد فيها الدهن الهولنديّ؛ وهو من سمن البقر. وكان سعر صفيحة الماء ربع روبيّة. وكنّا نشتري لبيتنا ٤ صفائح يوميًّا، تخزّن في خرس كبير وحبّ (وهما آنيتان من الفخّار). أمّا العائلات الفقيرة فتنقل نساؤها الماء من نفس بئر الحديبة في الجِحَل الخزفيّة (جمع جحلة وهي الجرّة) على رؤوسهنّ للشرب.

نظافة ماء الشرب:

الحِبّ

لقد شاهدت بئر الحديبة مرّة وأنا صبيّ صغير مرافق للحاجية (خديجة علي حسن) كما سأذكر أدناه. كانت الحمير تقف قرب حافّة البئر في الحديبة، ويسحب صاحب الحمار الماء بالدلو، ويملأ بها الصفائح. وأحيانًا يبول الحمار قرب فوّهة البئر فيتسرّب البول في الطين، ولا شكّ في أنّه يصل إلى الماء، ولكن لأنّ بول الإنسان والحيوان السليم يخلو من الجراثيم، فلا ينقل الأمراض. كما أنّ كثرة نزف الماء وتجديده يقلّل تلوّثه.

والجدير بالذكر أنّ هناك من الناس في معيريض من يعالج الأطفال المصابين بالسعال الديكيّ ببول الحمير. أمّا تلوّث الماء بالطين والرمل فكان مألوفًا لدينا. وإذا لاحظ السقّاي- صاحب الحمار- وجود ثقب في صفيحة، يتسرّب منه الماء، يأخذ حفنة من الطين ويضعها في قاع الصفيحة؛ للحدّ من تسرّب الماء. ولقد رأيت ذلك مرارًا. ولكن لأنّ الماء يخزّن في آنية كبيرة، فالطين والرمل يترسّبان إلى قاع الإناء، ويغرف الناس الماء من سطحه دون طين. ولكن تتكوّن الديدان في ماء الخرس أو فنطاس السفينة (خزّان الماء)، وقد تعوّدنا على رؤيتها في الجلاص (الكأس المعدنيّ)، وهو أمر لا مفرّ منه آنذاك. وكنت أضع غترتي على فوّهة الكأس قبل أن يلامس شفتي؛ لترشيح

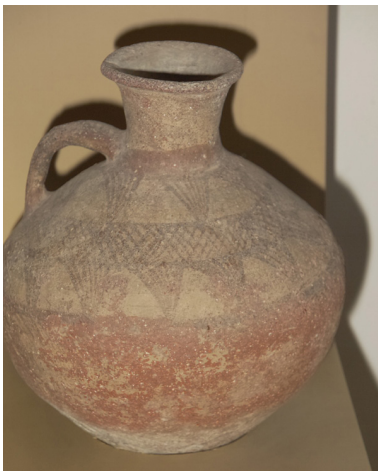
يحلة

الماء، ومنع الديدان من الدخول في فمي، وبعد الشرب أزيل الديدان والشوائب من غترتي بنفضها. ولقد كان لي مرّة احتكاك برجل بادي (من بداة الجبال) من جنود الحاكم الشيخ صقر؛ جاء ليشرب من (بئر سدروه) الرملي الشهير، المجاور لمدرستي، المدرسة القاسميّة، وشاهدني وأنا أضع غترتي على حافّة الدلو للشرب؛ لأنّ الماء فيه رمل كثير، فنهرني، وقال: «أتتكبّر على نعمة الله؟ هذا باطل». ثمّ أخذ الدلو منّي وسحب لنفسه ماء، وشربه، مع ما فيه من شوائب، بفخر واعتزاز.

لقد أخذتني مرّة الحاجية خديجة علي حسن، عندما كنت صبيًّا، أتعلّم القرآن عند جارتها معلّمتي، آمنة إبراهيم، مرافقًا لها إلى الحديبة عصرًا؛ لجلب الماء بجرّة (يحلة) على رأسها (كما ذكرت).

وكنت في السادسة من العمر، شديد التعلّق بالحاجية، التي كانت بمنزلة المربّية لي، وكانت تحميني من غضب المعلّمة، ولا تسمح لها بضربي. رافقتها فشاهدتها تجلب الماء من البئر، وشاهدت الحمير قرب البئر وهي تحمّل بالماء. وأذكر وأنا أمشي جانبها في طريق العودة، أن طلبت منّي أن أعدها بتنفيذ أمنية لها كما ذكرت سابقًا. فقلت: ما هي؟ قالت: «تقرأ الفاتحة على قبري عندما أموت». فوعدتها بذلك كما ذكرت سابقًا. وشاءت الأقدار أن تموت الحاجية بعد حوالي ٣٠ سنة من ذلك اليوم في الدوحة؛ فحضرت الجنازة، وتأخّرت عند القبر بعد أن ذهب المشيّعون، وقرأت الفاتحة على رأسها مرّتين، فوفيت بوعدي. ومع حزني على موتها، إلا أنّي كنت مرتاحًا؛ لأنّي تمكّنت من تلبية طلبها الذي وعدتها بتنفيذه عند ما كنت طفلًا.

أواني الماء:

يخزّن ماء الشرب في المنزل في أوان فخّاريّة؛ فالخزّان الرئيسيّ هو الخرس (الزير الكبير) الذي لا ينضح منه الماء فلا يبرّد، ولكن يبرّد في الحِبّ الذي ينضح منه الماء المثبّت في مكان معيّن، كما يبرّد الماء في الشربة الصغيرة (البقّ).

الخَرس

الشربة

الحِبّ

والشربة يسهل حملها إلى المجلس أو إلى مكان التجمّع. ويوضع جلاص (كأس) واحد من المعدن أو طاسة معدنيّة مع الشربة، فيشرب بها الجميع دون أن تغسل بين شارب وآخر؛ وذلك مثل فنجان القهوة الذي يدور من شارب إلى آخر دون غسل. وإذا شاء صاحب الدار غسل الفناجين وضع جميع الفناجين في طاسة بها ماء إلى منتصفها؛ وهو إجراء ما زال يتّبعه البعض حتّى اليوم، منذ عصر كان الماء فيه قليلًا. وهكذا فجراثيم فنجان ملوّث تنتقل وتلوّث بقيّة الفناجين. وقد تكون العادات القديمة في غسل الفناجين كلّها في طاسة، واحدة لشحّ موارد الماء، ثمّ استمرّت كعادة اجتماعيّة عندما توفّر الماء. ولكن هذه العادة القديمة تتلاشى وتنقرض حاليًّا؛ بسبب انتشار الوعي الصحّي حديثًا عند الناس. وكلمة جلاس الخليجيّة أصلها الإنجليزيّ (Glass)، وننطقها في الخليج مثل نطقها الإنجليزيّ تمامًا، ومع أنّ معنى اللفظة الإنجليزيّة Glass باللغة العربيّة هي «زجاج»، إلا أنّنا نطلق لفظة جلاص على الكأس المعدنيّ، وغالبًا

ما نسمّي المعمول من الزجاج: كأسًا».
أمّا الآن فلا نسمع كلمة جلاس في الخليج إلا من كبار السنّ؛ لأنّ الكأسات المعدنيّة اختفت، فلا نراها إلا في المتاحف.
أمّا في السفن فكان البحّارة يستعملون «القَبْعَة»؛ لشرب الماء من الفنطاس (خزّان الماء في السفينة). والقبعة هي جوزة الهند.

الجلاص (الكأس المعدنيّ)

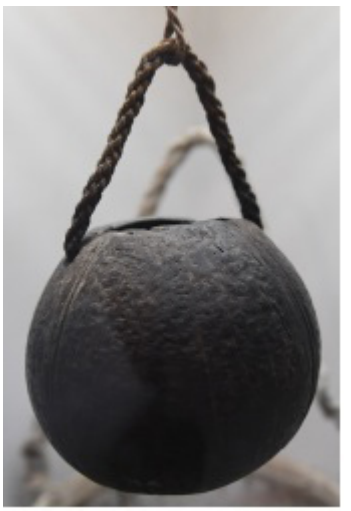

القبعة

ماء السبيل:
وأذكر أنّ بعض فاعلي الخير، كانوا ينشئون مظلّة صغيرة، وجدارًا صغيرًا من سعف النخل على طريق الناس بين منطقتين، ويضعون تحت الظلّ حِبًّا؛ لشرب الماء، صدقةً جارية، فيتعهّدون بملئهِ بالماء يوميًّا، ويغطّون الحبّ بغطاء خشبيّ، وفوق الغطاء طاسة أو قوطيّ فارغ (علبة) تحلّ محلّ الكأس. فكلّ ظمآن ماشٍ في الطريق، يتوقّف تحت الظلّ؛ ليروي ظمأه، فيغمس ذلك الإناء في ماء الحبّ، ويشرب منه، ويتركه لمن يأتي بعده. ولقد شربت– مثل غيري– من مثل ذلك الحبّ، وذلك القوطيّ، طفلًا وصبيًّا، ولم أكن أعرف أنّ ذلك مخالف لأصول النظافة والصّحّة، وأنّه ينقل الأمراض للشاربين. ومن سوء الحظّ أنّ بعض المارّة الذين يتوقّفون للشرب، يستغلّون خصوصيّة ذلك الظلّ والجدار الساتر، فيتبوّلون قرب الحبّ، ويسبّبون روائح كريهة.

أذكر أنّي وصديقي الشيخ سعود بن كائد القاسميّ –رحمه الله– كنّا خارجين من دبي في سيّارة جيب –لاند روفر– سنة ١٩٥٩ صيفًا، فعطشنا قبل دخول الشارع العام إلى رأس الخيمة، ولم تكن الشوارع معبّدة آنذاك، فتوقّفنا عند ظلّة حب، وشربنا بنفس الأسلوب الذي ذكرته أعلاه. وكانت رائحة المكان كريهة جدًّا، سبّبت لنا الغثيان؛ ممّا جعل الشيخ سعود يصوغ قصيدة هجاء نبطيّة، وهو يسوق السيّارة، إلى رأس الخيمة للتسلية، فعلقت تلك الأبيات في ذاكرتي. وممّا قال فيها:

أسمّيك يا دبي..
طِفسة مَهب شي..
.. فرجات بيلان..

معنى المفردات من اللهجة المحلّيّة:
أسمّيك: أتعجب منك.
طفسة: قذرة.
مهب شي: لستِ بشيء.
فرجات: جمع فريج.
بيلان: أبوال.
زواع: قذف.

وزواع..
بزخّ شيخك
بضربه بشي..
ما أردي حطبة..
ما أدري مصراع..

وفكرة ماء السبيل ما زالت تعيش في الخليج حتّى اليوم، لكن تطوّرت من حبٍّ صغير إلى أنابيب ماء من داخل المنازل موصلة برّادات كهربائيّة جميلة توضع خارج سور المنزل لشرب المارة.

براد ماء سبيل في قطر

البراد على الطريق خارج المنزل

آبار البيوت:

وبسبب شحّ الماء العذب، لا يخلو بيت في رأس الخيمة من بئر. ومع أنّ المدينة مجاورة للبحر، فإنّ ماء البئر المتوافر على عمق مترين أو ثلاثة، أقلّ ملوحة من ماء البحر؛ لأنّه مختلط بماء الأمطار المتسرّبة. وماء البئر المنزليّ في المدن الساحليّة يطلق عليه (الخَريج). وهو لا يصلح للشرب؛ لملوحته، ولكن يستعمل للغسيل والاستحمام والوضوء. وكنت أستحمّ به، واقفًا قرب البئر، في غير الشتاء البارد.

معيريض والبحر

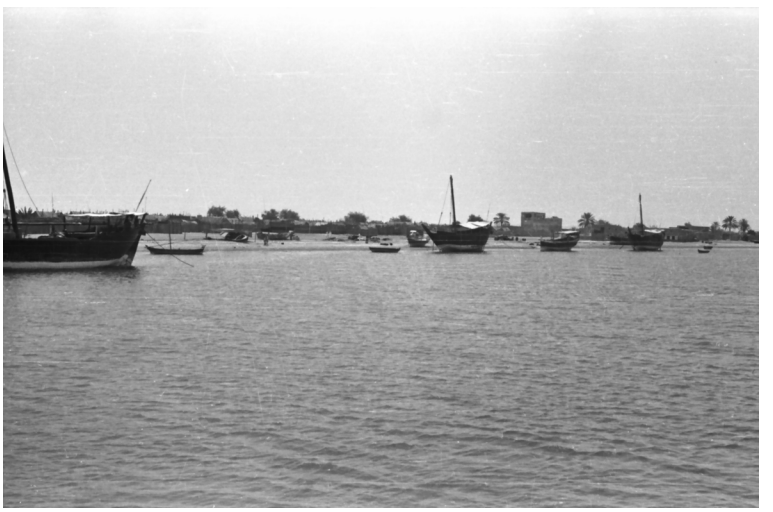

صورة تاريخية التقطتها لمعيريض من قارب يحركه بالمجداف زميل طفولتي، يوسف يعقوب عيسى سنة ١٩٥٩ كما هو واضح أدناه

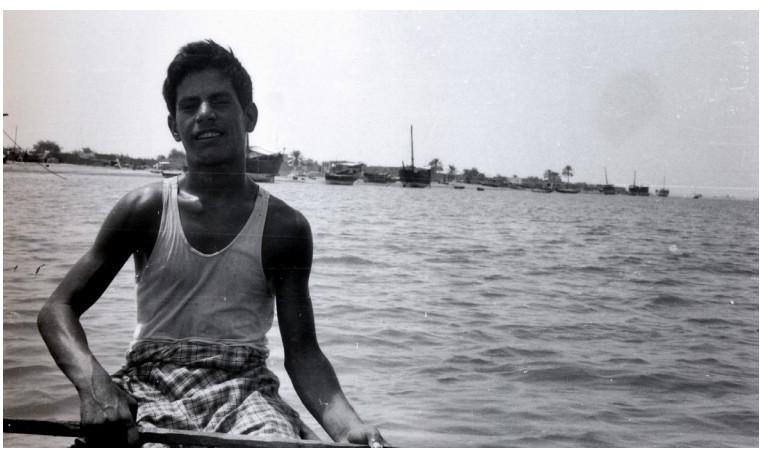

إذا كانت معيريض جسمًا فالبحر روحها، فما نشأتْ ولا نمتْ إلا برفد البحر وخيراته، فلا حياة لمعيريض دون بحرها؛ لذلك لمّا وقع الطوفان سنة ١٩٥٧ وانكسر «ظهر» معيريض، وتلاشى خورها، تحوّلت معيريض إلى خراب، وهجرها الكثير من أهلها. ثمّ دفنت الحكومة منطقة خورها؛ لبناء بيوت استثماريّة، وفنادق كبيرة فوق الأرض المدفونة، فانطمست معالمها وآثارها مثل بيتنا. فلم يبق في معيريض إلا ما علق في ذاكرتي، وذاكرة أبنائها من جيلي، كما سأرويه في هذه الصفحات.

حنيني إلى معيريض ثابت في القلب، ومن أهم مأ أحنُّ إليه في معيرض بحرها القديم الذي سبحت به صغيرًا ولعبت فيه مع أقراني كثيرًا. وقد عبرت عن ذلك الحنين قائلًا:

حننتُ إلى امعيريضَ أشكو من الهَجرِ ... أُراعي نجومَ الليلِ همًّا إلى الفجرِ
فأسكُبُ من عينيَّ دمعًا على الثرى ... تساقطَ كالأمطارِ أو وابلِ القطْرِ
فما رخُصت يومًا قطيراتُ أدمعي ... وأحسبُها أغلى من الجوهرِ البحري
وإن شتَّتَ الدهرُ المشتِّتُ جمعَنا ... فما بَعُدت منا القلوبُ عن الذكرِ
وتشتدُّ أشواقي لذكرِ أحبَّتي ... وعهدِ الصِّبا واللهوِ في صُحبةِ البدرِ
ومجلِسُنا فخرُ الديارِ ومَعْلَمٌ ... بهِ سُلَّ سَيفُ العدلِ في ذلكَ الدهرِ
فأشهرَ سَيفَ العدلِ صقرٌ وأحمدُ ... فلمْ تخشَ شاةٌ في الديارِ من النمرِ[1]
ذكرتكِ يا امعريضُ في البردِ والحرّ ... ومنزلَنا في الرملِ يرنو إلى البحرِ
يزورُ جِدارَ البيتِ في السقيِ موجُهُ ... وينأى عن الجُدرانِ غربًا مع الثبرِ[2]
تعوّدتُ أن لقاهُ قُربَ حوينا ... إذا فاضَ فوقَ السّيفِ في حملةِ الشهرِ[3]
على السّيفِ قد عجَّت محامِلُ في الضحى ... وحمْلاتُها البيضاء تُشرقُ كالزهرِ[4]
عجِبتُ لسيفِ الخَورِ، والزهرُ حولَهُ ... أتلكَ رمالُ البحرِ أم شاطئُ النهرِ؟
تذكرتُ ذاكَ السّيفَ، والبحرُ ساكِنٌ ... أراهُ من الشبّاكِ في الصبحِ والعصرِ
وأسمَعُهُ في الليلِ يعزِفُ لحنَهُ ... فأغفو على الألحانِ أحلَمُ للفجرِ

خور معيريض:

كان خور معيريض الذي يفصل معيريض عن مدينة رأس الخيمة خفيف الموج، غنيّا بالأسماك، عرضه يقرب من كيلومترًا ونصفًا، وعمقه قد يصل إلى تسعة أمتار في بعض المناطق؛ لذلك تمرّ فيه السفن الخليجيّة الكبيرة؛ فكان ملجأً آمنًا، ومرفأً للسفن، ساهم في ازدهار التجارة البحريّة لرأس الخيمة؛ وهو نفس الخور الذي كانت سفن جلفار قديمًا تنطلق منه؛ فهو خور طويل، قد يزيد عن عشرة كيلومترات، يبدأ من منطقة المطاف شمالاً، مارًّا بمعيريض من جهة غربها إلى شرق مدينة رأس الخيمة، بل يتعدّاها قليلًا إلى الجنوب.

بالنسبة لنا– أبناء معيريض– كان الخور حيويًّا؛ إذ كنّا نعبر بالعبرة ذلك الخور من معيريض إلى رأس الخيمة ذهابًا وإيابًا مرّتين في اليوم؛ نذهب إلى المدرسة في مدينة رأس الخيمة صباحًا، ونعود للغداء ظهرًا، ثمّ نرجع إلى المدرسة بعد الظهر، وأخيرًا العودة إلى معيريض قبل غروب الشمس. فكانت العبرة تنقلنا من جنوب معيريض إلى شمال رأس الخيمة (فريج العلي)، ومنه نمشي إلى المدرسة. ولكنّ الطوفان أزال ذلك الفريج تمامًا.

عندما وقع الطوفان في رأس الخيمة في ١٩٥٧/٣/٦ كنت طالبًا في المدرسة القاسميّة في رأس الخيمة، ومن هواة التصوير، وعندي صورٌ لمعيريض والخور توثّق وجود حاجز رمليّ يفصل خور معيريض عن الخليج العربيّ، قبل أن يزيله الطوفان؛ وهو من معالم معيريض القديمة قبل الطوفان؛ إذ كان بمنزلة لسانٍ رمليّ، يطلق عليه (الظهَر)، يفصل خور معيريض عن البحر الكبير غربًا (الخليج العربيّ)، كما هو واضح في الصورة أدناه، لا يزيد عرضه عن مئة متر، في بعض أجزائه، ويمتدّ إلى منطقة المطاف، شمال معيريض؛ وهي منطقة عبور السفن من بحر الخليج إلى خور

---

١. صقر: الحاكم الشيخ صقر بن محمد القاسمي. أحمد: الوالد، قاضي رأس الخيمة.
٢. السقي: مد البحر. الثبر: الجزر.
٣. حوينا: سور منزلنا. حملة الشهر: ارتفاع المد لدرجة أكبر في آخر الشهر العربي.
٤. المحامل: السفن الخشبية. حملات السفن: جمع حملة وهي الجز المنحني من أسفل السفينة إلى أعلى (مثل بطن المرأة الحامل)، وكان الجزء المغمور في البحر يصبغ بالودك: وهو الشحم مع النورة، لذلك وصفتها كالزهرة البيضاء وهي فوق السيف الرملي صيفًا.

معيريض. وتسميته بالظهر مناسبة؛ لأنّه كان يحمي الخور ومدينة معيريض من البحر الكبير، وكأنّه ظهرها المنيع.

هذه الصورة قبل الطوفان التقطتها من أمام باب بيتنا المطلّ على البحر؛ فأمام بابنا على اليسار بوم جارنا الحاجّ إسماعيل عيسى، وعلى رملة السيف أمامه حوطة جدران من سعف النخل، تسمّى «عمارة الحاجّ إسماعيل» تحتوي الأغراض الخاصّة ببوم الحاجّ إسماعيل. ثمّ خليج معيريض الذي قضينا أيّامًا من عمرنا نسبح فيه. في الجهة الثانية من الخور شريط رمليّ عرضه حوالي ٥٠ مترًا (الرمل واضح، أبيض اللون) وبعد شريط الرمل يظهر من بحر الخليج شريط داكن، ثمّ بعد ذلك السماء.

وهذه صورة من منطقة أخرى من معيريض، نرى فيها العشش الساحليّة، ثمّ السيف والقوارب عليه، ثمّ خور معيريض، وبعده شريط الرمل الأبيض من ظهر معيريض، وإذا تمعنت ودقّقت النظر على اليسار ترى شريطًا صغيرًا من بحر الخليج العربي بعد الرمال لبيضاء.

كما أنّي تجوّلت بعد الطوفان في الساحل الغربيّ من فريج العلي وشاهدت الدمار؛ إذْ هدم الطوفان البيوت وأوصل بحر الخليج إلى بحر معيريض، كما هو واضح أدناه. والبيوت البعيدة وخلفها الجبال في الصورة هي معيريض.

أمّا هذه الصورة التي أخذتها من غرب مدينة رأس الخيمة، وأفتخر باحتفاظي بها، وهي تبين آثار البيوت التي هدمها البحر. أمّا المنظر الأسطواني على السيف، فقد كان «طويًّا»؛ أي بئرًا داخل أحد البيوت؛ فلمّا جرف البحر البيت وأزال الرمل، بقيت تلك الأسطوانة الأسمنتيّة التي كان الطويّ مطويًّا بها، واقفة في الهواء، تشهد أنّ أرضيّة البيت المهدوم كانت بذلك الارتفاع.

وقعت كارثة الطوفان في ١٥ شعبان، يوم ١٩٥٧/٣/٦، ويقال: إن طوفان رأس الخيمة تزامن مع زلزال في إيران؛ فلعلّ ذلك الزلزال سبب الطوفان (التسونامي Tsunami) الذي جعل البحر يرتفع ويزحف داخل البيوت الساحليّة في رأس الخيمة ومعيريض، وأغرق فريج العلي في مدينة رأس الخيمة وشرّد أهلها، وتلاشى ذلك الظهر الذي كان يحمي معيريض؛ وبذلك فقدت معيريض خورها ومرفأ سفنها، بل اضطرّ أغلب أهلها إلى هجرها إلى المناطق المرتفعة شرقًا. لم تكن عندي لدمار الطوفان صورة جويّة، ولكن وصلني مقطع فيديو نشره السيّد محمّد عبد الله فارس من أبناء رأس الخيمة، وفيه صورة فوتوغرافيّة واضحة، تبيّن خور معيريض وعلاقته بمعيريض ورأس الخيمة. فنقلتها عنه، كما هو واضح أدناه.

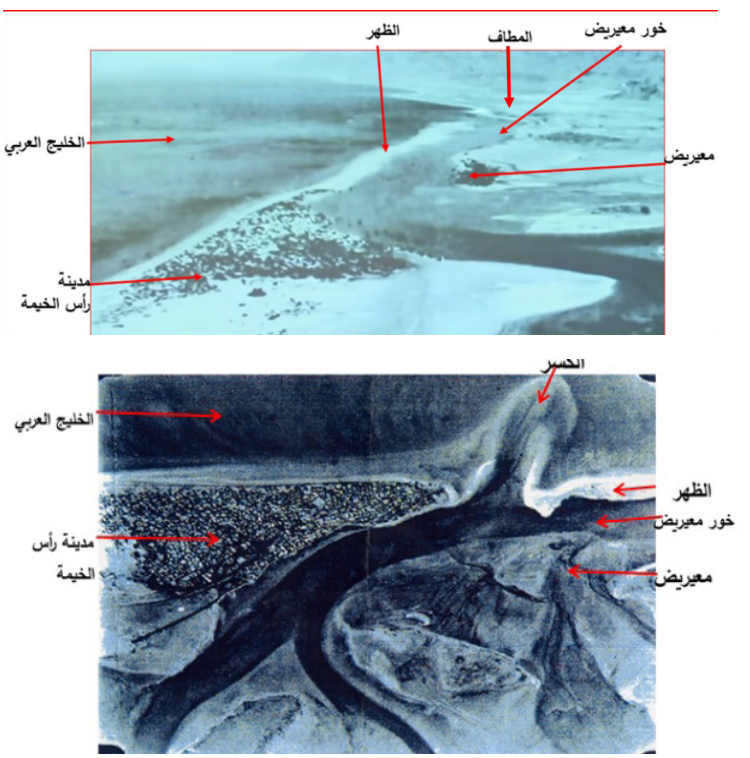

قرية معيريض ومدينة رأس الخيمة قبل وبعد الطوفان

كم تأسّفت على ذاك الخور، وقلت في قصيدة (ذكريات الصبا):

كم كنتُ في امعيريضَ أغفو في المَسا والرملُ فيها مَرقدي ووسادي
والبحرُ فيها ساكنٌ بوداعةٍ والفُلْكُ فيه رائحٌ أو غادِ
الخورُ فيها مثلُ دَجلةَ واهبًا روحًا كما قد قيل عن بغدادِ
وأزالَ ظهرَ الخورِ طوفانٌ طغى أمواجُهُ للعينِ كالأطوادِ
فالخورُ لمعيريضَ كان فؤادَها فغدت بلا روحٍ بدونِ فؤادِ

وقلت في القصيدة القاسميّة:

فلمّا تمادى البحرُ يقضمُ ظهرَها بلَيلٍ كأنَّ البحرَ للبرّ سارقُ
جَلا أغلبُ الأهليـنَ عنها بغصّةٍ إلى الشرقِ أو سيحٍ فتلكَ حقائقُ
فظهرُ مَعَيْريضٍ كسدٍّ لمأربٍ إذا زالَ ذاكَ السدُّ فألماءُ ماحقُ

نشاطاتنا البحريّة:

وكان لخور معيريض أهمّيّة كبيرة لنا أيّام الصبا؛ لتعدّد نشاطاتنا فيه؛ فقد كان الكثير من نشاطاتنا وألعابنا في البحر، وعلى سيفه:

أ) السباحة والألعاب البحريّة: كنّا نسبح في البحر يوميًّا قبل الظهر وبعده، إلا إذا كنّا في المدرسة أو في فصل الشتاء؛ لبرودة الماء. كان الكثير من ألعابنا في البحر وعلى سيفه. نتسابق– سباحة أحيانًا– للوصول إلى القوارب الصغيرة الراسية في البحر. ومن ألعابنا البحريّة الغوص بحصاة رآها جميع اللاعبين، بقدر حجم كفّ اليد أو أكبر قليلًا، يخبّئها اللاعب في قاع البحر، ثمّ يغوص الآخرون؛ للبحث عنها، فإن فشلوا ولم يخرجها إلا صاحبها فهو الفائز.

ب) الحِدَاق (صيد السمك بالخيط): كنّا نستعمل الخيط المغزول من الكتّان عندما كنّا صبيانًا بين السنة الثامنة والعاشرة من العمر، قبل أن تصل رأس الخيمة الخيوط البلاستيكيّة (النايلون) للصيد. فكنّا نحدق صغارًا من على السيف، نرمي الخيط ببلده (قطعة رصاصيّة تربط في الخيط) وميادير (صنّاراته) بعيدًا في عمق البحر. ونمسك الخيط، ونحن جالسون أو واقفون على السيف، في انتظار النبر (سحب السمكة للخيط) حتّى نسحب صيدنا من البحر. وإذا ارتفع الماء عند السقي (المدّ) وغمر السيف، توقّفنا عن الصيد. وقد وصفت سقي البحر في اللاميّة، قائلًا:

ونَحْدُقُ فوق السيفِ والسقيُ قادِمٌ فيَحْبو إلى أقدامِنا البحرُ كالطِّفلِ

إذا سمح الكبار لنا– نحن الأطفال– أن نحدق في سفينة طارحة (راسية) في البحر العميق، تمكّنا من صيد سمك أكبر حجمًا، ممّا في البحر الرّق (قليل العمق)، وقد قلت في اللاميّة:

ونَحدِقُ في صدرِ السفينةِ ساعةً إذا البحرُ غطّى السيفَ في فترةِ الحَمْلِ[1]

وكان اليم (الطُعم) إمّا دود البحر أو الشنيوب (سرطان البحر البرمائيّ، وفي قطر يسمّى أبو رزقين). فكنّا نصيد الدود عندما يثبر البحر، وتظهر الأرض العشبيّة، فنجده في غشاء أنبوبيّ غليظ، معظمه في بطن الأرض، لا يظهر منه إلا قدر بوصة في الهواء. فنسرع إليه؛ لقطع الجزء الظاهر بمحش (آلة حادّة لقطع الحشيش) قبل أن ينسحب إلى داخل الأرض في أنبوبته.

---

١. فترة الحَمْل: فترة منتصف الشهر القمريّ أو آخره؛ إذ يبلغ مدّ البحر (السقي) في هاتين الفترتين أعلاه (خليج).

وقد قلت في اللاميّة:

إذا الثَّبرُ عـرّى التِّبرَ قُـمْنا نَحِشُّـه ... ونَقْطِفُ دودَ البـحرِ مَـكرًا وبالخَتْلِ[1]
ونمكُرُ بالشَنْـيوبِ فـي قـاعِ جُحرِهِ ... ونصــطادُه بالزَّجْـلِ طـورًا وبالغَزْلِ[2]
وكم صِدْتُ بالشَنْيوبِ والدودِ بِضعةً ... من البَدْحِ والنَقْرُورِ والشِّعْمِ والسِّكْلِ[3]

المحش

أمّا صيد الشنيوب فهو أصعب وأخطر؛ لأنّه يعضّ؛ فالشناييب (جمع شنيوب) برمائيّة، تبني جُحورها على اليابسة (السيف) وتتغذّى داخل البحر. فلبناء الجُحر يحفر الشنيوب في الرمل، ويجمع الرمل المستخرج على شكل برج جانب الجُحر؛ فنستدلّ بمكان الجحر برؤية البرج الرمليّ. فللتأكّد من وجود الحيوان داخل الجحر كنّا ننفخ في أنبوبة متّصلة بنفّاخة (تفاخة) Baloon، ثمّ نجعل الهواء يخرج منها مارًّا بالأنبوبة، محدثًا صوتًا موسيقيًّا قرب فوّهة الجحر، في حين نضع أذنًا على الجحر؛ لسماع الشنيوب؛ فإن كان الشنيوب في الجحر خاف من ذلك الصوت فشرع يحفر في الرمل؛ لتعميق الجحر كي يهرب، فنسمع صوت الحفر؛ عندها ندخل يدًا ونوسع الجحر حتى نلامس أرجل الشنيوب، فنمسكها ونسحبه خارج الجحر. والشنيوب لا يستطيع أن يعضّ وهو داخل الجحر الضيّق؛ لعدم وجود فراغ كاف لتحريك المقراض، ولكنّه يعضّ حالما يكون خارج الجحر، فنمسكه من ظهره باحتراس ونكسر مقرافه الكبير. وللإعداد لاستعماله في الصّنارة، تعلّمنا من الأجيال السابقة أن نمسك بأرجله كلّها ونحرّك طرفها الأخير بحركة دائريّة، فتنخلع الأرجل بصورة آليّة من أصولها؛ فانخلاع الرجل بهذه الطريقة والتضحية بها خاصّة من خواصّ النجاة لهذا الحيوان؛ فإذا هاجمته سمكة أو حيوان مفترس في البحر ومسك برجل من أرجله الثماني، فكّها وتخلّى عنها؛ ليتخلّص من المفترس، ليهرب ناجيًا.

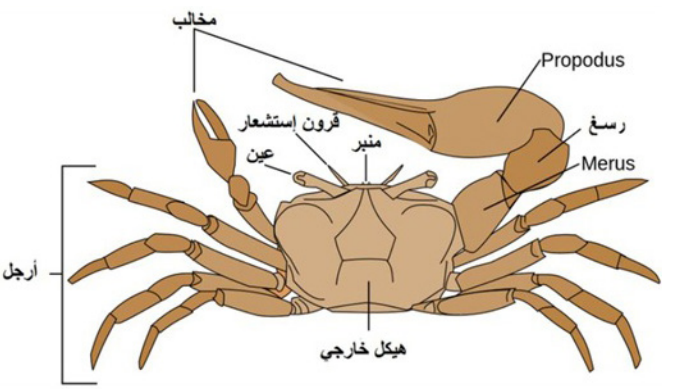

١. نحشُّ: نقطع كما يُقطع الحشيش.
٢. الشنيوب (لغة أهل الإمارات وبعض مناطق عُمان): سرطان البحر، حيوان برمائيّ يحفر جحره في رمل سيف البحر، والجمع شناييب. الغَزْل: الشبكة المغزولة.
٣. البدح والنقرور والشعم والسكل: أسماء أسماك خليجيّة.

ت) استعمال القوارب: استعملنا القوارب الصغيرة للحداق بعيدًا عن السيف، عدّة أمتار، مع الأقارب والأصدقاء بعد ما تعدّينا السنة الثانية عشرة من العمر؛ فالسمك- في عمق البحر- أكبر من القريب من ساحل البحر.

ث) التغبّب: في الليل نتغبّب (ندخل في عمق البحر) حتّى الركبة، نبحث عن القبقوب (Crab) أو النغر (الخثاق، الخذاق، الحبار) باستعمال الفنر (سراج الكيروسين) أو البجلي (الكشّاف)؛ فالضوء -وخاصّة ضوء البجلي- يعشي عين الحيوان؛ فيقف في مكانه كالأعمى، فنشكّه بحديدة مدبّبة، مثل الرمح في ظهره، ونستخرجه من الماء. وكنّا نجفّف كيس الحبر ونسحقه ثمّ نذيبه في الماء ونستعمله حبرًا للكتابة، قبل أن يصل إلينا الحبر الصناعيّ. ولقد وصفت ذلك الصيد في اللاميّة، قائلًا:

تَغَبّبَتُ والأصحابَ نصطادُ قُبْقُبًا ... ومـقرافُه كـالسيفِ جُـرِّدَ لـلـقتلِ[1]
أَحَطْنا بـه فـي الليلِ من كلِّ جانبٍ ... وعُدَّتُنا رُمـحٌ ونـورٌ مـن (البُجْلـي)[2]
فشكَّ رفيقـي ظَهـرَه بشـجاعةٍ ... وكسّرَ مِقْرَافَيْـهِ من موضعِ الأَطْـلِ[3]
وقد يلبُدُ الخَثّاقُ تحتَ ضيائنا ... ويَرشُقُنا بالحبـرِ عـمدًا وبالـتَّفْلِ[4]
فينجو من الصيّادِ جذْلًا وهازئًا ... وقد طاشَ رُمحُ الصيدِ في وسطِ الشَّلّ[5]

القبقوب

الخثاق

العبرة:

لم تكن في معيريض مدرسة نظاميّة حديثة، فلا بدّ من عبر الخور إلى المدرسة في مدينة رأس الخيمة في عبرة (قارب) الساعة السابعة صباحًا، ونعود إلى معيريض؛ لتناول الغداء الساعة الثانية عشرة ظهرًا، ثمّ نرجع للمدرسة؛ لتكملة الدراسة حتّى الساعة الرابعة مساءً. وعندما يدوّق الهواء (يسكن) يصبح شراع العبرة عديم الفائدة، فنتعاون مع العبّار على التجديف؛ لدفع العبرة بالمجاديف إلى الساحل الآخر.

العبرة التي كانت تستعمل في ساحل عمان

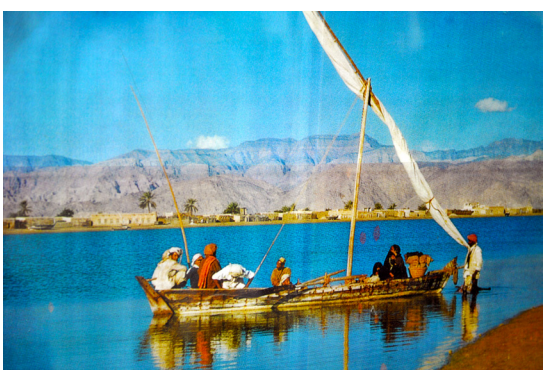

وقد نتأخّر - أحيانًا- في المدرسة؛ لأجل نشاطات مدرسيّة،

---

١. تغبَّب: دخل غبّة البحر. والغبَّة: الماء العميق (خليج). القبب: نوع من سرطان البحر يؤكل (خليج). المقراف: طرف الحيوان الذي يعض به.
٢. البجلي: الكشّاف (هنديّة الأصل).
٣. شكّ: طعن. الأطل: الخاصرة.
٤. يلبد: يختل. الخثّاق: الحبّار (خليج).
٥. الشلّ: الطين في ماء البحر.

مثل المسرحيّات، فلا نرجع إلا عند الغروب، عندها لا نجد عبّارًا يأتي إلينا من معيريض؛ فنقف على السيف، ونلوّح بغتَرِنا (جمع غترة)؛ كي يرانا ذوونا والناس في معيريض، فيضغطون على أحد العبارة؛ كي يأتي إلينا بعبرته. وإذا لم تنجح مساعينا في الحصول على عبرة، فلا حيلة لنا إلا عبر الخور سباحة. فكنّا نربط ملابسنا وكتبنا على رؤوسنا، ونسبح بهدوء كمجموعة إلى الجهة الأخرى، رافعي الرؤوس عن الماء؛ كي لا تبتلّ الكتب. وممّا يشجّع على تلك المغامرات أنّه لا تتكوّن أمواج كبيرة في الخور كي تصل فوق رؤوسنا، وتبلّل كتبنا، وكذلك لا توجد الجراجير الكبيرة (جمع جرجور وهو سمك القرش) المفترسة فيه. فالجراجير الصغيرة التي نراها– أحيانًا– حولنا، هي التي تهرب منّا.

الغوص:

حرفة الغوص على اللؤلؤ في الخليج قديمة جدًّا، تعود لآلاف السنين؛ ففي العصر الجاهليّ قال الأعشى عن اللؤلؤة:

كَأَنَّهـا دُرَّةٌ زَهـراءُ أَخرَجَهـا غَـوّاصُ دارينَ يَخشـى دونَهـا الغَرَقا

وفي العصر الإسلاميّ، جاء في القرآن: «يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» (الرحمن: ١٩–٢٣). وذكر الفرزدق مخاطر مهنة الغوص، في قوله:

كَدُرَّةِ غَوّاصٍ رَمى في مَهيبَـةٍ بِأَجرامِـهِ وَالنَفسُ يَخشـى ضَميرُها
فَقـالَ أُلاقـي المَـوتَ أَو أُدرِكُ الغِنـى لِنَفسِـيَ وَالآجـالُ جـاءٍ دُهورُهـا

ولقد قرأت أنّ البابليّين في شمال الخليج، قد أتقنوا فنّ الغوص على المحار، حتّى إنّهم اخترعوا وسيلة للبقاء مدّة أطول في قاع البحر؛ فقد ملؤوا جلد الماعز بالهواء، وأنزلوه في البحر مربوطًا بالحجارة؛ فكانوا كلّما احتاجوا للهواء فكّوا رباط فوّهة الجلد واستنشقوا الهواء منه؛ ليمكثوا مدّة أطول تحت الماء.

لم يعلم غوّاصو الخليج بما فعل البابليّون قبل آلاف السنين؛ فكانوا يكتمون أنفاسهم ويمكثون تحت الماء مدةً لا تزيد عن دقيقتين، مع أنّ منهم من قال لي: إنّه كان يمكث خمس دقائق. ولم أصدّق ذلك الادّعاء؛ لأنّهم غير دقيقين في تقدير الوقت، والحابس لنفسه قد يشعر وكأنّ كلّ دقيقة واحدة تمرّ عليه دقائق عديدة.

لم أدرك أيّام الغوص وازدهارها في معيريض؛ لصغر سنّي، ولكنّي أدركت أواخرها، وجالست الغوّاصين وسمعت منهم الكثير عن الغوص. ومن أحاديثهم عرفت بعض المصطلحات البحريّة التي كانوا يتداولونها. وكنت أظنّ أنّني سأكون (غيّصًا)؛ لأنّ أحد كبار الغوّاصين مسك أذني مرّة وتفحّصها وأنا صغير، وقال لي إنك ستكون غيّصًا (غوّاصًا) ماهرًا. ولمّا سألته كيف عرف ذلك؟ قال: لأنّ أذنك صغيرة، وصاحب الأذن الصغيرة يكون غيّصًا أفضل.

أذكر أنّني رأيت– وأنا على السيف– سفن الغوص في خور معيريض عائدة من رحلة الغوص، والبحّارة يغنّون ويصفّقون والطبل يقرع والنهّام (مغنّي السفينة) يصدح. وقد ذكرت ذلك في اللاميّة:

وأذْكُر أقـوامًا رأيـتُ بمَحْمَلٍ مجاديفُهم في البحْرِ تُمْشَقُ كالأَسْلِ[1]
إذا رَفعـوها فـي الـهواءِ ظننْتَهـا جَناحيْ عُقـابِ الصَّيْدِ حَلّقَ للقَتْلِ
ويصـدَحُ نَهّـامٌ علـى صـدْرِ بَغلَـةٍ ويبدو كغـرّيدِ الجبالِ على وعْلِ[2]

ولا أدري كم كان عمري آنذاك، وقد لا أكون تجاوزت الخمس سنوات. ولا أدري إن كانت تلك السفن عائدة من الهيرات (المغاصات البعيدة) أو من القحّات (المغاصات القريبة)؛ لأنّ الغوص في الهيرات هو الغوص السنويّ لفترة الصيف كلّها؛ من شهر مايو إلى سبتمبر، أمّا في القحّات فلأيام قليلة.

وأذكر– بوضوح– تجمّع البحّارة العائدين من قحات قريبة من معيريض، تحت ظلّ من الجريد، قرب السيف على بعد

١. المحمل: السفينة (خليج). تُمشق: تُستَلّ. الأسل: الرماح.
٢. النهّام: مغنّي السفينة. الغرّيد: الطائر المغرّد. الوعل: تيس الجبل.

أمتار من بيتنا؛ وذلك لفلق المحار بالمفلقة (سكّين مغقوفة خاصّة لفلق المحار)، فيستخرجون القماش (اللؤلؤ) ويكدِّسون المحار المفلوق في كومة كبيرة، ثمّ يرمى به في البحر أو يحرق؛ لتحويل المحار إلى نورة.

المحارة

المفلقة

فكنت أذهب؛ لمراقبتهم وسماع أحاديثهم. والغريب أنّ المحار وما فيه من خرط (المادّة الصالحة للأكل)، الذي يباع الآن في المطاعم الأجنبيّة بأسعار باهظة، كان يندر أن يأكله أهل معيريض الفقيرة تلك الأيّام، بل يلقى في البحر للأسماك. وقد يكون لتوافره بكثرة زهّد الناس فيه.

ولقد ذكرت ذلك في قصيدة الغوص من لاميّة الخليج، قائلًا:

رأيتُ رجالَ الغَوصِ يَجنونَ لُؤلُؤًا ... من الفَلْقِ، والمُحَّارُ كُوِّمَ في الظلِّ[١]
وشاهدتُهم يَرمُونَ في البحرِ خَرْطَهمْ ... ولم يأْخذوا شيئًا من الخَرْطِ للأَكْلِ[٢]
ولم يُبحروا للغَوصِ إلا فراسِخًا ... يَغوصونَ في القَحَّاتِ والرّقِّ والضَّحْلِ[٣]

وهناك نوع من المحار الصغار كنّا نأكل ما فيه، وخاصّة المحار الأبيض أو الذي يميل إلى البياض؛ وذلك النوع من المحار يسمّى (الدوك). كان يجلبه لنا الأهل والأصدقاء من منطقة البحر من الرمس أو قرب منطقة المطاف، ونحن في مصيفنا في شمل. وما كنّا نطبخه على النار، بل ندفن نصف المحار السفليّ في حصى الوادي الأسود الناعم، ونتركه ساعة في حرارة الشمس؛ كي يطبخ وينضج، ثمّ نأكله.

محار الدوك

وبعد سنة ١٩٣٠ كسدت تجارة اللؤلو في الخليج واشرفت مهنة الغوص على الانقراض؛ لاكتشاف اليابانيّين زراعة المحار وتربيته، واستخراج اللؤلؤ منها بكمّيات تجاريّة رهيبة، دون الحاجة للغوص في البحر، ممّا تسبّب في انخفاض سعر اللؤلؤ عالميًّا؛ فلم يعد مجديًا تحمّل المهالك والغوص لاستخراجه في الخليج.

---

١. الفلق: المحار المفلوق (خليج).
٢. الخرط: ما يقشر من داخل المحار من لحم وأحشاء (خليج).
٣. القحّات: جمع قحّة: المنطقة البحريّة الضحلة (خليج). الرقّ: الماء الضحل (خليج).

سفن معيريض الشراعيّة:

كانت السفن الشراعيّة في الخليج– قبل النفط– العصب الرئيسيّ للاقتصاد؛ إذْ كانت تستعمل للصيد والتجارة البحريّة والغوص على اللؤلؤ. والسفن الخليجيّة كثيرة ومتعدّدة الأنواع والأحجام، وليس هناك فرق بين سفن معيريض وبقيّة سفن الخليج، المتنوّعة، لكن سأقتصر هنا على ذكر أهمّ السفن التي تعوّدت على رؤيتها كثيرًا في خور معيريض وسيفها، أيّام طفولتي؛ وكانت المصطلحات الخليجيّة التراثيّة العديدة لمكوّنات السفينة، خليطًا من العربيّة والهنديّة والسواحليّة (لغة شرق إفريقية)، يصعب التطرّق إليها وشرحها هنا، إلا ما يرد منها في سياق الحديث.

ويسمّي الأوروبيون سفننا الخليجيّة المصنوعة من الخشب الداو (Dhow) وقد أخذوا تلك اللفظة من اللغة السواحليّة؛ وتعني سفينة. كما نطلق نحن على السفن أيضًا «المحامِل» و«الخَشَب»؛ فالمحامل مشتقّة من حمل، أمّا الخشب فلأنّه مصنوع من الخشب.

أهمّ وأكثر السفن الشراعيّة الكبيرة التي كان أهل معيريض يسافرون فيها إلى الهند وإفريقية ثلاث: السنبوك، والبوم، والجالبوت؛ فالسفن الصغيرة لا تزيد حمولتها عن خمسين طنًّا، للسفر المحلّي، والكبيرة قد تصل حمولتها ٥٠٠ طن. وتختلف هذه السفن في شكل مقدّمتها ومؤخّرتها؛ فالبوم حادّ المقدّمة والمؤخّرة. والسنبوك حادّ المقدّمة، أمّا المؤخّرة فشبه مربّعة. أما الجالبوت فمقدّمتها زاوية شبه قائمة على البيص (القاعدة)، ومؤخّرتها شبه مربّعة. ورؤية مقدّمة السفينة تكفينا لمعرفتها؛ فهي كما يلي:

البوم

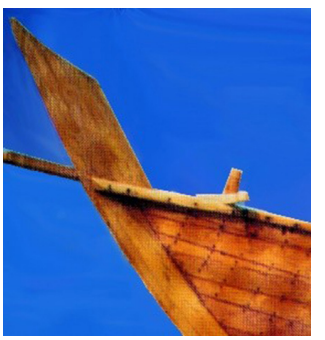

السنبوك

الجالبوت

وتختلف أحجام هذه السفن الكبيرة، حتّى بين الصنف الواحد منها؛ فقد يستعمل– مثلًا– السنبوك الصغير للسفرات القصيرة المدى، في حين يستعمل السنبوك الكبير للسفر إلى البلدان النائية. وكانت السفن المتوسّطة الحجم تستعمل للغوص.

السنبوك:

سنبوك صغير

السنبوك الكبير

واسم السنبوك عربيّ؛ وهو إمّا مشتقّ من السُّنْبُك؛ وهو طرَفُ الحافِرِ وجانباه، وجمعهُ سنَابِكُ، وسُنْبُكُ السيف: طَرَفُ حِلْيته. أو السنبك: ضرب من العدو والسير. وجمع السنبوك: سنابيك. والسنابيك بأحجامها المختلفة شائعة جدًّا في كلّ

الخليج؛ لأغراض متنوّعة، كالصيد، والغوص، والحرب، والتنقّل، والسفر إلى البلدان البعيدة كالهند.
سأبدأ حديثي عن السفن بالسنبوك (السنبوق)؛ لأنّه أكثر السفن التي عرفتها؛ وذلك لأنّ أبي كان يملك في معيريض سنبوكا كبيرًا، عرفته جيّدًا ولعبت فيه كثيرًا، وكان محمّد عبد الله حردان، وكيل الوالد على السنبوك. وهناك أحجام مختلفة للسنابيك؛ بعضها كبير جدًّا، يجوب المحيطات إلى الهند وإفريقية، مثل سنبوكنا، والبعض أصغر؛ لصيد السمك أو الغوص على اللؤلؤ؛ فمن خواصّه أنّ الصدر (المقدّمة) زاوية حادّة، والتفر (المؤخّرة) مربّعة. وكان سنبوكنا شراعيًّا، مع أنّني أذكر دخول الآلات المكانيكيّة التي تعمل بالديزل على السفن في معيريض أيّام طفولتي. وفي الصيف كان سنبوكنا يجدف (يسحب إلى اليابسة) ويثبّت بأعمدة خشبيّة كبيرة من حوله؛ فكنّا نصعد إلى سطحه للعب، ونقضي القيلولة فيه مع الأصدقاء تحت المظلّة المنصوبة في التفر (مؤخّرة السفينة). ونشرب –أحيانا– من فنطاسه (خزّان الماء) الخشبيّ، الماء المتبقّي من أيّام السفر بقبعة (إناء من قشر جوز الهند) مربوطة بحبل على جانبيها.

ولم يكن الماء نظيفًا بل سيّء الطعم، وبه الديدان تجري. ولكن تعوّدنا على شرب مثل ذلك الماء، فتكوّنت عندنا مناعة لما فيه من جراثيم، بعد أن أخذنا نصيبنا من الإصابات المعويّة بسببها.
وكان سحب السفينة إلى اليابسة على الرمل مناسبة مجهدة، يحشد لها الكثير من رجال القرية؛ للتعاون على السحب؛ فتوضع الأخشاب الأسطوانيّة تحت البيص (القاعدة) لتتحرّك عليها السفينة، وتربط الحبال القويّة بالسنبوك؛ ليسحب بالدوّار (آلة حديديّة تدار بأخشاب يدفعها الرجال)، ويسحب البعض الحبال الأخرى. وفي فترة تجديف السفينة على اليابسة يتمّ ترميمها من قبل قلّافين (نجّارين)، ويبسط الشراع على الرمل؛ لرقع ما فيه من ثقوب باستعمال السوتلي (خيط كبير) والدفرة (إبرة ضخمة) لهذا الغرض.
وذكر الرحّالة المغربيّ الشهير ابن بطوطة (م ١٣٧٧) أنّه ركب «الصنبوق» من البصرة. ويبلغ طوله حوالي (٦٠) قدمًا، وتتراوح حمولته ما بين ٢٥–٦٠ طنًا.

البوم:
البوم: مفرد، والجمع أبوام، اسمه عربيّ، ويوحي بأنّه كطائر البوم، ولكن لا أعرف من أيّ ناحية؛ شكله، أو سفره في الليل، أو تميّزه باللون الأسود في قمّة ساطوره، كعين البوم. وقد ذكر البوم الشاعر أبو بحر جعفر الخطّيّ (ت: ١٦١٨م):

وإن سمعت مقالي فامض متّكلًا على إلهك في الأبوام بحّارا

فهو أهمّ وأضخم السفن الشراعيّة حجمًا، حادّ ومائل الصدر، يميّزه ساطور (خشبة المقدّمة) طويل ومرتفع بزاوية ٤٥ درجة على البحر، يصبغ طرفه العلويّ باللون الأسود، وتحته شريط باللون الأبيض. وتفره (مؤخّرته) مثل صدره حادّ ومائل. وليس له أيّ شبه بالبوم الطائر؛ ولذلك قال الشاعر الكويتيّ خالد الفرج:

ولا تحسبنّ البوم طيرًا فما هو غير فلك ذي شراع

الجالبوت:
صدرها زاويه قائمه على البيص أو البحر، ومؤخّرتها شكل مربّع؛ فهي متوسّطة الحجم للغوص على اللؤلؤ والأسفار داخل الخليج ونقل البضائع. طول (الجالبوت) ما بين ٢٠–٣٠ قدمًا، وتبلغ حمولتها من ١٥–٦٠ طنًّا.
التسمية أجنبيّة، ويقال: إنّ أصلها كلمة إنجليزيّة jolly–boat تعني قارب النزهة، ويقال إنّها مشتقة من اسم المركب البرتغالي (جالبوتا)، والله أعلم.

السفن الصغيرة:

الشاحوف:

أعتقد أنّ الشاحوف لفظة عربيّة الأصل. ولسان العرب يقول: الشَّحْفُ قَشْرُ الجِلد (يمانية)، وجمع شاحوف شواحيف؛ وهو قارب في حدود الخمسة أمتار طولًا، قد يسع درزنا أو درزنين من الناس، وهو أكثر القوارب استعمالًا لصيد السمك عندنا. يستعمل فيه الشراع وكذلك المجاديف عند الحاجة. ونوع منها يستعمل كـ (عَبْرة)؛ لنقل الركّاب والبضائع في الخور بين معيريض ورأس الخيمة. ومع أنّه لم تتح لي فرصة الذهاب مع الصيّادين المحترفين في الشواحيف في المياه الغزيرة، إلا أنّني كنت أسمع أحاديثهم عن الصيد. وأهمّ نشاطاتهم باستعمال الشاحوف: الصيد بالقراقير (قفّاص الصيد)، والحداق (بالصنارة)، ونصب الشباك، والضغي؛ وهو جرف الأسماك بالشباك إلى اليابسة. ولقد شاهدت الطريقة الأخيرة مرارًا.

الشاحوف

الماشوة:

أصل الكلمة آراميّة من «ماكونا» (مجمع لغات العرب ج١١، ١٩١٤) قارب صغير تابع لسفينة كبيرة فقط، ينقل البحّارة والأمتعة، مؤخّرته مربّعة الشكل. ويسمّى أيضًا (القلص)؛ لأنّه يُقلص (يُسحب، يُقطر) خلف السفينة في الخيران وقرب مراسي السفن، وينقل معلّقًا على الجانب العلويّ للسفينة، ويستعمل للإنقاذ، وصيد السمك والتردّد بين السفينه والساحل؛ لنقل البحّارة وبعض البضائع الخفيفة. والماشوات التي رأيتها في معيريض صغيرة جدًّا لا تسع الواحدة أكثر من نصف درزن من الناس. ويقال: إنّ أصل الاسم سواحليّ (MASHUA).

الماشوة

الكتر:

والكتر في اللغة: الهودج الصغير؛ وهو قارب مثل الماشوة، ولكنّه أصغر حجمًا، طوله حوالي ثلاثة أمتار، مقدّمته ومؤخّرته حادّتان، يرافق السفن الكبيرة ويشحن فيها للاستعمال في الميناء بين السفينة والسيف، لتنّقل شخصين أو ثلاثة. وممكن استعماله لشخص أو شخصين؛ لصيد السمك في الخور.

الكتر

الهـوريّ:

قطعة واحدة من جذع شجرة كبيرة محفورة على شكل قارب صغير؛ لذلك فالهوريّ صغير جدًّا لا يسع إلا ثلاثه أو أربعة أشخاص بالكثير. يحرّك باستعمال مجداف واحد. يشترى من الهند، ويحمل في السفن؛ للاستعمال عند الحاجة. قال المؤرّخ الجبرتي في عجائب الآثار: الهوريّ من أصغر سفن بحر اليمن. والغالب أنّ التسمية عربيّة مشتقّة من الأهوار والمستنقعات المائيّة الموجودة في جنوب العراق؛ لأنّ سكّانها كانوا يستعملون أنواعًا من القوارب الصغيرة تشبه الهوريّ. والغالب في الخليج هو المجلوب من كاليكوت الهند.

ظلام الليل في معيريض

بعد غروب الشمس وعودة الرجال من صلاة المغرب، يبدأ الظلام يخيّم على المدينة بساحاتها وسكيكها، وخاصّة إذا كانت الليالي غير مقمرة. وقد ذكرت ليل معيريض في (اللاميّة) عندما وصفت السراج، قائلًا:

وأمّا زمانُ الأمسِ فالليلُ دامسٌ — نَكادُ نَطولُ النجمَ من قمّةِ التَّلِّ
وبعدَ غروبِ الشمسِ تُظْلِمُ دارُنا — إذا لم يُضئْنا البدرُ من نورِهِ الجَزلِ

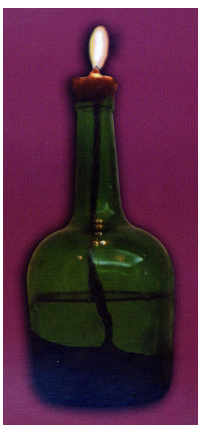

السراج

الفنر

التريك

أمّا في البيوت فتشعل النساء السُّرج والفنارة (جمع فنر)؛ وهي مصابيح الكيروسين بأنوارها الخافتة. وفي حالات الاحتفالات–كالأعراس– توضع المصابيح المسمّاة بالـ (التريك) المشتعلة بالكحول (سبيرتو)؛ إذ تشعّ نورًا أبيض قويًّا، مثل مصابيح الكهرباء. ويقترن الظلام الدامس بالصمت والهدوء؛ فلا تُسمع أصواتٌ في الليل؛ وذلك لخلوّها من الآلات والسيّارات. أمّا في الليالي المقمرة من اليوم الخامس من الشهر العربيّ إلى يوم ٢٥ من الشهر، فنور القمر يبدّد شدّة الظلام، وبالأخصّ حول منتصف الشهر ١٣– ١٦ عندما يكون القمر بدرًا، ينير الطرقات بصورة واضحة نسبيًّا؛ فيسهل السير في الدروب الطويلة للإنسان والحيوان. وكنّا– معشر الأطفال– نلعب بلعبة (العظيم) في تلك الليالي المنيرة؛ وهي لعبة مكوّنة من فريقين؛ يرمي واحد من الفريق الأوّل العظم بقوّة بعيدًا، ويذهب الفريقان للبحث عنه في الرمال؛ فمن وجد العظم يركض به إلى نقطة الانطلاق بمساعدة فريقه، في حين يحاول الفريق الآخر أن يأخذ العظم؛ فالفريق الذي يصل نقطة الانطلاق بالعظم، هو الفائز، كما وصفت في اللاميّة:

وتحلو لنا الألعابُ في بطنِ ساحةٍ — يزيّنُها بـدرٌ يَشـعُّ علـى الـرمْلِ
قضينا بها الساعاتِ، مرّتْ كساعةٍ — سَلَونا بها والليلُ في عصرِنا يُسلي
فنحـذِفُ عَظمًا مـن بعيدٍ بقوّةٍ — ونأتي بهِ بالـركضِ للمركزِ الأصلي

وأذكر– أيّام الطفولة والصبا– أنّ أغلب منازل معيريض مصنوعة من جريد النخيل؛ لسهولة وقلّة تكليف بنائها، وتثبّت

بجذوع النخيل المربوطة بالحبال. والبيوت متقاربة لا يفصل حوش (فناء) بيت عن الآخر أكثر من مترين أو ثلاثة في الغالب؛ لذلك يستطيع المارّ في السكّة أن يسمع حديث أهل المنزل الصغير بسهولة، تجعل الخصوصيّة في الحديث معدومة إلا بالهمس. أمّا إذا كان الحوش كبيرًا وواسعًا فللحصول على شيء من الخصوصيّة تبنى الغرف بعيدة عن جدار الحوش عدّة أمتار.

أخبرتني الوالدة أنّه لمّا كنت رضيعًا، كان والدي يوقظها من النوم كلّما صحتُ جوعًا في الليل؛ لأنّها كانت صعبة الاستيقاظ في شبابها. وعندما يغيب الوالد، أو يذهب للمسجد مبكّرًا، كان أحد كبار السنّ من جيراننا (عبد الكريم عبد الله) يسمع صراخي وهو ذاهب لصلاة الفجر؛ فيقف في السكّة قرب جدارنا الجريديّ وينادي: «يا أهل الدار استيقظوا للطفل»، فيردّد ذلك، فلا يبرح مكانه حتّى أتوقف عن الصياح، عندها يدرك أنّ أمّي قد استيقظت، فيذهب في سبيله. هذا النوع من التراحم والتعاون من السمات المميّزة لمجتمع قرويّ صغير، مثل مجتمع معيريض؛ فمن الأحداث التي لا أنساها، أنّه عندما كنت صغيرًا لم أتجاوز السبع سنوات من العمر، هبّت ريح شديدة ليلًا أسقطت جدار حوشنا الجنوبيّ المشيّد من سعف النخل، فانكشف ستر البيت للمارّة، وسبّب حرجًا كبيرًا للأهل. وكان والدي غائبًا في سفر، ولم يكن في البيت إلا النساء والطفل أنا؛ فالبحث عن عمّال بناء وقدومهم يستغرق وقتًا طويلًا. ولكنّ أحد الجيران في حيّنا- السيّد عبد الكريم عبد الله المذكور أعلاه- رأى جدارنا ساقطًا، وهو في طريقه إلى المسجد لصلاة الفجر؛ فبعد الصلاة أخبر المصلّين بما رأى، فأخذتهم النخوة العربيّة الإسلاميّة؛ فأسرع جميع من في المسجد إلى بيتنا، وجاؤوا بالحبال، ورفعوا الجدار الساقط وثبّتوه، جيّدًا قبل أن تشرق الشمس. ولقد استيقظت من النوم على أصوات الرجال بقيادة عبد الكريم، وهم يصلحون جدارنا، فذهبت؛ لأتفرّج.

القصص الخرافيّة:

الخروفة هي القصّة الخرافيّة، وجمعها خراريف وخروفات. وأصل التسمية أنّها كانت تنسب لرجل من العرب اسمه «خرافة» ادّعى أنّ الجن اختطفوه، فلمّا عاد إلى أهله تحدّث بأحاديث تعجّب منها الناس، فكذّبوه، وجرى على لسانهم المثل «حديث خرافة»؛ فالخروفة حكاية منسوجة من الخيال، يصعب أن يصدّقها العاقل، لكنّها تأسر الطفل، وغالبًا ما تُحكى له في الليل؛ كي ينام.

ومن سلبيّات الحياة القرويّة تلك، قبل وصول الكهرباء، أنّ الظلام والقصص الخرافيّة عن الجنّ والسحرة والشياطين، جعل غالبيّة السكّان، صغارًا وكبارًا- وأنا منهم- تخاف في الظلام من الجنّ والأشباح، إلى درجة أن يخاف المرء أن يدخل غرفة منزله وحده ليلًا، إذا لم يكن المصباح الكيروسينيّ مشتعلًا فيها.

أذكر مرّة- وأنا في السابعة من عمري- احتجت أن أدخل غرفة والديّ المشيدة من الحصى والجص بعد الغروب مباشرة؛ لإحضار حاجة منها، فدخلت، ولكن في الظلام سمعت صوت أقدام في الغرفة، فظننت أنّه جنّيّ؛ فركضت صارخًا إلى الباب، واصطدمت عند الباب بشخص يركض أيضا للخروج. وكانت تلك أختي، التي دخلت الغرفة لأخذ حاجة، وسمعت أيضا صوت قدمي فخافت. سمِعَت أمّي صياحنا، فأتت لتحتضننا وتهدّئ من روعنا، ثمّ أتت بطاسة ماء وألقت فيها خاتمها الذهبيّ، وسقتنا من الماء؛ إذ كان الاعتقاد أنّ وضع الذهب في الماء يجعل الماء يهدّئ من روع الخائف. والواقع أنّ احتضان الأمّ يهدّئ روع الطفل وليس الماء.

الخوف في الظلام من الجنّ كانت ظاهرة عامّة، يعاني منها الصغار والكبار في البيئات المظلمة، مثل معيريض، قبل وصول الكهرباء وإنارة الطرق. ولقد عانيت من ذلك في طفولتي كثيرًا؛ فكنت أذهب- أحيانًا بعد المغرب، وقبل أن يشتدّ الظلام- إلى بيت جيراننا، حيث أجلس مع أصدقائي من أطفال جيراننا، نستمع لعجوز «تخرّفنا»؛ أي تروي لنا القصص والأساطير الخرافيّة، وأغلبها عن السحرة والجنّ والعفاريت المخيفة؛ فتمتلئ قلوبنا بالرعب؛ بسبب تلك الـ «خراريف»، وتجعلنا لا نجرؤ على المشي خارج باب الغرفة بعد ذلك، دون مرافق «شجاع» في الظلام؛ وذلك خوفًا من أن يختطفنا ساحر أو جنّيّ مختبئ في الظلام؛ فعند ما أريد أن أعود إلى بيتنا للنوم ليلًا، بعد أن تنهي العجوز قصّة «الخرّوفة» الأخيرة، لا بدّ من ترتيبات «أمنيّة»، تؤمّن وصولي سالمًا، من باب الجيران إلى باب بيتنا، مسافة ٨ أمتار، عبر سكّة بين البيتين، لا تزيد عن ثلاثة أمتار؛ فتنادي الجارة على أمّي من باب بيتها، فتسمعها أمّي عبر جدار الجريد، فتأتي لتنتظرني عند باب بيتنا، وتمشي معي الجارة أو أحد من بيت الجارة إلى منتصف الطريق، ثمّ أسرع راكضًا إلى أمّي. وبعد ما اشترى لي محمّد عبد الله (مدير أعمال والدي، الموكّل على «السنبوك» وهي سفينتنا الشراعيّة) (بجلي)

(كشّافا يعمل بالبطّاريّة) من الهند، صرت أسلّط الضوء على الطريق، وأبدّد الظلام من حولي، فأتجرّأ على المشي من باب جيراننا إلى باب بيتنا «بشجاعة» دون مرافق. مع ذلك فقد كنّا نلعب في الليالي المقمرة في مرحلة الصبا، في مجموعات، نختبئ في مكان ويبحث عنّا الآخرون. وكانت رواية تلك الخرافيف للأطفال مقتصرة على الأمّهات والجدّات اللواتي سمعنها من أمهاتهنّ وجدّاتهنّ. وهي– وإن كانت للترفيه– فإنّ لبعضها هدفا تربويّا، كتخويف الأطفال من الابتعاد عن الأهل والجيران وحدهم، أو الذهاب إلى البحر ليلًا. ولأنّ أغلبها تروى وقت نوم الأطفال، فليس للرجال نصيب فيها. ولكن كان في حيّنا رجل نابغ في روايات تلك القصص الخرافيّة، نتجمّع حوله أحيانا ونطلب منه أن «يخرّفنا»؛ أي: يروي لنا بعض القصص الخرافيّة ونحن خارج البيت على الرمل، قرب المسجد بعد صلاة العشاء؛ وذلك لمّا كبرنا قليلًا، وتعدّينا العاشرة من العمر. وكان ذلك الراوي اسمه علي العبّار. وسُمِّيَ عبّارًا؛ لأنّه صاحب عَبْرَه، أي قارب، (يعبّر) فيه الناس بين ضفّتي الخور؛ أي ينقلهم في عبرته بين معيريض ورأس الخيمة، عبر خور معيريض؛ فيكسب العبّار ربع روبيّة من كلّ عابر أجرة. وكان علي العبّار حافظًا للكثير من الأساطير القديمة، وحاذقا في روايتها لنا. وكانت قصصه المرويّة في تلك الأزمان تقوم مقام الأفلام المرئيّة في عصر أطفالنا الآن، ولكنّها كانت مثل أفلام الرعب؛ لأنّها تجلب لنا الكوابيس والجواثيم (جمع جاثوم: الحلم المزعج). وقد وصفت ذلك بإسهاب في (اللاميّة)؛ إذ قلت:

ونرتاحُ بعدَ اللّعبِ في ساحةِ النَّقا ... يُخَرّفُنَا العبَّارُ عن ساحرٍ عَبل[1]
يطيرُ مع السُحَّارِ في كلّ ليلةٍ ... ليصطادَ أطفالًا لسحرٍ ولأكْلِ
فكم أكلَ السُحَّارُ أطفالَ أسرةٍ ... وكم خطفَ الجنُّ الصغارَ من الأهْلِ
وإن سكتَ العبَّارُ عُدنا لأهلِنا ... وقد عكَّرَ العبّارُ يا ويلَه ليلي
فتلك أساطيرٌ تُقالُ لصبيةٍ ... فتُرْعِبُهم والهمُّ تسليةُ الطفلِ
فتُعجبُني تلكَ الحِكاياتُ حينَها ... وإن نِمتُ فالجاثومُ يشرَعُ في قتْلي[2]
وقد قيلَ بطنُ الأرضِ للجنّ مسكنٌ ... إذا اشتدَّ دَجْنُ الليلِ تخرجُ بالخَتْلِ[3]
فلولا حِكاياتٌ تُقالُ وظلمةٌ ... لَما هابَ جِنَّ الليلِ شَروايَ أو مثلي

ومرور الزمن الطويل منذ طفولتي، أنساني تلك القصص الخرافيّة، التي كنت أحرص على سماعها ليلًا، إلا القليل النادر مثل (حمار القايلة) وهو جنّي على شكل حمار، لا يخرج إلا وقت الظهيرة ليخطف الأطفال. كانت أمّي تخوّفني به ظهرًا بعد الغداء؛ حتّى لا أخرج من البيت وهي نائمة، في فترة القيلولة. كما كانت تخوّفني أيضًا بأبي الروّاف وهو لصّ حقيقي مشهور، يسرق الأطفال ويبيعهم عبيدًا للتصدير إلى المملكة العربيّة السعوديّة، بعد الحرب العالميّة الثانية.
ومن القصص الخرافيّة المشهورة قصّة الجنّيّ الضخم، أو العفريت «بابا درياه» (أبو البحر)، المقصورة على الذين يعيشون على ساحل البحر فقط. يرويها البحّارة والصيّادون وغوّاصو اللؤلؤ، وبعضهم يصرّ على أنّه رأى ذلك الجنّيّ أو سمع صوته، أو أنّه أغرق قاربًا من قواربهم؛ لذلك لم يكن الطفل منّا يتجرّأ أن يذهب إلى البحر، دون مرافقة شخص بالغ في ظلام الليل. ولكن السؤال: لماذا يحتاج الصبيّ الصغير أن يذهب إلى البحر ليلًا؟ والجواب يحتاج إلى شرح طويل، ليس هذا مكانه، ولكن باختصار؛ لأنّه لم تكن عندنا حمّامات أو مراحيض آنذاك؛ فسيف البحر هو مكان قضاء الحاجة.

مجلس النسوان:

من الغرائب أنّه كان للنساء في بيتنا وبيت جارتنا مجلسٌ ليليٌّ كما ذكرت، تسرد فيه القصص الأدبيّة، في مجتمع غاطس في جهل الأمّيّة. ولقد كنت حظيظًا؛ لأنّي حضرت مجالس النساء مع أمّي وأنا طفل، فشهدت مجلسهن وسمعت القصص والحكايات الراقية. وكان ذلك المجلس يعقد في بيتنا– في الغالب– لأنّ عمّتي وجارتنا عفراء تقرأ لهنّ كتبًا تستعيرها عمتي من مكتبة الوالد؛ لذلك لا أعرف طفلًا غيري في الحارة حالفه الحظّ لحضور تلك الأمسيات آنذاك. فكان

---

١. عبل: ضخم.
٢. الجاثوم: الكابوس، الأحلام المزعجة.
٣. دجن الليل: ظلامه. شروايَ: مثلي.

مجتمعنا مجتمعًا تسوده الأمّيّة. لم أرَ في طفولتي امرأة تستطيع الكتابة، ولكنّي رأيت نساءً قلائل أتقنَّ قراءة القرآن، فتمكنَّ من قراءة الكتب، إذا كان الخطّ مشابهًا لخطّ القرآن فقط؛ لذلك يصعب عليهنّ قراءة الرسائل المكتوبة بخطّ اليد. ومن حسن حظّي أنّ عمّتي المتقنة لقراءة القرآن تقرأ الكتب، وكذلك كانت جارتنا عفراء بنت راشد معلّمة القرآن للأطفال؛ فكانتا تتبادلان قراءة القصص للنساء على ضوء السراج الزيتيّ (الفنر) ليلًا، مثل: قصّة مجنون ليلى، الزير سالم، عنترة بن شدّاد، وكذلك كتاب ألف ليلة وليلة. ولمّا لاحظت أمّي حبّي لسماع تلك القصص، صارت تأخذني معها للاستماع، حتّى لو كان المجلس في بيت جارتنا عفراء؛ فكنت أستمع وأتفاعل مع القصص، وأنا في السابعة من العمر. وقد وصفت ذلك في لاميّة الخليج بقصيدة (مجلس النسوان)، وممّا قلت:

أيا أمّ إنّي قد تذكَّرتُ ليلةً ... بها عمّتي تقرا كتابًا على مهلِ
وقد كانَ عشْرٌ من نساءِ فِريجِنا ... يُحِطنَ بها والكُلُّ مُنسجِمٌ مثلي[1]
فما نِمتُ كالمعتادِ قربَكِ عندما ... تطولُ أحاديثُ النساءِ على الطفلِ
فقد طارَ عن عينيَّ ما حلَّ من كَرىً ... وتابعتُ ما يقرأْنَ من قِصصٍ تُسلي
وأجلِسُ فوقَ الأرضِ قربَكِ صامِتًا ... أُتابعُ مشغوفًا وأَلبُدُ في الظلِّ[2]
وما زدتُ عن سبعٍ من العُمرِ حينَها ... ولكنْ تَعدّى العشْرَ في وقتِها عقلي
ولمّا بَكى قيسٌ بكيتُ لحالِهِ ... وقد أُرغمتْ ليلاهُ قهرًا على بَعْلِ
فسالتْ دموعي لوعةً وتَفطُّرًا ... لأنَّ لهيبَ العشقِ يا ويلَه يُصْلي
وقد لاحظتْ بَعضُ النساءِ بمُقلتِي ... دُموعًا لوقعِ الشعرِ تطفحُ كالسيلِ
وقالتْ لَكِ النسوانُ: يا أمَّ عاشقٍ ... صغيرُكِ ذو عشق، وما العِشقُ للطفلِ
فلم تُنصِفِ النسوانُ إحساسَ شاعرٍ ... بآلامِ عشّاقٍ بكتْ عينُهم قبلي

الكهرباء:

عشت طفولتي في رأس الخيمة، ولم نعرف الكهرباء حتّى سافرت إلى الكويت لتكملة تعليمي. ولكن في السنة التي تقرّر فيها سفري سنة ١٩٥٨ سمعت أن الشيخ صقر سينشئ محطّة كهرباء لمدينة رأس الخيمة العاصمة. ثمّ رأيت يومًا– وأنا عائد من المدرسة القاسميّة– الشيخ صقر مع مهندسين أجانب على تلّ قرب البحر، ليس بعيدًا من المدرسة، فعرفت أنّ ذلك الموقع سيكون للمحطّة. ولعلاقة الشيخ الأبويّة بي، ذهبت للسلام عليه، وسألته إن كان سينشئ محطّة كهرباء هناك، فقال: نعم، إن شاء الله. فقلت له مازحًا: ألا يكون لمعيريض نصيب من الكهرباء أيضًا. فضحك وقال مازحًا: سنمدّ لكم سلكًا من المحطّة عبر البحر إلى معيريض. وكان يظنّ أنّه من المستحيل مدّ سلك كهربائيّ في الماء، وكذلك كنت أظنّ، فسكتُ. ولكنّ المشروع أخذ سنوات ليبدأ النور جزئيًّا في مدينة رأس الخيمة سنة ١٩٦٧ واكتمل سنة ١٩٦٨. وقد علمت أنّ مدينة دبي، الأكثر ثروة من كلّ مدن ساحل عمان آنذاك، بدأت بإنشاء شركة كهرباء سنة ١٩٥٩ ولم تعمّ دبي الكهرباء حتّى سنة ١٩٦١م.

١. فريج: فريق أي حيّ من أحياء البلدة (خليج).
٢. الظلّ: ظلّة النساء الجالسات حول السراج خلفهنَّ.

الأعمال التجاريّة في معيريض

لن أتعرّض هنا للحديث عن تجارة أهل معيريض باستعمال السفن الكبيرة إلى خارج رأس الخيمة، ولكن سأقتصر على التجارة داخل القرية فقط. لا يوجد في معيريض سوق، ولكن أهل معيريض يذهبون بالعبرة للتسوّق في مدينة رأس الخيمة. والعبرة قارب يعبر به الناس خور البحر بين الساحلين، باستعمال الشراع إذا كان الهواء ملائمًا، والمجاديف إذا لم يكن ملائمًا. وفي معيريض حوالي أربع دكاكين صغيرة تزوّد الناس بكمّيّات صغيرة من الأطعمة الجافّة، كالرزّ، والطحين، والقمح، والسكّر، والصابون، والمعلّبات.

التجارة بالأسماك:
لم يكن في معيريض أيّام صباي سوق لبيع السمك. يذهب الصيّادون بعد الفجر في شواحيفهم (قواربهم) للصيد، غالبًا بالقراقير أو الحداق، ونادرًا بطرق أخرى سأذكرها.

الحِداق:
الصيد بالخيط الذي في نهايته ميادير (صنّارات) وبلد (قطعة صغيرة من الرصاص تسحب الخيط إلى قاع البحر). وفي الصنّارات يوضع الييم (الطعم من الدود أو الشنيوب (سرطان البحر) أو العومة أو النغر (الخذاق، الحبّار). وكان الشنيوب الطعم المفضّل عندنا نحن الهواة؛ فعندما تنبر السمكة (تسحب الخيط) يسحبها الصيّاد إلى القارب.

الشنيوب

الصيد بالقراقير (مفردها قرقور):
كانت القراقير قديمًا تصنع من جريد النخيل، ولكنّها تصنع حديثًا من الأسلاك المعدنيّة. ويسمّى القرقور الكبير الذي قد يصل إلى مترين أو أكبر «دوباية»، والجمع دوابي. فالقرقور مصيدة مثل مصيدة الفئران؛ تدخله الأسماك عبر فتحة دائريّة على أحد جوانبه تكون على شكل مخروطيّ تضيق عند النهاية؛ لمنع هروب الأسماك للخارج؛ فإذا دخلت السمكة، لا تتمكّن من الخروج، فإن أرادت الخروج، فتحوط حول جوانب القفص تبحث عن مخرج، في حين الفتحة التي دخلت منها ليست في الجوانب بل في الوسط.

يترك الصيّادون قراقيرهم الكبيرة بعيدًا عن الساحل وفي قاع البحر الغزير (العميق). أمّا كيف يهتدي الصيّادون إلى مواقع قراقيرهم؟ فلكلّ قرقور كربة عائمة (طافية على سطح الماء، تسمّى جيبال) من كرب النخل، مربوطة بحبل طويل في طرفه العلويّ، ومثبت طرفه السفليّ في القرقور. وحديثًا استبدل كرب النخل بالفلّين.

قرقور من جريد أو عسك النخل

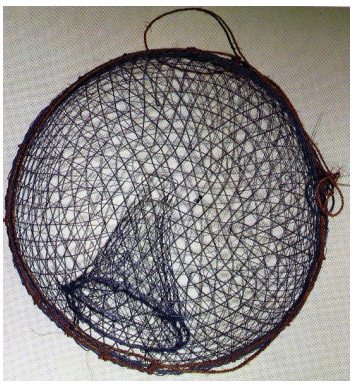

قرقور من الأسلاك المعدنيّة

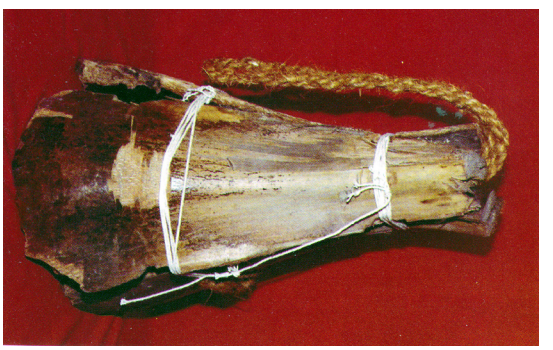

الجيبال من كربة

فعندما يريد الصيّاد أن يباري (يفحص ويعاين) القرقور إن كان فيه سمك أم لا، يطابق بالقارب جانب الكربة العائمة، ويسحب الحبل المربوط بها؛ ليخرج القرقور من الماء. فإن كان به سمكٌ، سحبه إلى داخل القارب، وأخذ ما فيه من سمك، من خلال فتحة على الطرف الآخر تُسمّى «بابه»، تفتح وتغلق. ولجذب السمك داخل القرقور توضع عجينة أو خبزٌ قديمٌ، أو أسماك العومة (السردين) أو المحار، وبعض الأعشاب والطحالب البحريّة، ثمّ يترك؛ كي يسقط إلى قاع البحر.

سمعت أنّه إذا كان شخص أو أكثر في حاجة ماسّة إلى سمك– وهم في سفينة في البحر– فيجوز لهم (عرفًا وشرعًا) أن «يباروا» قرقورًا لا يعرفون صاحبه، ويأخذوا منه السمك، بشرط أن يضعوا قيمة السمك في غرشة (قنّينة) يغلقونها، ويتركونها في القرقور.

طرق أخرى للصيد: شاهدتها في معيريض ولا خبرة لي بها.

الألياخ (مفردها ليخ)، وهي الشباك:
تنصب في البحر، وتترك لساعات قليلة ثمّ تسحب، وقد علقت بها الأسماك المختلفة. ولأنّ الأسماك التي تعلق بالشباك تموت وتتعفن، فلا يمكن تركها الى يوم آخر.

الضغي (جرف الأسماك بالشباك):
والواحدة ضغية أو ضغوة، ويستعمل لذلك القارب وغالبًا الشاحوف في معيريض. يرمى الشبك الكبير من عشرات الأمتار، المُثبت طرفاه بالحبال، من قارب في عمق البحر عشرات الأمتار عن السيف (الساحل)، ثمّ يُسحب طرفاه إلى الساحل، أوّلًا بقاربين، حتّى يقرب من الساحل، ثمّ يسحبه الصيّادون باليد. فتنحصر الأسماك محبوسة داخل الشبك حتّى اليابسة. وبهذه الطريقة تصطاد العومة (السردين) بشباك عيونها صغيرة.

السالية:
وهي طريقة محدودة الاستعمال في الإمارات؛ إذ يقوم شخص واحد بحمل شبكة دائريّة على كتفه، معلّق في حوافّها قطع صغيرة من الرصاص؛ فلمّا يرى مجموعة من الأسماك معًا، يصطادها بحذف الشبكة مفروشة عليها، ثمّ يسحبها وقد علقت بها الأسماك. مثل: الميد، والبياح، والشعم، واليَنم، والبدح. والصيد بالسالية يتمّ طوال مواسم العام.

السالية

بيع السمك:
لم يكن هناك سوق لبيع السمك آنذاك في معيريض، ولكن يشتريه الناس من القوارب القادمة من الصيد صباحًا مباشرة. كما أن السمك لا يباع بالوزن آنذاك، ولكن بالمشكاك؛ فالمشكاك مجموعة من السمك المشكوك بحبل أو خوص النخل، متعارف عليه، قريب من الكيلوين وزنًا. ولم أشاهد قط خلافًا على تقدير وزن المشكاك بين السماك والمشتري. وقيمة المشكاك الواحد أربع آنات؛ أي ربع روبيّة.

المشكاك

حفظ السمك وتخزينه:

تحفظ الأسماك عن التلف بالملح؛ لعدم وجود التثليج؛ إذ لم تكن هناك كهرباء في رأس الخيمة أيّام طفولتي؛ فقد يملّح السمك، ثمّ يجفّف في الشمس أو يعلّب. والسمك المجفيف (ويسمّى الكسيف) غير مرغوب به كثيرًا من قبل أهل معيريض، يشتريه سكّان الجبال والمناطق البعيدة عن البحر؛ لخفّة وزنه، وسهولة تعليقه بالحبال على ظهور الجمال أو الحمير.

كما تملّح وتحفظ الأسماك في صفائح؛ إذ يشقّ بطن السمكة الكبيرة كالقباب (التونة) والكنعد، ويقطع الرأس، وتملّح جيّدًا ثمّ تخزّن في الصفائح المعدنيّة؛ فكثرة الملح يسحب الماء من أنسجة السمك إلى داخل الصفيحة؛ فيصير السمك محاطا بالماء المالح في الصفيحة. وعندما تكون الرياح شديدة تمنع السمّاكين من دخول البحر للصيد؛ يضطرّ الناس لأكل السمك المملّح، ويسمّى (المالح) كما يسمّى (الطريح) لطرحه في الملح والصفائح.

أمّا الربيان (الجمبري) فهو يجفّف ويحفظ في أكياس لشهور عديدة، ويحتفظ بطعم جيّد عند طبخه.

تجارة البداة (تنطق الابْدَاه):

يجلب البداة –وهم بدو جبال رأس الخيمة– على الجمال لنا –نحن الساكنون قرب البحر– بضائع متنوّعة من إنتاجهم، مثل: الحطب للوقود، والأوعية الفخّاريّة والخزفيّة؛ كالبرام والخروس واليحلات والشربات والحسينات (جمع حسينة) والكيزان. كما يجلبون لنا الأغنام والدجاج والبيض والجبن والعسل. ومن الأشياء الغريبة التي أذكرها أنّ الباديات (نساء البداة)– بما التصق بسمعتهن «البدويّة» من التأخّر عن فنون الحضارة– كنَّ يجلبن أدوات الزينة (الميكياج) لنساء معيريض «المتحضّرات» مثل المباخر والبخور واللبان والحنّى والورس وكحل العين. والمرأة البادية نفسها تتزيّن بكلّ ذلك. ولا أذكر أنّي رأيت بادية دون كحل في عينها. وطريقتهم في صنع الكحل، هو تجميع ما تكدّس من الكربون الناتج عن دخان السراج المتراكم في بيوتهم الحجريّة على حجر فوق السراج، وخلطه بالزبدة حتّي يصير مرهمًا أسود فيتمّ التكحّل به بالمرود. والواقع أنّه يندر أن نرى حتّى البادي (رجل من البداة) بدون كحل في عينه.

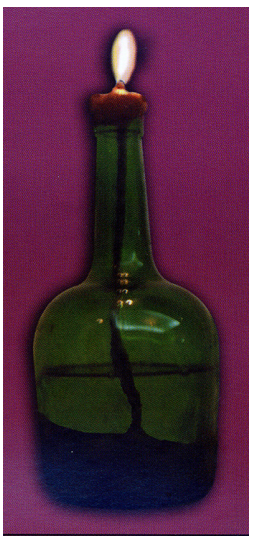

السراج

ولكن، لا يستعمل الرجل المرهم المذكور أعلاه للنساء، بل يستعمل الإثمد المسحوق من الحجر. وهم يعتقدون أنّ الكحل يحفظ العين ويقيها من العمى؛ وهو اعتقاد خاطئ، بل قد يكون مضرًّا للعين في المدى البعيد؛ لما فيه من شوائب الرصاص كما كشفت الدراسات.

وقد ذكرت تكحّل الرجال من البدو بالإثمد في لاميّة الخليج، قائلًا:

وبانَ على العينينِ آثارُ إثْمدٍ وما قصَدَ التجميلَ في ذلك الكُحْلِ[1]
بلِ القَصدُ حِفظُ العينِ والشَّوفِ عندَهم وما الكُحلُ عندَ البدوِ عيبٌ على الفحلِ[2]

والجدير بالذكر أنّ المرأة البادية تختلط بالرجال في مجتمعها، ولا تختبئ، أو تتغطّى عن عيون الرجال مثل نساء الحضر في رأس الخيمة. وكان للبداة باع في علاج الأمراض؛ فكانوا يجلبون لنا الأعشاب الطبّيّة، مثل: الزعتر، والفوطن، ولهم حذاقة وشهرة في تجبير الكسور والكي؛ فقد ذكرت لي والدتي أنّ أمّها مرضت مرضًا شديدًا، وأوشكت على الموت، ولم تستفد من العلاج الشعبيّ في مدينة الرمس، فاستعان جدّي بطبيبة شعبيّة من البداة (أمية)، فأتت بأدوات الكي وكوتها في بطنها؛ فشفيت من مرضها. هكذا روته لي أمي، ولكن قد يكون الشفاء طبيعي من حصانة المريضة، ولا علاقة بما فعلت البادية.

---

١. إثمد: مسحوق أسود حجريّ الأصل يستعمل للكحل.
٢. الشوف: النظر، وشاف الشيء: رآه (خليج).

يشتري البداة– بما كسبوا من تجارتهم في المدن– الأسماك المجفّفة من معيريض، ولا يمكنهم شراء الأسماك الطازجة؛ خوفًا من تلفها لبعد مساكنهم. وينتقلون في العبرات من معيريض إلى مدينة رأس الخيمة؛ لبيع بعض بضائعهم، ويشترون الثياب والبضائع الأخرى من أسواقها.

السمك المجفّف

تجارة البيادير:

البيادير ليسوا مجموعة عرقيّة أو قبيلة بهذا المعنى، ولكنّ التسمية نسبة إلى المهنة، وإن كانوا يسكنون في منطقة معيّنة وهي منطقة النخيل، ولكنّ البيادير جمع بيدار، وهو الفلّاح بلغة أهل الإمارات؛ ففي اللغة البَيْدَرُ: الموضعُ الذي يُدَاسُ فيه الطّعَامُ؛ وهو المكانُ المُرَشَّحُ لجَمْع الغَلَّةِ فيه. مع ذلك فإنّ جميع البيادير الذين قابلتهم أنا في منطقة شمل ينتمون إلى قبيلة أو مجموعة «الشميلي»، وقد يكون الاسم مشتقًا من اسم المنطقة «شمل» التي نصيف فيها؛ إذ إنّها منطقة قديمة وعريقة، وكانت قديمًا تصنع البرام والأوعية الخزفيّة، وتصدر إلى خارج رأس الخيمة بالسفن من منطقة المطاف والرمس. فالبيادير يجلبون منتجاتهم الزراعيّة– مثل الرويد (الفجل)، والبصل، والجزر، والقرع– إلينا في معيريض، ويقبلون بالتبادل بدلًا من البيزات (الدراهم)؛ فهم في حاجة إلى الطعام (نوى التمر)؛ لإطعام حيواناتهم، فيبيعون الخضروات بمثل وزنها طعامًا. ويشترون السمك الطازج من معيريض؛ لأنّ مساكنهم قريبة على بعد ساعة واحدة من معيريض، فلا يخافون تلفها.

الطعام في معيريض

سأتحدّث هنا عن طعامنا في معيريض أيّام طفولتي باختصار لعيالنا، ذاكرًا الأطعمة الرئيسيّة المهمّة؛ فالعناصر الأساسيّة المهمّة في طعامنا: التمر، والعيش (الأرزّ)، والخبز، والسمك.

كان العيش والسمك طعامنا الأساسيّ للغداء في بيتنا، وفي رأس الخيمة كلّها. واستبدال السمك باللحم نادر جدًّا عندنا، إلا في شهر رمضان والأعياد وعند قدوم الضيوف؛ وذلك لأنّ اللحوم غالية الثمن لمجتمع فقير مقارنة بالسمك المتوافر والرخيص. والتنويع في الغداء هو في طريقة طبخ العيش والسمك؛ مثل: العيش المشخول أو المكبوس أو المحمر، وما يناسب ذلك من سمك مشويّ أو مقليّ أو صالونة مثلًا. والعيش رخيص نسبيًّا، وتجلبه لساحل عمان السفن الخليجيّة من الهند وفارس.

إذا كانت الريح شديدة يتعذّر، على الصيّادين النزول في البحر لصيد السمك؛ فنأكل مع الرزّ السمك المالح المخزّن في صفائح مع الملح. كما أنّ أمّي تطبخ لنا الربيان المجفّف في الشمس والمخزّن للطوارئ، حتّى في أيام توفّر السمك؛ لأنّه لذيذ، ومازلت أحنّ إليه.

وكنّا نأكل الدجاج عندما يكثر عند أمّي من التفريخ، زيادة عن الحاجة للبيض والتفريخ. أمّا الديكة فلا تسمح أمّي بوجود أكثر من ديك واحد مع الدجاج، فمصير البقيّة الذبح للطعام. وقد يستبدل بالعيش أحيانًا خبز التنّور مع الصالونة، من سمكٍ كانت أو دجاجٍ. كما قد يستبدل بالعيش القمح أحيانًا، فتطبخ المضروبة مع السمك أو الجريش مع السمك، لا اللحم كما في دول عربيّة أخرى. وللجريش الخليجيّ يستعمل القمح المجروش (مكسّر)، بطحنه طحنًا خشنًا أو دقّه بالهاون الكبير.

فالأكلات الرئيسيّة في معيريض هي نفسها الأكلات الخليجيّة عامّة، وما زالت سائدة حتّى اليوم؛ لذلك لا حاجة لي بذكرها هنا. ولكنّي سأعلّق على بعض ما علق في ذهني من طعامنا ببيتنا في معيريض، الذي له أهمّيّة خاصّة لي، وكذلك الأطعمة التي بدأت تتلاشى من موائدنا، فلا أراها إلا نادرًا. وهناك حلويّات تعملها لنا أمّي، والآن نادرًا ما أراها، مثل: الساقو، والخنفروش، والخبيصة، والعصيدة، والبثيث، ولا معرفة لي في إعدادها.

أمّا البهارات فهي كثيرة ومتنوّعة، ولكنّ أمّي لا تضع لنا الفلفل الحارّ في الطعام؛ لأنّنا لا نرغب فيه.

الفُوَّالة:

من عاداتنا الخليجيّة أنّه إذا أتى زائر أو أكثر في غير أوقات الوجبات الرئيسيّة، كالضحى والعصر وأوّل المساء، يقدّم له ما يسمّى ب«الفُوّالَة». ولفظة الفوّالة قد تكون مشتقّة من الفأل الحسن الذي يستبشر به الناس؛ وهو طعام خفيف مع القهوة، كالتمر، أو الحلوى، أو الفواكه المعلّبة، أو البلاليط... .

ومن الجدير بالذكر أنّ صفريّة الحلوى العمانيّة كثيرًا ما تستعمل للفوّالة؛ لأنّ الحلوى جاهزة ولا تتلف بحفظها دون تبريد، فكثيرًا ما تقدّم قبل القهوة. وبعد وصول الكهرباء والطائرات صارت الفوّالة المفضّلة هي الفواكه المستوردة من الخارج. والآن– وبعد توفّر أنواع كثيرة ومختلفة من الأطعمة، وزيادة اهتمام الناس بالصحّة، وتجنّب زيادة الوزن– تكاد تكون الفوّالة قد انقرضت من معظم بلدان الخليج. أذكرها هنا؛ ليعلم بها الجيل الجديد من عيالنا.

وأذكر– في ساحل عمان– عندما توضع الفوالة للضيف، يدعوه المضيف لتناول الفوّالة، لا بنفس الطريقة لتناول الوجبة

الرئيسيّة، كأن يقول تفضّل أو كل، بل يقول له «إهْبِش» وهي لفظة عربيّة تستعمل في ساحل عمان للفوالة فقط، ولم أسمعها في بقيّة الخليج. فاهبش تعني: تناولْ من هذا الطعام البسيط. وكلمة «يَهبش» في اللهجة الجزائرية معناها: يخطف أو ينتزع الشيء. وفي الفصحى: هبَش المالَ: جمَعه وكسبه.

ملح الطعام:

الملح المستخرج من البحر

أمّا الملح فالمجتمع الذي يعيش على ساحل البحر يميل إلى الإكثار من ملح الطعام. وقد يكون العيش قرب البحر له تأثيره في ذلك، وكذلك لتعوّدنا على أكل السمك المملّح «المالح». ومع أنّ ذلك المالح يغسل بالماء؛ للتخلّص من الملح الكثير، إلا أنّ المتبقّي منه أكثر ممّا يجب لحفظ الصحّة؛ فلذلك أتوقّع أنّ الملح الزائد– لما له من تأثير على ارتفاع ضغط الدم، ومضاعفاته من أمراض الشرايين والقلب والكلية والدماغ– كان من «أسباب» تقصير عمر الناس آنذاك، والأعمار بيد الله.

لم يكن ملح الطعام في معيريض يستورد من الخارج قديمًا، بل كانت طبيعة البيئة البحريّة الحارّة تنتجه دون عناء؛ فعندما يسقي (يمتدّ) البحر كثيرًا في بعض الأشهر، إلى مناطق اليابسة المرتفعة بعيدًا عن البحر. ثم يثبر (ينحسر) البحر، تبقى بعض مياه البحر محبوسة، بعيدًا عن البحر لعدّة أسابيع أو أشهر، تجفّ بحرارة الجو؛ فتتكون ألواحًا من الملح، يقطّع ويؤخذ للطعام، كما أنّه يباع في الأسواق على شكل ألواح رخيصة. وقد شاهدت ذلك في معيريض قديمًا.

ولأنّ أرض معيريض كلّها رمليّة، كنت أرى الرمل خلف ألواح الملح الموجودة في مطبخ بيتنا. فكانت أمّي تزيل الرمل من قطعة اللوح، ثمّ تدقّها وتسحقها في الهاون للطعام. ورأيتها– أحيانا– تقطّع قطعة صغيرة من لوح الملح، وتنظّفها، ثمّ ترميها مباشرة في القدر.

الخبز:

لم نكن نشتري أيّ نوع من أنواع الخبز؛ فأمّي تخبز لنا، وما أخبركم عنه هو ما شاهدت أمي تفعل. وقد تحدّثت بإسهاب عن خبز التنّور (ص٥١)، والآن سأتطرّق إلى الأنواع الأخرى من الخبز، التي كانت تعدّ للإفطار، ونادرًا لفوّالة الضويف، في غير أوقات الوجبات الرئيسيّة. ويتمّ خبز هذه الأنواع باستعمال التاوة.

أنا لست خبيرًا بأنواع الخبز، ولا في خبزها، ولكنّي سأكتب لعيالنا الذين لم يعاصروا هذه الأكلات مختصرًا عن أهمّ أنواع الخبز في معيريض، الذي أذكره من مشاهدتي لأمّي فقط.

١. خبز الرقاق:

هو أشهر أنواع الخبز عند العرب، ومعروف لديهم منذ العصر الجاهليّ. وتخبزه أمّي على التاوة؛ من أجل رمضان، في الأسبوع الأخير من شهر شعبان. ويقتصر استعمال الرقاق على عمل الثريد في شهر رمضان. وبعد عيد الفطر ننسى الرقاق حتّى شهر رمضان التالي.

٢. خبز المحلا:

يخلط الطحين مع البيض والزعفران والهيل دون خميرة، ويكون سائلا رقيقًا نسبيًّا، عندما يصبّ على التاوة.

٣. خبز الخمير:

اكتسب ذلك الاسم من ضرورة وضع الخميرة في العجين. وخبز الخمير يعدّ للإفطار عادة؛ إذ تبدأ أمّي في إعداده بعد صلاة الفجر؛ ليكون جاهزًا لإفطارنا عند شروق الشمس.

٤. خبز الجباب:

كتابة الكلمة الخليجيّة (جباب) بالفصحى صعبة؛ لأنّ الحرف الأوّل ليس جيمًا، وكتابتها بالكاف (كباب) أقرب، لكن

كباب اللحم ينهاني عن ذلك؛ ففي لهجتنا الخليجيّة ننطق الكاف كالجيم الأجنبيّة. وتلفظ الكاف كتاء ساكنة بعدها شين «تشباب». وأخمّن أنّ الاسم مشتقّ من (كبَّ) أي صبَّ؛ لأنّ عجينتها سائلة؛ لكثرة الماء، فتُكبّ على التاوة؛ أي تصبّ عليها، وتفرش باليد (قديمًا). وإذا استوت الجهة السفلى الملاصقة للتاوة، قلبت، وكأنّها كُبّت على وجهها؛ لذلك فالاحتمال الآخر أنّ الاسم مشتقّ من كبَّ الشيء أي قلبه؛ إذ إنّ الخبز يقلب على النار. (فكلمة كبَّ لا تفارقها).
وعجينة هذه الخبزة تخرج منها فقاعات وهي تنضج؛ بسبب الغاز الناتج عن تخمّر العجين؛ لذلك تظهر عليها ثقوبٌ، مثل الجبن السويسريّ. (انظر الصورة أعلاه). ويؤكل الجباب مع السكّر، أو الدبس، أو العسل والجبن.

الرقاق

المحلا

الخمير

الجباب

وهذا يكفي عن الخبز، وسأذكر الآن– باختصار– أكلات أخرى رأيتها في بيتنا.

الجامي (الكامي):

الجامي: هي المادّة المترسّبة من تسخين اللبن المخيض؛ إذ يتكثّف اللبن بتأثير الحرارة وينفصل عن الماء. ويؤكل الجامي مع التمر أو الرطب. وأصل الكلمة «كامي» قلبت الكاف جيمًا أعجميّة؛ أي (التاء مع الشين)، وكثيرًا ما يقلب أهل الخليج– ما عدا العمانيّين– الكاف هكذا؛ فإذا نطقنا– مثلا– كلمة «كلب» قلنا «تشلب»، وأظن أنّ كلمة كامي مشتقّة من كمَّ أو أكمى الشيء؛ أي غطّاه؛ إذ إنّ الكامي يغطّي جزءًا من فردة التمر. والألذّ أن يُصبّ عليه الدهن البلديّ، ويؤكل مع الرطب أم التمر.

العرسي:

ويسمّيه البعض خطأً هريس دجاج؛ وهو ليس كذلك؛ فالهريس هو المعمول من القمح واللحم، الذي يكاد يكون مقصورًا على شهر رمضان. وقد عرف العرب الهريس منذ العصر الجاهليّ، ولكن أطلق العرب الأوائل لفظة الهريس على الحبّ، والهريسة على الطعام؛ ففي اللغة: الهَرِيسُ: الحَبُّ المدقوقُ بالمهراس من قبل أَن يطبخ، والهَرِيسَةُ: طَعَامٌ يُطْبَخُ مِنَ الْقَمْحِ الْمَدْقُوقِ وَاللَّحْمِ.
أمّا العرسي فلا يعمل إلا من الرز والدجاج، لا القمح واللحم. وسمعت من كبار السنّ أنّ هذه الأكلة كانت أصلاً تقدّم للعريس وعروسه في أوّل صباح بعد ليلة العرس؛ ومن ذلك أتت التسمية. ولكنّه الآن يعمل للإفطار في أيّ وقت. وأيّام دراستي– في الولايات المتّحدة– كنت أعمله؛ لإفطار أصدقائي صباح الأحد أحيانًا. والثابت أنّ العِرسي عمانيّ الأصل، كما أنّ أغلب الأطعمة في الإمارات شائعة في كلّ من عمان والإمارات.

كانت عمان إمبراطوريّة كبيرة؛ امتدّت إلى سواحل إفريقيا وإلى شرق الجزيرة العربيّة، لكنّ بريطانيا عملت على انفصال ساحل عمان الشماليّ عن الإمبراطوريّة العمانيّة عام ١٨٢٠ ميلاديّ. مع ذلك، عندما كنّا أطفالاً درسنا أنّ اسم منطقتنا هي (ساحل عمان)، حتّى وهي تحت الحماية البريطانيّة. ولقد كان أغلب أبناء الإمارات يفتخرون بعمانيّتهم. ولمّا كنت أحمل جواز سفر من رأس الخيمة قبل الانتقال إلى قطر، كانت جنسيّتي– في جواز سفري– «عمانيّ». أذكر ذلك جيّدًا، لأنّي كتبت الجواز بخطّ يدي، ثمّ وقّع عليه الشيخ صقر رحمه الله. وأثناء دراستي– في الكويت– كنت مع بقيّة طلبة ساحل عمان أعضاءً في منظّمة الطلبة العمانيّين. وكنت سعيدًا بذلك؛ لأنّنا أصبحنا أكثر عددًا، وأقرب لطموحاتنا في الوحدة العربيّة. ويا ليت كلّ أبناء الخليج يحملون جواز سفر خليجيّا موحّدا.

ولمّا استقلّت إمارات ساحل عمان عن بريطانيا سنة ١٩٧١ أطلق عليها «الإمارات العربيّة المتّحدة». وصار المواطن «إماراتيّ» وبعض الشباب الذين ولدوا في الإمارات بعد الاستقلال لم يقبلوا بأنّ آباءهم كانوا عمانيّين.

ولإثبات ما أقول، نرجع إلى الشعر الذي يحفظ لنا التاريخ؛ فشعر المرحوم الشيخ صقر بن سلطان القاسميّ، حاكم الشارقة الأسبق، المكروه من الإنجليز؛ لوطنيّته وشعوره العروبيّ القوميّ الوحدويّ، سجّل لنا مشاعر الآباء؛ إذ قال– سنة ١٩٥٤– في قصيدة (عمان):

عُمان وحقّك يا موطني وأعظمْ بحقّ الوفا، من قسمْ
سأحيا لحبّكَ رغمَ الظروفِ ورغم الخطوبِ ورغم الألمْ

وقال فيها عن جلفار (رأس الخيمة):

بقايا الدماء على جلّفار تسطّر ما لا يروم القلمْ[1]
فيا وطني لا هنائي المنام وبين الحنايا بقايا نسَمْ

وقال– سنة ١٣٦٨هـ–:

وطني منبتُ الكرامِ عُمانُ وغياثُ المنكوبِ من كلّ بؤسِ

وقد وجدت دواوين شعر الشيخ صقر في مكتبة الوالد، وقد كتب للوالد إهداء في ديوانه (وحي الحقّ) بقلمه:

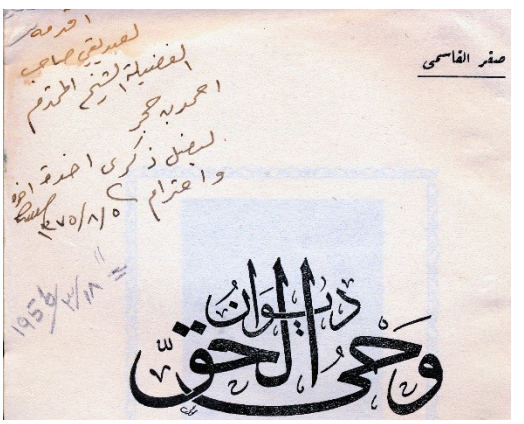

نعود الآن إلى الطعام في معيريض.

البلاليط:

البلاليط أفضل طعام للإفطار عندي. ويقال: إنّ الشعيريّة التي تدخل في إعداد البلاليط هي صينيّة الأصل، وأكل الصينيّون البلاليط بالسكّر، مثلنا. وهي سهلة وسريعة الإعداد، حتّى إنّني كنت أعملها في شقّتي أيّام الدراسة في كلّيّة الطبّ، مع العرسي، وأدعو بعض أصدقاء؛ للإفطار عندي على البلاليط والعرسي. ولا بدّ من فرش البيض المقليّ فوق البلاليط.

---

١. يروم: باللهجة العمانية أي يقدر

سأختتم هذا الفصل بأبيات في (لاميّة الخليج) ذكرت فيها أنواع الأطعمة التي كانت أمّي تعدّها لنا –أحيانًا– للإفطار، قائلاً:

وكم خبزت أُمّي محلّى وأحضرتْ ... جبابًا عليه البيضُ في سطحهِ العلّي[1]
وحطّت بلاليطًا حسبتُ خيوطهُ ... بصينيّة الإفطار تبرًا على تلّ[2]
وألقت ببيضٍ كالمُلاءةِ فوقَهُ ... لُجَينٌ حواشيها مُذَهّبةُ الأصلِ[3]
وجاءت بقوطي الجبنِ من عنز بيتنا ... وغرشةِ ذي رطلين من عسل النحلِ[4]
وإن أحضرت أيضًا خميرًا وعرْسيًا ... فقد أسرفت واللهِ بل معَدت أهلي[5]
ونأكلُ أحيانًا جَرادًا محمّسًا ... له طعمةُ الكفيارِ في زمنِ المحلِ[6]
ونشرَبُ شايًا معْ حليبٍ معطَّرٍ ... بحبّاتِ هالٍ والحليبُ لنا مَحلي[7]
ويا حبّذا الكامي مع التمر في الضّحى ... ونَخّي وباجِلاً غرامٌ لدى الطفلِ[8]

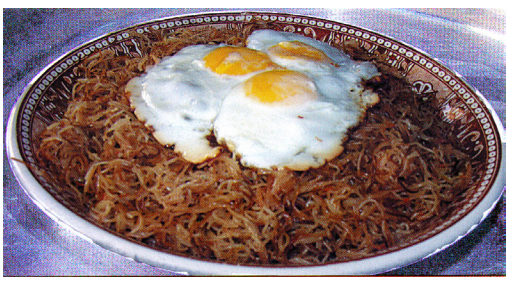
البلاليط

الكامي

الباجلا والنخّي

---

١. محلّى: خبز خليجيّ محلّى بالسكّر. كِباب: (الجباب) خبز خليجيّ. العِلّي: أعلى مكان والمقصود هنا السطح العلويّ.
٢. بلاليط: شعيرية (خليج).
٣. لجين: فضّة.
٤. القوطيّ: العلبة (خليج). غرشة: قارورة زجاجيّة (خليج).
٥. خمير: نوع من أنواع الخبز الخليجيّ. عرسي: هريسة من الرزّ والدجاج، مَعَد: أصاب المعدة بمرض.
٦. المَحْل: الجوع الشديد أو الجدب.
٧. مَحْلي: محلّى بالسكّر.
٨. الكامي: (مذكور أعلاه). النخّي: الحمّص (خليج) والمقصود هنا الحمّص المغلي. الباجلاّ: أو الباجلّة كلمة خليجية متداولة في كلّ الخليج، وأصلها اللغويّ الباقلاء؛ أي الفول، ولكن غالبًا ما نقلب القاف جيمًا في الخليج، فمثلاً الاسم «قاسم» نلفظه ونكتبه جاسم، كذلك إمارة الشارقة نلفظها الشارجة. وفي المثل الخليجيّ «الرفيج قبل الضيج» أي: الرفيق قبل الضيق.

الأمن في معيريض

إذا استثنينا الخوف في الظلام من الجنّ والعفاريت، فإنّنا كنّا نعيش في معيريض في أمن واطمئنان؛ لم نسمع بجريمة قتل أو سرقة أو اغتصاب فيها، أيّام طفولتي وصباي قطّ. ولم يكن في القرية شرطة أو رجال أمن؛ لعدم الحاجة إليهم. كنّا نعيش في مساكن بسيطة من جريد النخل، أبوابها خشبيّة في الغالب، ولكن تُصنع أبوابٌ من الجريد للعشش الصغيرة، ومثل عرش الصيف قرب النخيل؛ فالأبواب غير منيعة على اللصوص، ولكنّها تمنع الحيوانات من الدخول. والدليل على أنّ الأبواب لمنع الحيوانات، أنّي رأيت في رأس الخيمة وعجمان الكثير من أبواب البيوت المعمولة من الجصّ والحصى، أنّ الباب مغلق من الداخل، لكن له حبل أو سلك ممكن لأيّ شخص أن يسحبه من الخارج ليفتح الباب ويدخل، ليلاً أو نهارًا. طبعًا هذا معمول للأهل والأقارب، لكن، لو كان هناك لصّ فيمكنه أن يدخل أيضًا. ولكنّ الإحساس بالأمن نابع من معرفة الناس بالمواطنين، ولم تكن هناك عمالة أجنبيّة في البلدة. حتى– وأنا صبيّ– أكاد أعرف كلّ الرجال في معيريض. ولم أسمع قطّ بوقوع سرقة فيها؛ لأنّي ابن القاضي الذي تنتهي إليه الخلافات والقضايا المهمّة ليحكم فيها، ومجلسه يقوم مقام النادي الذي يلتقي فيه بعض رجال الحيّ عصرًا، يتداولون الحديث عمّا يجري في البلاد من قصص وأخبار. كما أنّ وجود خصوم في المجلس، يتحاكمون، لا يمنع الضيوف والزائرين من دخول مجلس القاضي والاستماع للمحاكمة.
وأمّا مصدر العيش الرئيسيّ لسكّان رأس الخيمة، فهي التجارة مع الهند وإفريقية ودول الخليج في السفن الكبيرة، وكذلك الغوص على اللؤلؤ، وصيد الأسماك.

في موسم السفر والغوص تكاد المدينة تخلو من الرجال القادرين على العمل لعدّة أشهر، ولا يبقى إلا النساء والأطفال وكبار السنّ، والقليل من صيادي السمك، ولا يسبّب ذلك قلقًا على الأمن بين الأهالي.
وقد تكون من الأسباب الأخرى للأمن وعدم وجود السرقة، هو أنّ الناس في الغالب فقراء، لا يملكون ثروات تغري اللصوص. والمواطنون متعارفون؛ لقلّة عددهم، فكأنّهم عائلة واحدة، لا غريب بينهم ولا عمالة أجنبيّة؛ فإذا دخل غريب المدينة، فإنّه يلفت الأنظار وحبّ الاستطلاع؛ فينظر إليه أين ذهب، ويسأل عمّا يبحث عنه؛ بغرض مساعدته إن كان تائهًا. أمّا في الليل الذي يرتكب فيه اللصوص جرائمهم عادة، فيستحيل على غريب أن يدخل المدينة في الظلام بدون دليل من أبنائها.
فمعيريض شبه محصّنة بالبحر الذي يحيطها من الجنوب والغرب دائما، وأمّا الشمال والشرق، فعندما يطفو البحر– أحيانًا– في منتصف أو نهاية الشهر العربيّ، يطوّقها جزئيًا؛ فالخوف هو من البداة (البدو) سكّان الجبال، أن يغيروا وينهبوا من شرق القرية؛ لذلك هناك برج حراسة محصّن، وبه شرطة مسلّحة، يطلّ على شرق المدينة، وحوله فضاء، يسهّل رؤية القادم إلى معيريض من بعيد. أمّا المناطق الأخرى، فالبحر يمنعهم؛ لأنّ سكّان الجبال لا يحسنون دخول البحر والسباحة.

فالأمن والاطمئنان الذي ذكرته في معيريض، ينطبق على مدينة رأس الخيمة أيضًا، ولكن لا ينطبق على كلّ مدن وقرى رأس الخيمة؛ فمدينة الرمس– مثلاً– لم تكن محصّنة، وقريبة من الجبال التي يقطنها البداة؛ لذلك لم تكن آمنة. ولقد

أخبرني الشيخ صقر حاكم رأس الخيمة– قبل وفاته بسنة– أنّ سبب دخوله مدينة الرمس سنة ١٩٤٨ بجيش، وطرد واليها منها بالقوّة– بعد تولّيه الحكم– هو الحاجة لاستعمال القوّة والصرامة؛ لاستتباب الأمن والقضاء على السرقات والنهب، التي كانت تتعرّض له المدينة آنذاك.
والسبب الطريف في سؤالي الشيخ عن حادثة الرمس أنني كنت أسمع أمّي (الرمسيّة) تنتقد الشيخ صقر مرارًا؛ لأنّه غزا الرمس وطرد شيخها الرمسيّ. وكنتُ قد صلّيت الجمعة في مسجد الشيخ صقر، ثمّ مشيت مع عياله قربه، وهو يُدفع في كرسيّ متحرّك، وكان قد بدأ عليه ضعف الذاكرة. قلت له مازحًا: إنّ الناس كانوا يلومون الرئيس صدّام حسين على غزوه للكويت، وأنت غزوت الرمس أيضًا، فلماذا فعلت ذلك؟ فضحك الشيخ، وأجابني إجابة لم أتوقّعها منه؛ إذ قال: «غزوت الرمس بفتوى من أبيك»! فضحك الجميع؛ لأنّ والدي كان القاضي والمفتى للشيخ آنذاك. فقلت له: لا بأس، لكن أخبرني عن السبب الحقيقيّ. فأخبرني بما ذكرت عن انعدام الأمن في القرية.

أمّا الطرقات النائية في البراري وقرب الجبال، فلم تكن آمنة تمامًا، مع ما اشتهر به الحاكم الشيخ صقر من الشدّة والصرامة؛ فلا يجرؤ مسافر أن ينقل معه أشياء قيّمة دون أن يكون مسلّحًا في مثل تلك الطرق؛ فالبدو الذين اشتهروا بإكرام الضيف وحمايته، لا يتردّدون في الغارة على المسافرين ونهبهم، بل قتلهم إن دعت الحاجة للفوز بالغنيمة والهرب، كلّما سنحت لهم الفرصة. وهم لا يعتبرون ذلك عيبًا، بل رجولة، وكسب عيش كما كان يفعل العرب قديمًا قبل الإسلام. والبادي نفسه لا يشعر بالأمان؛ لذلك لا يُرى في الطرقات إلا وهو لابس خنجرًا في وسطه، ومتحزّمًا بالرصاص، وبندقيّة فوق كتفه، وجرزًا (عصا في رأسها فاس صغير) في يده. والبادي يشعر وكأنّه عارٍ من الثياب إذا خرج دون ذلك السلاح؛ حتّى في مجلس والدي (المحكمة) يأتي البادي بكلّ ذلك معه، ولا يعترض عليه أحد لأن ذلك لباسه.

أذكر– وأنا صغير في شمل– أنّ أمّي كانت تخوّفني –في أشهر الصيف– من الخروج من العريش في وقت القيلولة، بشخص اسمه «بو الروّاف» يسرق الأطفال. وعرفت فيما بعد أنّه تمّت بالفعل سرقة عدد من الأشخاص الأحرار أيّام طفولتي، ونقلهم إلى منطقة البريمي في عمان، ثمّ بيعهم في المملكة العربيّة السعوديّة عبيدًا. وكان ممّن سُرق، طفل مع أمّه؛ راشد بن أحمد المناعيّ، وهو أحد أقرباء الوالدة، وبيع في السعوديّة. ولقد التقيت به بعد تحريره وعودته إلى رأس الخيمة.
ففي منطقة النخيل هذه، لا في معيريض، كنت أسمع– أحيانا– عن سرقة عنزة أو حمار، ويتّهم بها البداة (البدو). فيؤجر من يقتفي الأثر، الذي ينجح –أحيانًا– للوصول إلى اللصّ فيقبض عليه. ولا أذكر أنّ والدي أصدر حكمًا في رأس الخيمة بقطع يد سارق أو قتلِ قاتل، ولكنّ الحاكم الشيخ صقر أمر بتمييل (إقلاع) عين سعيد البادي دون أخذ رأي الشرع، بتهمة التعاون مع اللصوص، وهو والي منطقة. ولقد رأيت سعيد البادي– وأنا صبيّ، بعد ذلك– عابرًا في عبرة (قارب) معنا من معيريض إلى مدينة رأس الخيمة، ولاحظت مكانَي العينين المقلوعتين خلف نظّارة شمسيّة سوداء. والسبب في تمكّني من رؤية ما خلف النظّارة أن سعيدًا كان طويلاً، وأنا كنت صغيرًا أقف أمامه وقريبا من قدميه؛ فأنظر إلى أعلى خلف النظّارة. ومع أنّ مكان العينين كان مقزّزًا، ولكنّي تأثّرت وأسفت كثيرًا لذلك العقاب المؤلم.

النشاط الدينيّ في معيريض

نشاط الوالد الدينيّ:

كان للوالد النصيب الأكبر في النشاطات الدينيّة، كالخطب في المساجد، والحديث في رمضان، ليس في معيريض فحسب، بل في مدينة رأس الخيمة كذلك، وفي منطقة العريبي صيفًا حيث يصيف الشيوخ. ولأنّه كان «قاضي رأس الخيمة وتوابعها»، ومفتي الديار، وكان المرجع الدينيّ للبلاد.

درَّسَ مجموعات كثيرة من الطلبة، علومًا إسلاميّة، كالحديث، والتفسير، والفقة، وكذلك علم النحو، في مجلسه مجّانًا.

كان يؤمّ المصلّين في كلّ الفروض في المسجد القريب من بيتنا، وكان خطيبًا ليوم الجمعة في معيريض، وأحيانًا في مسجد الشيوخ في العريبي، وكان يحدّث بعد صلاة التراويح في معيريض غالبًا، وفي رأس الخيمة أحيانًا.

وكان النّاس يستفتونه في مجلسه في أمورهم الدينيّة والزوجيّة، والإرث. وترجع إليه بعض العائلات طوعًا، للصلح أو الحكم في خلافاتها العائليّة. وكان راتبه ألفا ومئتين روبيّة سنويًّا، مقابل وظيفته قاضيًا، ويعتبر كلّ تلك الأنشطة– كالتعليم والإمامة والخطابة– لوجه الله، فلا يأخذ أجرًا.

وفي حالات النزاع والخلافات الكبيرة، يتقدّم المشتكي إلى الحاكم بالشكوى على الخصم، فيحضر الحاكم المتخاصمين، ثمّ يحولهم إلى القاضي؛ ليصدر حكمًا رسميًّا، ثمّ يرسله إلى الحاكم؛ ليأمر بالتنفيذ. ولكنّي رأيت الكثير من الخصوم في إمارة رأس الخيمة، يأتون مباشرة للوالد؛ للحكم بينهم، دون شكاوي رسميّة عند الحاكم؛ فيحاول أن يصلح بينهم أولاً، فإن لم يقبلوا، أصدر حكمًا شرعيًّا، لهم، لا يرسله للحاكم؛ فإذا لم يلتزم خصمٌ بالحكم، قدّم غريمه شكوى عند الحاكم، فيرغمه حسب حكم القاضي.

وكان يقوم بعقود النكاح في مجلسه– نادرًا– إذا طلب أهل المعرس؛ لأنّ كلّ أئمّة المساجد يقومون بعقود النكاح، دون الحاجة إلى أوراق رسميّة.

الوضوء:

تعوّد أغلب الرجال– في معيريض عدا الأغنياء– الوضوء بماء البحر في غير أوقات الشتاء، إن كانوا خارج البيت، وبالأخصّ لصلاة المغرب، كما كنت أفعل منذ طفولتي. أمّا إذا كانوا في البيت فيتوضّؤون بالماء الخريج من طويّ الدار؛ وذلك لتوفير الماء العذب للشرب. أمّا النساء فيستعملن الماء الخريج، أو القليل من الماء العذب.

المساجد:

كان في معيريض خمسة مساجد، أيّام طفولتي حسب ذاكرتي:

١. كان الوالد يخطب في مسجد صغير قرب منزلنا. أمّا أكبر مساجد معيريض فبعيد عن بيتنا، في الحيّ الجنوبيّ، قرب بيت فضيلة الشيخ عبد الله بن سلمان، مشيّدًا بالحجر والجصّ، وتقام فيه صلاة الجمعة. ويؤمّ فيه الشيخ عبد الله بن سلمان– رحمه الله– ويخطب فيه. وأحيانًا يخطب الوالد فيه إذا غاب الشيخ ابن سلمان.

٢. مسجد أصغر، مبنيّ من الجصّ، قرب بيت السركال، تقام فيه صلاة الجمعة، ويؤمّ فيه المطوّع الأصمخ (الأصمّ) أحمد بن عيسى، ويخطب فيه يوم الجمعة، وهو ليس من طلبة العلم، ولكنه يعرف القراءة. والأصمخ في اللهجة

الخليجيّة لها أصول فصيحة؛ فصِماخ الأذن في الفصحى: قناة الأذن الخارجيّة التي تنتهي عند الطَّبْلة.
٣. وقرب بيتنا جنوبًا– بجانب بيت جارنا عبد الرحمن (العري)– مسجد متوسّط الحجم؛ من سعف النخل، تقام فيه صلاة الجمعة، ويخطب فيه الوالد غالبًا.
٤. أمّا الرابع، فكان صغيرًا؛ للفروض فقط، في شمال القرية، وهو مسجدنا الذي يصلّي فيه والدي؛ فكان منزلنا بين المسجدين الأخيرين.
٥. مسجد صغير جدًّا، في أقصى جنوب معيريض؛ للفروض، لا أذكره، بل أخبرني عنه السيّد محمّد بن مطر آل خالد، يسمّى (مسجد مصبح) جنوب مسجد بن سلمان.

سأذكر –بالتفصيل– المسجد الرابع– مسجدنا– الذي كان الوالد يؤمّ فيه المصلين، وكنت أصلّي فيه. وأذكره جيّدًا؛ فهو مبنيّ على شكل خيمة كبيرة من سعف النخل، مغطّى بدعون (فرش من الجريد النخل) والحصران، وتقام فيه الصلوات كلّها أثناء الشتاء. أمّا في بقيّة المواسم فتقام فيه صلاة الفجر والظهر والعصر. أمّا المغرب والعشاء فتقامان على الرمل، في ساحة فضاء أمام بابه. والغريب أنّ صلاة العشاء تقام فيه في الظلام؛ إذ لم يتبرّع أحد بسراج من الكيروسين لمساجد في معيريض آنذاك. ولم يكن للمسجد إدارة أو موظّف يعتني به؛ فالمؤذّن متبرّع بالأذان وإقامة الصلاة لوجه الله، وكذلك الأمر مع الإمام. وقد تعوّد المصلّون على ذلك، وليس هناك حاجة للرؤية أثناء الصلاة. وأذكر وجود نعش خشبيّ قرب المحراب من الخارج.

والصلاة في الفضاء خارج المسجد تتمّ على حصيرين أو ثلاثة، وسجادة للإمام يفرشها المؤذّن. ولكن عدد المصلّين على الرمل مباشرة أكثر من المصلّين على الفراش. وكنّا نحن الصغار نصلّي على الرمل، ونفسح المجال لمن هم أكبر منّا للصلاة على ذلك الفراش المتواضع. وكان الرمل نظيفًا، والشمس تحرقه طوال النهار. وعن ذلك الرمل قلت في اللاميّة:

ومن ضرَّهُ ماءٌ تيمّمَ بالثرى ... يُعَفِّرُ كفّيهِ برملِ النقا الطَّفلِ[١]
وفوقَ حَصيرِ الخُوصِ نسجُدُ خُشَّعًا ... فإن لم نجدْ خوصًا سجدنا على الرمْلِ
فليس بذاكَ الرملِ شيءٌ يَعِيْبُهُ ... مَشينا عليه من قديمٍ بلا نعلِ
فقد كان ذاكَ الرَّملُ كالبحْرِ طاهرًا ... يُصلّي عليهِ الخلقُ للهِ من قبلي
ونَرْبُعُ فوقَ الرملِ والرَّبْعُ كلُّهمْ حفاةٌ ... فلم نُجرحْ بعودٍ ولا نصْلِ[٢]
وبعدَ صَلاةِ الليلِ نلعَبُ في النّقا ... نتِلُّ رِفاقَ العُمرِ مزحًا إلى التّلّ[٣]
فيا حبَّذا تلك الرمالُ وأهلُها ... رَبِيْنا عليها بالمحبَّة والجَذْلِ
ونسهَرُ فوقَ الرملِ والبدرُ ساطِعٌ ... تجودُ لنا الأمواجُ بالعزفِ والطّلّ[٤]
ولو غابتِ الأقمارُ ما غابَ جمعُنا ... لأنَّ نجومَ الليلِ في شرقِنا تُسلي
فَرَشْتُ وِزَاري في الترابِ وتحْتَهُ ... وِسادةُ رملٍ وانسدحتُ على مَهلِ[٥]

وذكرى صلاة المغرب على ذلك الرمل أيّام الصبا عزيزة عليَّ، أحنّ إليها، وقد قلت في قصيدة (ذكريات الصبا):

وبدا شريطُ الذكرياتِ يسيرُ بي ... نحوَ النخيلِ وعرشِنا والوادي
والبحرِ والسيفِ الجميلِ ورملِنا ... ومؤذّنٍ بعد الغروبِ ينادي
كم كنتُ في امعيريضَ أغفو في المَسا ... والرملُ فيها مَرقدي ووسادي

---

١. النقا: الرمل. الطَّفْل: الناعم.
٢. الرَّبعُ: الأصدقاء (خليج)، ورَبعَ الرجلُ يربُعُ رَبْعًا: ركض.
٣. نتِلُّ: نسحبُ (خليج) وفي اللغة تَلَّه: ألقاه على عنقه أو صرعه.
٤. الطلُّ: الندى.
٥. الوزار: كلمة خليجيّة أصلها اللغويّ الإزار، قلبت الهمزة واوًا للتخلّص منها؛ فالوزار الملحفة التي يلتحف بها الصبيّ أو الرجل من منطقة السّرة إلى القدم. انسدح: استلقى، وهي فصيحة احتفظ بها الخليجيّون فقط، وأصل السدح: ذبحك الحيوان وبسطه على وجه الأرض، وإضجاعك الشيء على الأرض سدح (العين).

وكان الرمل عند المسجد نظيفًا جدًّا وطاهرًا، يتيمّم به المصلّي إذا اضطرّ. وبعد صلاة العشاء ألتقي مع أقراني من الصبيان فوق تلّ صغير من الرمل يبعد عشرين مترًا عن المسجد؛ فنتّفق على الجلوس وتبادل القصص والحكايات أو نطلب من أحد كبار السنّ أن يخرّفنا، أو نتّفق على بعض الألعاب المسائيّة. جميع الخطباء كانوا يقرؤون من خطب مكتوبة. وكان الشيخ عبد الله بن سلمان خطيبًا جيّدًا وقاضيًا متعلّمًا، أمّا المطوّع الأصمخ فكان يعرف قراءة القرآن والخطب المطبوعة، قراءة آليّة، لا يفقه معناها. كان يقرأ الخطب المتوافرة في المسجد من كتيّبات صفراء طبعت أيّام العثمانيّين. وأذكر أنّه في الخطبة الثانية كان يقرأ الدعاء: «اللهمّ انصر الخاقان بن الخاقان وأيّد عساكره» كما ذكرت سابقًا، فيردّد المصلّون: آمين. ولم يكن فينا من يعرف من هو الخاقان الذي كنّا ندعو الله كي ينصره آنذاك.

وبعد أن عرفنا– نحن الرعيل الأوّل من طلبة المدرسة– الكتابة والقراءة، وتابعنا أخبار حرب السويس على مصر سنة ١٩٥٦، وعلوّ شعبيّة الزعيم جمال عبد الناصر أحببناه، وقرّرت أن أصارح زملائي الصغار بخطّة كنت أفكّر فيها فوافقوا. التقينا صباح أحد أيّام الجمعة في المسجد الذي يخطب فيه المطوّع الأصمخ (الأصمّ) أحمد بن عيسى، فأخذت الخطب الصفراء ومحوت اسم الخاقان بن الخاقان منها، وكتبت بخطّ يدي مكان اسم الخاقان (جمال بن عبد الناصر) بخطّ واضح. وقرأ ذلك اليوم المطوّع في الخطبة «اللهمّ انصر جمال بن عبد الناصر وأيّد عساكره» دون أن يدرك شيئًا، فقلنا مع المصلّين: آمين. وكان ذلك المطوّع الأصمخ له شهرة في علاج المصابين «بالجِنّ»، فيضربهم بالعصا ضربًا شديدًا؛ لإخراج الجنّ، ويقول لذويهم: إنّ الضرب يحسّ به الجنّيّ فقط لا الشخص نفسه، فيصدّقه الجهلة. وله تعويذة خاصّة يرددها عندما يفعل ذلك؛ ليخيف الجنّيّ، فيقول: «حبسٍ حابسْ، خضرٍ يابسْ». وقد شاهدته مرّة يضرب أحد أترابي من صبيان الحيّ بالعصا؛ ليخرج الجنّيّ ويصرخ عليه، في حين كان الصبيّ المريض يتألّم من الضرب.

التبغ والعبيد والشونقي: (الوالد في مسجد الحصى).

كان والدي يردّد في الخطبة الثانية لكلّ أسبوع أن التمباك (التبغ) حرام، حتّى إنّ بعض المصلّين ظنّ أنّها من أركان خطبة الجمعة؛ فمرّة أطال الوالد الخطبة الأولى فقرّر اختصار الثانية، فأنهى الخطبة دون ذكر التمباك؛ فقام أحد المصلّين من كبار السنّ، مذكّرًا الوالد: «لقد نسيت التمباك يا شيخ».

أمّا الموضوع الثاني الذي كان يكرّره في خطبته فهو أنّ الرق السائد في الخليج آنذاك، كان حرامًا. وأنّ العبيد الذين يملكونهم، كانوا أحرارًا، فسرقوا من ديارهم وبيعوا ظلمًا. وكرّر مقولة عمر بن الخطّاب: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارًا». ومع أنّ الناس كانوا يتداولون قصص سرق أرباب السفن الخليجيّة للأفارقة، خاصّة الأطفال الأبرياء الجياع، باستخدام التمر؛ لاستدراجهم إلى السفن، ثمّ إقلاع السفن بهم. ولم يستجب لنداءات والدي بعتق الرقيق، إلا أحد تلامذته؛ وهو سيف بن سعيد بن غباش؛ إذ أتى بخادمته التي قد ورثها من أبيه، وأعتقها أمام الوالد في مجلسه.

وهناك عادة نسائيّة في رأس الخيمة تَمكّنَ الوالد من القضاء عليها بخطبه؛ وهي تسريحة للشعر كانت شائعة في رأس الخيمة تسمّى «الشونقي»، وخاصّة في المناسبات المهمّة، كالأعراس والأعياد وموسم القفّال (عودة الأزواج من الغوص على اللؤلؤ). ولقد رأيتها صغيرًا، وكانت تبدو لي وكأنّها جناحا طائر حول الرأس. وحتّى الآن لا أعرف ما وهو وجه الجمال أو الزينة في الشونقي، بل كان شكلها مخيفًا لي كطفل آنذاك. ولم أره على رأس أمّي، بل رأيته على بعض الخالات، وسمعت حديثهنّ عنه بإعجاب، حتّى هاجمه والدي. فكان الكثير من النساء يعقصن (ينسجن) شعرهنّ الطويل نسجًا محكمًا بمساعدة «عقّاصة» متخصّصة في تسريحة الشونقي. فتسفّ (تجدل) جدائل كثيرة تنطلق من وسط الرأس بشكل دائريّ تجمع نهاياتها معًا؛ فتصير مثل الجدار حول الرأس يمينًا ويسارًا. ويدخل في العقصة الحلّ (الزيت، وغالبًا ما يكون زيت الناريل؛ أي جوز الهند)، ويعطّر الشعر ببعض المواد العطريّة، مثل: "الياس" و"البضاعة" وهي مسحوق عطريّ من الورد والفلّ والزعفران. ثمّ يربط بشريط من القماش. وتبقى التسريحة لأيّام عديدة لا تفكّ. وعرف الوالد من النساء أنّ الماء لا يمكن أن يخترق الشونقي ويصل إلى جلد الرأس عند الاستحمام والغسل؛ بسبب تلك التسريحة المحكمة؛ فأفتى ببطلانها؛ لأنّها تمنع اكتمال الوضوء، فلا تجوز الصلاة بها؛ فامتثلت نساء رأس الخيمة لفتوى قاضي البلاد، وتخلّين عن الشونقي خلال أسابيع؛ من أجل الصلاة.

رمضان

لرمضان في معيريض أيّام طفولتي طابع خاصّ. كان الاعتماد لتحديد بداية الشهر على رؤيته في مدينة رأس الخيمة والشهادة عند الحاكم بالرؤية؛ فإذا ثبتت الرؤية عنده، أمر بإطلاق المدفع الذي يسمع في مدينة رأس الخيمة ومعيريض

ولا يسمعه بقيّة المواطنين في القرى والجبال النائية، التابعة لرأس الخيمة. فهم أيضًا يصومون إذا رأوا الهلال في منطقتهم، وإلا فيكملون شعبان ثلاثين يومًا؛ وذلك لعدم توافر وسائل الاتّصال الحديثة، كالتلفون والراديو، في البلاد. ولمّا انتشر الراديو في نهاية الخمسينات من القرن الماضي، صار الحاكم والناس يسمعون أخبار الهلال من الدول العربيّة الأخرى؛ فأنهى قرونًا من انعزال رأس الخيمة عن بقيّة العالم، في تحديد أوّل رمضان والأعياد الاسلاميّة.

الإفطار الجماعيّ:

يفطر الرجال في الفرجان (الأحياء) بعد غروب الشمس وقبل صلاة المغرب بصورة جماعيّة؛ إذ تفرش سفرة على الرمل في ساحة بين البيوت، ويأتي الجيران، كلّ بطبق من بيته، ولو طبق من التمر لغير المقتدر، ويضعه على السفرة. ثمّ يشترك الجميع في تناول الأطعمة المتعدّدة وأهم أغراض تلك العادة من المشاركة أن يحصل الفقراء في الحي طعامًا لذيذًا لا يتوفر لديهم. وبعد ذلك يتّجهون إلى المسجد، بعد توصيل أطباقهم إلى بيوتهم. وقد شاركت أنا الرجال في تلك السفرة بضع مرّات بإيعاز من الوالد، وأخذت طبقًا كبيرًا من الهريسة أو الثريد واللقيمات معي. أمّا والدي فلم يشارك الناس في سفرة الفريج؛ فقد كان له برنامجه الخاصّ في رمضان؛ إذ يفطر على تمر ولبن فقط، ثمّ يذهب إلى المسجد؛ ليؤمّ الناس في صلاة المغرب. وبعد العودة من المسجد يكون العشاء. وقد ذكرت رمضان في اللاميّة، قائلاً:

ويُفـطِرُ سُكّانُ الفِـريجِ كأُسرَةٍ — على سُفرَةٍ عَجَّت بأكـلٍ من الكُلِّ[1]
فهـذا ثَريـدٌ مـن هُنـاكَ وهذه — هَريسةُ مَطبوعِ الخِصالِ على الفَضلِ[2]
وهذي لُقيمـاتٌ أتـتْ مِلءَ طَـاسةٍ — كأكوامِ تِبـرٍ في لُجَينٍ بـلا مِثْلِ[3]
وقـد حُلِّيتْ بالدِّبسِ أو مـاءِ سُكَّرٍ — ولاشَـكَّ أنَّ الشَّهدَ أفضَلُ ما يُحلي[4]
ولـو غُمِّست فـي الشَّهدِ قبلَ زِفافِها — لما ذقتُ إلاّهـا ولـو لامني خِلّي
وكانـتْ تَقودُ الأكـلَ للفَمِّ تمـرةٌ — بها نَبدأُ الإفطـارَ للأجـرِ لا البُخلِ

لقيمات

وقبل الفجر يأتي المسحّران- خَمَّاس، والأعمى سالم الودّاد (الطرار)- بالطبل، وينادِيان على الناس؛ كي يستيقظوا للسحور. وكنا نعطيهما شيئًا من الطعام: رغيفين من الخبز، أو رزًّا، أو هريسًا. وذكرت هذا في اللاميّة:

وقبلَ طُـلوعِ الفجرِ يأتـيْ مُسَحِّرٌ — ينبّهـنا لـلأكلِ بالشـدْوِ والطَّبْلِ
فأُسرِعُ نحـوَ البـابِ أُعطيـهِ خُبزَةً — فيشكُرُنـي الـوَدَّادُ للعطـفِ والبـذلِ
فقد كان ذاكَ الكهلُ أعمـى ومُعدِمًا — تَجـودُ لـه الأقوامُ بالمـالِ والأكلِ

وكنت- وأنا في السابعة أو قبل بلوغها بقليل- أرغب في أن أفعل ما يفعله الكبار؛ فقرّرت أن أصوم. فصمت يومًا، فلم أتريّق (أفطر صباحًا) ولم أتغدّى، ولكنّني لم أتمكّن من الصمود على الجوع بعد ذلك. ومع أنّ والدي أجاز لي أن أفطر، لكنّني قرّرت المواصلة، ولم أشأ أن أقرّ بالهزيمة. ولكن، بعد الظهر اشتدّ عليّ الجوع؛ فلم أتحمّل أكثر. وكدت أوقظ أمّي من قيلولتها لتنقذني من الورطة، لكنّني تراجعت عن إيقاظها وإفساد قيلولتها. فدخلت مخزن الطعام أبحث عمّا

١. الفريج: أصلها الفريق، قلبت القاف جيمًا في لهجتنا، ويقصد بها الحيّ (خليج)، وفي اللغة: الفريق: الجماعة من الناس.
٢. الثريد: خبز رقيق مفتّت ومبلّل بالمرق. والهريس: القمح المطبوخ مع اللحم.
٣. اللجين: الفضّة.
٤. الدبس: عسل التمر.

يمكن أن آكله، فوجدت أكياس الرزّ والطحين والسكّر والبصل وموادّ أخرى لا يمكنني أن آكل منها. ثمّ جذبت انتباهي صفائح المالح (سمك المالح) ففتحت غطاء صفيحة ورأيت لحم سمك الكنعد غاطسًا، ومعه بضع بيضات في الماء المالح، فأخذت بِلْحًا (قطعة من لحم السمك) وتذوّقتها، فكان طعمها لذيذًا لا يقاوم. وكنت أتمنّى لو كان عندي شيءٌ آكله مع السمك. وفجأة وقعت عيني على البصل، فصرت أقشّر البصلة وأضع السمك في قطعة من البصلة فآكلها بمتعة فائقة. أمّا سبب وجود البيض في الماء المالح، فلعدم وجود الكهرباء والثلّاجات، وكان البيض يحفظ في الماء الشديد الملوحة، فلا يفسد في تلك الحرارة الشديدة لأيّام. وبعد ذلك الغداء اللذيذ ذهبت إلى حِبِّ الماء، وشربت ماءً باردًا. ثمّ أخبرت أمّي بما فعلت، فضحكت وأخبرت الوالد فقال لي: «لا يكلّف الله نفسًا إلا وسعها». ولم أكرّر الصوم بقيّة ذلك الشهر. ولكن تمكّنت من الصوم عدّة أيّام في السنة التالية.
وقد أشرت إلى تلك التجربة في قصيدة رمضان من اللاميّة:

إذا هلَّ شَهرُ الصَّومِ هَلَّت وُجوهُنا ... بإشراقَةِ الإيمانِ والنُّورِ والفأْلِ
وهمَّ صيامَ الشهرِ أطفالُ حيّنا ... ولكنَّ رَبَّ العَرشِ أرحَمُ بالطفلِ
وقد صُمتُ قبلَ السبعِ يومًا فلمْ أُطِقْ ... وقال أبي: لابأسَ إنَّكَ في حِلِّ
فصُمتُ قُبيلَ العَشرِ فخرًا بأنني ... كَبِرتُ، وقبلَ العَصرِ أحلُمُ بالأكلِ

كان والدي يؤمُّ المصلّين في صلاة التراويح على الرمل، في الساحة المجاورة لباب مسجدنا. وكنت مع أقراني من الأطفال، نقف بين الكبار ونصلّي معهم. وكان أبي يصلّي بنا عشرين ركعة. وسأكتفي بما قلت في اللاميّة عن تلك الصلاة:

وإن كَبَّرَ الناسُ الكِبارُ لرَكعةٍ ... وقَفنا وكَبَّرنا بفَخْرٍ بلا مَطْلِ
نُصلّي صَلاةَ الفرضِ ثمَّ نُقيمُها ... تَراويحَ ذاكَ الشهرِ بالحُبِّ والبَذْلِ
فنُكمِلُها للهِ عشرينَ رَكعَةً ... على سُنّةِ المَبعوثِ بلْ خاتمِ الرُّسلِ
ونرتصُّ بينَ الناسِ آباءِ قومِنا ... نُصلّي كما صلّوا برجلٍ حِذاَ الرِّجْلِ
أُرى بينَهم طِفلًا وشِبران قامتي ... فكنتُ كمِسواكٍ يُرزُّ مع النَّخْلِ

لم نكن نلعب في ليالي رمضان، ولا نستمع إلى الخراريف، كما كنّا نفعل في أيّام الفطر. ولا يخيّم السكوت المعتاد على معيريض كبقيّة ليالي السنة، بل الناس في ذهاب وإياب، والمجالس عامرة، حتّى منتصف الليل؛ ولذلك كنا نكتسب جرأة أكثر للخروج في الليل في السكك المظلمة في رمضان. وزادنا جرأة أنّنا كنّا نسمع أنّ الله يحبس الجنّ في شهر رمضان فلا تخرج.

فبعد التراويح نجتمع في حلقة، أنا ومجموعة من زملائي الصبيان، من الذين تعلّموا القرآن حديثًا، بين ٨–١٢ صبيًّا كلّ ليلة، فنقعد على الرمل في ساحة قرب مجلس جارنا الحاجّ إسماعيل؛ لقراءة القرآن؛ فأهل الحاجّ إسماعيل يضعون لنا مصحفًا على مرفع (كرسيّ القرآن) فوق حصير، وبجانبه سراج من الكيروسين. وكان الهدف أن نكمل أكثر ختمات من القرآن خلال رمضان؛ كي نفاخر بإنجازنا، ونسبق غيرنا من الأطفال في الأحياء الأخرى. فكان الجالسون منّا يتناوبون القراءة، حوالي ربع ساعة لكلّ واحد، لمدّة ثلاث ساعات كلّ ليلة بحضور بعض الكبار أيضًا لتشجيعنا. وبعد اليوم الأوّل صار الواحد يقرأ ولا يستمع إليه بقيّة الجالسين، بل يلهون ويتحدّثون في أمور أخرى. وكان القارئ منّا– أثناء انشغال وغفلة البقيّة من الحاضرين– يشقّحُ (يقفز في القراءة) عدّة صفحات من المصحف؛ للوصول إلى نهاية المصحف بسرعة، فنحسبها ختمة، ونسبق الأطفال في الأحياء الأخرى بعدد الختمات. وعن قراءتنا للقرآن في رمضان قلت في اللاميّة:

وأسفرَ نورُ الشهرِ في الليلِ كلِّهِ ... بترتيلِ آيِ الذِّكْرِ في فُسحَةِ الهَجْلِ[1]
زها مِرفعُ القرآنِ قُربَ سراجِنا ... ننوصُ حواليْه نُرتِّلُ في الليلِ[2]

---

١. الهجل: ما اتّسع واطمأنّ من الأرض.
٢. المرفع: الكرسيّ الذي يرفع عليه القرآن للقراءة. والنوص: تحريك قارئ القرآن لنصفه الأعلى من الجسم أثناء القراءة؛ كي لا ينعس.

ونَقرأُ فــي ضَـوْءِ السِّـراجِ برَهبَـةٍ ... وشُـعْلَتُهُ الصَّفراءُ تَشـرَبُ مـن حَلِّ[1]
فمــا سَكِرتْ من شُرْبِهِ بلَ ترنَّحتْ ... إذا هبَّتِ الريحُ الجَنـوبُ على القُذْلِ[2]
فمصــباحُنا يَخبو إذْا هَبَّ بـارِحٌ ... ولكـنَّ ذِكرَ اللهِ يَسْطَعُ في العقلِ[3]

صلاة العيد:

لا يُصلّى العيد في المساجد في معيريض، ولكن يلتقي أهالي معيريض– من الذكور فقط– في بقعة واحدة، خارج المدينة شرقًا، في ساحة رمليّة للصلاة. قد يكون ذلك؛ لأنّه لا يوجد مسجد كبير في معيريض يسع كلّ رجال القرية. ولا تشارك النساء في صلاة العيد، بل يعددن إفطار العيد في بيوتهنّ. كان الوالد هو الذي يؤمّ الناس في صلاة العيد، منذ أن أدركت حتّى استقال سنة ١٩٥٧.

وبعد الصلاة يبدأ الناس في التزاور وسلام العيد. ويجلس الوالد في مجلسه يستقبل المهنّئين بالعيد.

وفي قصيدتي عن العيد في معيريض في (لاميّة الخليج) ما يغني عن الإسهاب في وصف العيد، وممّا قلت فيها:

ألا يا خيالَ الأمسِ عرِّجْ على عقلي ... وسِرْ بي معَ الأطيافِ طيفًا إلى الوصْلِ
وعُدْ بي إلى عيدِ الصِّبا بعضَ ساعةٍ ... فما عادَ عيدُ اليومِ يا صاحبي يُسْلي
إذا أصبحَ العيدُ السعيدُ رأيتَنا ... نُسابقُ رِجْلَ الصُّبحِ سيرًا على الرّجْلِ
ونَطلَعُ في نُورِ الثِّيابِ ببسْمةٍ ... تَفوقُ ضِياءَ الصّبحِ نُورًا .. إلى الحفْلِ
ونُشرِقُ قبلَ الشمسِ من كلِّ منزلٍ ... نَؤمُّ مُصلَّى العيدِ في ساحةِ الرَّمْلِ
فعندَ صَلاةِ العيدِ يَكتظُّ قومُنا ... كأنّا جُموعُ الطيرِ أو مَجْمَعُ النَّحْلِ
وتُشرِقُ شمسُ العيدِ في وجهِ شيخِنا ... يُحدِّثُنا، والشمسُ في ظَهرِنا تَصلي
ونَشرَعُ بالتعييدِ بعدَ صَلاتِنا ... بضَمٍّ وتَقبيلٍ ونَشْدٍ عنِ الأهلِ[4]
ويُقْرى ضيوفُ العيدِ من كُلِّ أكْلَةٍ ... مُحَلًّى وحَلْوى في الصحونِ بِلا بُخْلِ[5]
وتَدْخُلُ مَخْبا الطِّفلِ بعضُ دَراهمٍ ... ليفرحَ طولَ اليومِ بالغُنمِ والنَّفْلِ[6]
فتغمُرُ طفلَ العيدِ أعظمُ فرْحَةٍ ... كأنَّ صَباحَ العيدِ شُرِّعَ للطِّفْلِ
ونَعْلو حبالَ المَرْيَحانِ بضجَّةٍ ... نُغنِّي أغاني العيدِ نلعَبُ في الهَجْلِ[7]
ونُشعِلُ بالكِبريتِ أعوادَ شلَّقٍ ... فتنْقَعُ كالرشّاشِ أصواتُها تَتْلي[8]
ونَلعَبُ بالمفتاحِ نملأُ ثُقْبَهُ ... بمسحوقِ بارودٍ يَثورُ بِلا قتْلِ
وترفُلُ بنتُ الحيِّ بالثَّوبِ زاهيًا ... وتَمْشي وقدْ ألقتْ إلى الخَلْفِ بالجُدْلِ[9]

---

١. الحل: زيت الكيروسين.
٢. القُذْل: جمع قذال وهو مؤخّرة الرأس.
٣. البارح: الريح الجنوبيّة الحارّة.
٤. النشد: السؤال
٥. المحلّى: خبز خليجيّ رقيق عليه سكّر. الحلوى: حلوى خليجيّة مصنوعة من الدقيق والسمن والسكّر، اشتهرت به عمان والبحرين.
٦. المخبا: الجيب (خليج)، النفل: العطيّة.
٧. المريحان: جمع مريحانة، وهي المرجحانة. الهجل: الأرض الواسعة المطمئنّة.
٨. الشلق: ألعاب من المفرقعات الناريّة (خليج).
٩. الجدل: الضفائر.

بيت السركال

السركال لقب منحه الإنجليز؛ فقد كان نائب الملك البريطانيّ في الهند، يمنح موظّفي الدولة البريطانيّة رتبًا وألقابًا ونياشين، مثل خان صاحب، أو خان بهادر، وهي تسميات هنديّة إنجليزيّة تعني وكيل، ومثلها «السردار».

بيت السركال

بيت السركال المطلّ على البحر في طريقنا إلى المدرسة، من المعالم التاريخيّة لمعيريض. كان البيت أصلًا منزلًا صغيرًا لعيال أحمد عبد الله الشامسيّ، اشتراه منهم عبد اللطيف بن عبد الرحمن السركال، وذكر الباحث د. عبدالله علي الطابور أنّ عبد اللطيف عربيّ الأصل، والسركال لقب هنديّ أطلقه عليه نائب الملك البريطانيّ في الهند. وذكر الطابور عن بيت السركال في المعيريض أنّه كان قبل ذلك يعود إلى (أولاد أحمد) أو (عيال أحمد بن عبدالله بن سعيد الشامسيّ، وكانت فيه غرفة واحدة تسمّى غرفة عيال أحمد) الذين بنوا هذا البيت، لكن بعد ذلك اشتراه عبد اللطيف بن عبد الرحمن خان بهادر المتوفّى سنة ١٩١٩ وكبّره، وأضاف إليه بعض المرافق واشتهر باسمهم (بيت السركال) ليكون المقرّ الرسميّ له وكيلا للحكومة البريطانيّة. واستمرّ في هذا العمل حتّى وفاته عام ١٩٣٥م .ثمّ اشترى هذا البيت عقيل المصلي بسبعة آلاف روبيّة، ثمّ باعه عقيل إلى كلّ من أحمد ومحمّد وإبراهيم وعبد الرحيم أبناء خالد بن مطر؛ إذ اشتروه بتسعة آلاف روبيّة، ويعود البيت الآن إلى عيال خالد بن مطر في المعيريض.

طقوس بيت السركال:

ذكر د. عبد الله الطابور (جريدة الخليج ٥-٨-٢٠١١) أنّ مهامّ السركال مراقبة تنفيذ المعاهدات أو الاتّفاقيّات بين الإنجليز وحكّام ساحل عمان، وكان لبيت السركال طقوسه الخاصّة؛ فمنها أنّ اجتماعات الإنجليز مع الحاكم كانت تعقد

فيه، وتحلّ فيه المشكلات والنزاعات بين أفراد الأسرة الحاكمة، ومنها (دقّ الطبول) أيّام السبت، وفي الأعياد والمناسبات. وإذا ما زار البيت المقيم أو الضابط الإنجليزيّ، تقام فيه الولائم. وتوزّع من هذا البيت الإعانات على الأسر الفقيرة والمحتاجة، وأصدر الإنجليز منه بطاقة تموين أثناء الحرب العالميّة الثانية، بعدما توقّفت رحلات الأسفار، وعُرفت تلك الفترة التي صدرت خلالها هذه البطاقة بـ (سنة البطاقات). وكانت هذه البطاقة التي استمرّت لمدّة سنة فقط، تمنح للأسرة حسب عدد أفرادها؛ فتحصل الأسرة بموجبها على الأرزّ والسكّر والقهوة والشاي والموادّ الغذائيّة الضروريّة.

وكان بيت السركال ملجأً للعبيد الهاربين من أسيادهم. ولقد سمعت من كبار السنّ في معيريض– ومنهم أمّي–أنّه إذا دخل العبد أو العبدة بيت السركال، ومسك خشبة العلم البريطانيّ، يصبح حرًّا، تحت حماية الحكومة البريطانيّة، لا يستطيع أحد أن يستعبده. وذكر عبد الله الطابور أنّ الخشبة تلك التي يمسكها العبد تسمّى «حطبة الحرّيّة»، فيحصل على صكّ أو ورقة من السركال، بأنّه حرّ أو متحرّر من العبوديّة. وسمعت أن هناك حطبة مثلها في بيت المستشار البريطانيّ في دبي أيضًا.

سمعت من والدتي أنّ العبيد المحرّرين في معيريض، كأنّهم جيش؛ لكثرتهم، تحت حماية السركال، وعلى نفقته يعيشون، ويحتفلون في ولائم السركال في معيريض؛ فيطرقون الطبول ويغنّون. وكانت زريبة نخل «الشريشة» شرق المطاف– مسافة نصف ساعة مشيًا من معيريض– من أملاك السركال، التي يقيم المحرّرون فيها حفلات بالطبول والموسيقى والرقص.

أخبرني صاحبي الشيخ أحمد بن حميد بن محمّد القاسمي أنّه في سنة ١٩٣١م وقعت في بيت السركال حادثة تاريخيّة طريفة؛ إذ ضغطت الحكومة البريطانيّة على الشيخ سلطان بن سالم القاسميّ، حاكم رأس الخيمة آنذاك، أن يوقّع معها اتّفاقيّة؛ لفتح مطار بريطانيّ عسكريّ في رأس الخيمة. ولكنّ الشيخ سلطان –لتديّنه– لم يكن راغبًا في فتح المجال للإنجليز وخمورهم في رأس الخيمة؛ فلجأ إلى الحيلة؛ إذ تظاهر بالموافقة على طلبهم، وتمّ الاتفاق على التوقيع في دار السركال في معيريض. ولكن سلطانًا في الباطن، قد اتّفق سرًّا مع زعماء قبائل البداة (الشحوح والحبوس) أن تأتي إلى بيت السركال بسلاحها، وتعلن معارضتها للاتّفاقيّة. فبينما الشيخ سلطان مع الإنجليز في بيت السركال، أحاط البداة ببنادقهم بيت السركال، وهدّدوا الشيخ سلطان بالقتل إن وقّع على الاتّفاقيّة؛ فاعتذر سلطان عن عدم التوقيع؛ لخوفه من انتقام الشعب المعارض للاتّفاقيّة منه. ثمّ عرض الإنجليز على الشيخ سلطان بن صقر حاكم الشارقة فتح المطار في الشارقة لبريطانيا، فوافق، وتمّ فتح المطار هناك سنة ١٩٣٢م.

أنا والراديو في معيريض

لم يكن الراديو لعبة من لعب الأطفال، لا قديمًا ولا حديثًا، ولكنّه وصل إلينا أيّام طفولتي؛ فتعلّقت به تعلّقًا لم يعرفه طفل في مثل سنّي. لقد اصطُلح على تسمية الراديو في اللغة العربيّة المذياع، ولكنّ ذلك المصطلح بقي في بطون الكتب، ولم نتداول إلا لفظة الراديو. ولا بدّ أن أعترف بأنّ للراديو الفضل في تثقيفي وتوسيع مداركي الجغرافيّة، وتنمية وعيي القوميّ، وتذوّقي للموسيقى والغناء العربيّ، قبل أن أشبّ وأبحر في مرحلة المراهقة. وقبل أن أسترسل في سرد ذكرياتي مع الراديو، لا بدّ من مقدّمة مختصرة عن ذلك الجهاز الذي لا شكّ في أنّه أثّر عالميًّا في مجرى الحياة السياسيّة والفكريّة والتجاريّة تأثيرًا كبيرًا.

من المعروف أنّ بداية انتشار الراديو انتشارًا تجاريًّا كان سنة ١٩٢٠م، مع أنّ (ماركوني) الإيطاليّ اخترعه قبل ذلك بسنين، ونال بسببه جائزة نوبل سنة ١٩٠٩. وبذلك حقّق حلمًا، باستخدام الموجات الكهرومغناطيسيّة؛ لإنتاج إشارات صوتيّة، تستطيع قطع مسافات شاسعة، تصل سرعتها إلى ٣٠٠ ألف كيلو مترا في الثانية.
وما زال الراديو أكثر الوسائط الإعلاميّة جذبًا للمستمعين في أرجاء العالم كافّة؛ من حيث وصوله إلى أكبر عدد منهم. ومن مميّزات الراديو التي قد لا ينافسه فيها وسيط آخر آنذاك، تخطّيه للحدود، ووصوله بحرّيّة وبسعر زهيد إلى نواحي العالم المختلفة. ولو أردت أن أصف كيف استقبل العرب الراديو– تلك المعجزة وذلك الاختراع العجيب، الذي وصل إليهم في الثلاثينات من القرن المنصرم، وكأنّه ضرب من السحر، أو أنّه من عمل الجّن– لما وجدت أفضل من وصف الشاعر المصريّ محمود غنيم له سنة ١٩٣٥ بالأبيات التالية:

شادٍ ترنّمَ لا طيرٌ ولا بشرُ ... يا صاحبَ اللحنِ أين العودُ والوترُ
إنّي سمعتُ لسانًا قُدَّ من خشبٍ ... فهل ترى بعد هذا ينطقُ الحجرُ
لو قلتَ بالجنّ، قلتُ: الجنُّ أنطقَهُ ... أو قلتَ بالسحرِ، قلتُ: القومُ قد سُحروا
وآلة جعلت من حجرتي أفقًا ... يرتدُّ منحسرًا عن حدِّهِ البصرُ
كأنّما الكرةُ الأرضيّة انحصرت ... في جوفها، والورى في جوفها انحصروا
لها فمٌ ليس يستعصي على لغةٍ ... على الرطانةِ والإفصاحِ مقتدرُ
قد حكّمتنيَ في الأصواتِ لوحتُها ... فصرتُ أختارُ ما آتي وما أذرُ
قد كنتُ أغشى بيوتَ اللَّهْو منتقلًا ... فصار يسعى إليَّ اللهوُ والسمرُ

ومع أنّ الإنجليز أسّسوا أوّلَ إذاعة في الخليج (إذاعة البحرين)–التي بدأت البثّ سنة ١٩٤١ أثناء الحرب العالميّة الثانية، لأغراض سياسيّة– لكن الراديو لم يصل قريتي التي ولدت ونشأت فيها– وهي معيريض من رأس الخيمة– حتّى سنة ١٩٥٢؛ عندما قامت الثورة المصريّة؛ فقد كان في معيريض راديو واحد فقط في مجلس جارنا الحاجّ إسماعيل عيسى؛ إذ كان يستقبل عددًا من الرجال في مجلسه؛ لسماع أخبار الثورة المصريّة مساء. ومع أنّني كنت طفلًا لم أتجاوز التاسعة من العمر، إلا أنّني كنت أتابع ما يقوله الرجال وأتعاطف مع الثورة، ثمّ صرت محبًّا لجمال عبد الناصر عندما تولّى الرئاسة. وكنت وزملائي الأطفال نسمع صوت الراديو في مجلس الحاجّ إسماعيل، ونحن في خارج بيته، نلعب على بعد أمتار من المجلس؛ لأنّ جدار المجلس المشيّد من جريد النخل لا يحجب الصوت. لم يكترث زملائي الأطفال لصوت الراديو بعد الأسبوع الأوّل من وضعه في مجلس الحاجّ، أمّا أنا فكنت منجذبًا إليه، وإلى أخبار جمال عبد الناصر، في حين يسحبونني لمواصلة اللعب.

الجاسورة

في سنة ١٩٥٦ حين– بلغت الثالثة عشرة من العمر– قدمت سفينة إنزال إنجليزيّة من البحرين، يطلق عليها محلّيًا (جاسورة)، محمّلة بسيّارات صالون صغيرة، وفتحت السفينة فاها على رمل السيف؛ لتنزل السيّارات منها مباشرة على السيف. وكانت السيّارات تذهب بهم شرقًا إلى مناطق النخيل وقرب الجبال؛ لإجراء مسح جغرافيّ أو البحث عن البترول كما سمعنا. وكانت السفينة راسية أمام بيت (عبد اللطيف السركال) في طريقي إلى المدرسة. مقدّمتها على الأرض اليابسة وبقيّتها ممتدّة عدّة أمتار في عمق البحر. وكانت تلك أوّلَ سفينة غير خشبيّة وغيرِ شراعيّة أراها في معيريض. وكان أحد بحّارتها، بحرينيًّا من أقرباء معلّمتي للقرآن آمنة إبراهيم، وقد قابلته مع زوجها علي عبد الله، فدعانا للصعود على الباخرة للتفرّج، ثمّ سمح لي بأن آتي للباخرة مع زملائي بخيوطنا لنحدق (نصيد السمك) في مؤخّرة السفينة، حيث كان البحر عميقًا والأسماك كثيرة؛ فصار ذلك البحّار البحرينيّ صديقًا لنا، وقرّرنا أن نكافئه على السماح لنا بركوب السفينة متى شئنا لصيد السمك، ولم نعرف كيف نكافئه. ولأنّ في بيتنا عددًا من الدجاج، أخذت مرّة سلّة من البيض وأهديتها له. وكانت هديّة مناسبة؛ لعدم وجود محلّ تجاريّ يبيع البيض في البلاد؛ لوجود الدجاج في كلّ البيوت في معيريض؛ فلما قرب موعد إبحار السفينة، أهداني راديوًا قديمًا كان يستعمله. وكان على شكل صندوق خشبيّ، طوله قدم ونصف وارتفاعه قدم، وبطّاريّته كبيرة، مثل بطّاريّة السيّارة. وهكذا أصبحت ثاني شخص يملك راديو في معيريض بعد الحاجّ إسماعيل.

وحتّى يتمكّن الراديو من التقاط المحطّات، لا بدّ من مدّ سلك طويل لعدّة أمتار فوق سطح البيت، وتوصيله به. لقد وضعت الراديو في غرفة نوم والديَّ المبنية من الحجارة والجص، ثمّ صعدت على سطح الغرفة وثبتُّ عمودين من خشب الكندل في طرفي السطح، وأمددت سلكًا عليهما طوله أربعة أمتار، ثمّ أنزلت طرفه الآخر؛ لتوصيله بالراديو. كنت أستمع إلى الأغاني العراقيّة من إذاعة بغداد، والخليجيّة من إذاعة البحرين، وأستمع للأحاديث الوطنيّة، وخطب الرئيس جمال عبد الناصر من القاهرة. وفي تلك المرحلة لم أكترث كثيرًا لسماع الأغاني المصريّة؛ لعدم تعوّدنا سماع الأغاني باللهجة المصريّة، ولكن كنت أحبّ الأغاني العراقيّة؛ لأنّ لهجتها مألوفة لدينا، وخاصّة لأنّ الكثير من سفن وبحّارة معيريض يتردّدون على البصرة للتجارة، فيطربون للأغاني العراقيّة، مثل أغاني حضيري بوعزيز وداخل حسن، ويستمعون لها بشوق وحماس، أثّر فينا.

وكانت نساء الحيّ يسمعن من أزواجهن وأبنائهن عن الجهاز العجيب الذي دخل القرية، كما كنّ يسمعن من بعيد صوته، من مجلس الحاجّ إسماعيل، ولكنّ الظروف الاجتماعيّة لم تسمح لهنّ برؤيته؛ لأنّ المجالس مخصّصة للرجال فقط. ولمّا أتيت بالراديو إلا بيتنا، اندفعت نساء الجيران إلى منزلنا مع أطفالهنّ؛ لرؤية الراديو وسماعه، فطلبت أمّي أن أشغّله لهنّ، أمّا هي فلم تكترث لوجود الراديو، ولم تستمع لا للأغاني العراقيّة ولا المصريّة؛ لأنّها لا تفقه غير اللهجات المحلّيّة فقط.

ولمّا وقع الاعتداء الثلاثيّ (حرب السويس) في نفس سنة ١٩٥٦ على مصر، صار الراديو مهمًّا لنا في معيريض، وسمعت أنّ شخصًا ثالثًا اشترى راديو في الحيّ الجنوبيّ من معيريض، تلك السنة. فكنّا نتابع أخبار الحرب باهتمام كبير، ونتحمّس للأغاني والأناشيد الوطنيّة التي يبثّها (صوت العرب) من القاهرة، ونتفاعل بما يكيله المذيع أحمد سعيد من تقريع وهجوم على الاستعمار والرجعيّة.

لمّا بلغت الرابعة عشرة من العمر، استطعت أن أحصل على بعض الجرائد والمجلّات العربيّة وخاصّة المصريّة، مثل: مجلّة المصوّر ومجلّة التحرير، وإن كانت تصلنا بعد عدّة أشهر من تاريخ طباعتها، وأحيانًا بعد سنة مع مسافر عائد من الكويت، ولكنّها مع الراديو ساهما في تثقيفي عن الوضع العربي آنذاك. وقد ساعد معلّمي ومدير مدرستي (القاسميّة) الأستاذ الفلسطينيّ أحمد راغب على توعيتي بنكبة فلسطين، والأمل في وحدة العرب لهزيمة إسرائيل. ثمّ كتب لي الأستاذ خطبة تدرّبت عليها بمساعدته، وألقيتها في الحفل الختاميّ للمدرسة في عام ١٩٥٦ نيابة عن الطلبة؛ وذلك بحضور حاكم رأس الخيمة، الشيخ صقر بن محمّد القاسميّ، وعدد كبير من الوجهاء والمواطنين. وكانت خطبة سياسيّة عن الاستعمار واضطّهاده للشعوب. وقد صفّق لي الشيخ صقر مبتسمًا وفخورًا.
وكم كانت فرحتي كبيرة عند ما أعلن في ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨ وأنا في الكويت، عن قيام الوحدة بين مصر وسوريا، وتسميتها الجمهوريّة العربيّة المتّحدة. فكنت أسمع الأخبار من إذاعة القاهرة والخطب، بتلهّف وحماس.
ولم تكن هناك معارضة في مجتمع معيريض ضدّ الراديو؛ وخاصّة لأنّ شبّابهم يستمعون إليه، ويسمعون منه تلاوة القرآن الكريم. ولكن سمعت أنّ هناك من الجهلاء من يعتبره حرامًا؛ بدعوى أنّه يلهي المسلمين عن الصلاة أو أنّه من صنع الكفّار والسحرة. وقد قيل «إن النّاس أعداءُ ما جهلوا». ولكن لم أسمع اعتراضًا من سكّان معيريض. وقد يكون السبب في قبوله أن والدي– الذي كان القاضي الشرعيّ لرأس الخيمة، والمعروف بتراثه الدينيّ المحافظ– لم يحرّمه، بل كان يذهب– أحيانًا– إلى مجلس الحاجّ إسماعيل؛ ليستمع لأخبار الحرب في مصر من الراديو مع الجيران. كما أنّه لم يعترض على امتلاك ابنه لراديو وإدخاله في بيته.
ولعدم وجود كهرباء في رأس الخيمة، كان الراديو يعمل بالبطّاريّة. وكنت أشتري البطّاريّة له من دكّان في مدينة رأس الخيمة؛ ممّا يدلّ على أنّ الراديو كان منتشرًا في المدينة خلافًا للقرى. ولم يكن معروفًا أنّ تلك البطّاريّات يمكن شحنها، ولكنّها لم تشحن؛ لعدم وجود الكهرباء في البلد؛ فكانت ترمى إذا فرغت ونشترى بطّاريّات جديدة. وكانت تلك البطّاريّات مكلفة جدًّا؛ لأنّها كانت تكلّف ١٢ روبيّة للبطّاريّة، في الوقت الذي كان ثمن سمك غدائنا اليوميّ للعائلة لا يزيد عن نصف روبية في الغالب. وكان الخراب الوحيد الذي يتكرّر على الراديو هو انقطاع الخيط الذي يتحرّك على البكرة لتغيير المحطّات. وكان في رأس الخيمة التاجر عبد الله عبد العزيز، الذي اشتهر بأنّه مصلّح للراديو، وكان كلّ ما يفعله هو فكّ الغطاء وربط خيط عاديّ مكان المقطوع. وكم حملت جهازي على كتفي متّجهًا إليه عبر الخور في مدينة رأس الخيمة شتاءً، أو عدّة كيلومترات في منطقة النخيل، حيث يصيف صيفًا؛ «لتصليح» الراديو.
ولم نكن نعرف كيف ينقل الراديو الصوت. وأذكر مرّة أنّ مجموعة من أبناء المهرة قدموا من الكويت في سفينة شراعيّة، وقضوا ليلة على الساحل الرمليّ قرب بيتنا في طريقهم إلى اليمن؛ فكنت أذهب إليهم وأتعجّب من سماع لغتهم. وكانوا يكلّموننني باللغة العربيّة، ولكنّهم يتحدثون لغتهم المهرية فيما بينهم. وأخبرني أحدهم– ولم يكن يعرف كيف ينقل الصوت الراديو– أنّ لغتهم أصعب لغات العالم؛ ولذلك لا يستطيع الراديو أن يلتقطها!

لمّا ذهبت إلى الكويت سنة ١٩٥٨ في بعثة دراسيّة، وعشت مع زملائي من رأس الخيمة في منزل صغير فيه راديو، وقد أجّرت المنزل لنا الحكومة الكويتيّة. وفي السنة التالية انتقلنا إلى القسم الداخليّ الكبير في مدينة الشويخ. وهناك لم تضع الحكومة للطلبة راديو في السكن؛ فقرّرت أن أبتاع راديو لنفسي. ومن حسن الحظّ أنّ أجهزة الراديو الترانزستور اليابانيّة، التي تعمل على بطّاريّات صغيرة، متوافرةٌ في أسواق الكويت سنة ١٩٦٠، يمكن حملها بسهولة، فاقتنيت واحدًا كنت أضعه بجانب سريري وأحمله معي إلى سيف البحر في الشويخ. وفي الكويت تعلّمت وزملائي سماع اللهجة المصريّة من أساتذتنا المصريّين ومن الراديو؛ فبدأت أتذوّق الموسيقى والأغاني المصريّة لأم كثوم ومحمّد عبد الوهّاب وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش. وكنّا عشرين طالبًا في كلّ عنبر (غرفة نوم كبيرة) في القسم الداخليّ، تجمعنا الصحبة والمحبّة والوئام، ولا نختلف إلا على تفضيل أحد المغنيّين:عبد الحليم حافظ، أو فريد الأطرش. وكنت أنا من أنصار عبد الحليم.
ولمّا أصبت بمرض الخازباز (بو كعبMump)، وحُجزت في غرفة في مستشفى الشويخ لمدّة أسبوعين، كان الراديو

الصغير، خير رفيق وأنيس لي في الحجرة الكئيبة في المستشفى. ومرّة كنت أستمع لأغنية عبد الحليم حافظ (بحلم بيك) تبثّ من إذاعة الكويت صباحًا، وإذا بطارق على شبّاك الغرفة. ولمّا ذهبت إلى الشبّاك، وجدت مزارع حديقة المستشفى الفلسطينيّ يهزّ رأسه طربًا، ويرجوني أن أعلّي صوت الراديو، ففعلت، وتبادلت معه الحديث، فكان يزور شبّاك حجرتي كلّ يوم؛ للحديث معي وسماع الأغاني.

وفي سنة ١٩٦١ تركت الكويت وأتيت للعيش مع العائلة في قطر. ومع أنّ التلفزيون غير الملوّن قد بدأ في الانتشار دون أن تكون لقطر محطّة حتى ١٩٧٠، إلا أنّنا لم نقتني تلفزيون في البداية، بل كان في بيتنا راديوان: أحدهما عندي، والآخر في غرفة صديقي كاتب الوالد ناصر بن أحمد، من أبناء الشارقة، الذي كان يعيش في بيتنا في غرفة مجاورة لمجلسنا الخارجيّ. وكنّا نستمع للراديو معًا في أوقات الفراغ مساء بانسجام. كانت ميول صديقي ناصر الوطنيّة والقوميّة، متطابقة مع ميولي؛ لذلك كنّا حريصين على الجلوس معًا؛ لسماع خطب جمال عبد الناصر. وأحيانا نخرج معًا في السيّارة نحوط في الشوارع، ونحن نستمع لخطبة جمال. وقد ينضمّ إلينا بعض الأصدقاء لتلك المناسبة في السيّارة؛ لأنّ خطب الرئيس يعلن عنها سابقًا؛ ولأنّ بعض الخطب تطول فكنّا نخرج في السيّارة ونسوق في شوارع طويلة ممتدّة خارج مدينة الدوحة، في اتّجاه الشمال نحو مدينة الخور أو جنوبًا في اتّجاه مدينة الوكرة أو سلوى ونحن نستمع إلى الخطبة العظيمة. وكانت تلك شوارع ضيّقة ذات اتّجاهين، ولكنّها كانت هادئة، وتكاد تكون مقفرة من السيّارات ليلاً؛ فقد تمرّ ١٥–٢٠ دقيقة قبل أن نرى سيّارة قادمة من الاتّجاه المعاكس. أمّا هوايات صاحبي ناصر الغنائيّة، فمع أنّه كان يشاركني في حبّ أغاني أمّ كلثوم، إلا أنّه كان يميل كثيرًا لأغاني المطربة صباح، التي لم أكن مغرمًا بأغانيها.

ومن إيجابيّات الراديو أنّه أعاد للعرب فنونهم الشفويّة المسموعة بعد قرون من انحسارها؛ فقد كانت الأشعار والخطب تنتقل بين العرب بالحفظ، وكانت الرواية الشفويّة الوسيلة الوحيدة للإعلام عندهم؛ بسبب انتشار الأمّية بينهم. ولمّا انتشر التعليم وأسّست الصحافة، انقرض الإعلام الشفويّ أو كاد؛ فقد كنا ننتظر خطب الزعيم جمال عبد الناصر حيّة على الراديو ونتفاعل معها. ومع أنّه يخطب باللهجة المصريّة غالبًا، إلا أنّنا كنّا معجبين ببلاغته وإلقائه وفصاحته وشجاعته التي كانت تلهب حماسنا؛ فنهتف له بالحياة والنصر على أعداء العرب. ولقد عبّرت عن تلك المشاعر–لاحقًا– في قصيدتي المطوّلة (لاميّة الخليج) ؛ إذ قلت:

وثارتْ دماءٌ في الصدورِ لناصرٍ ... إذا قامَ في مصرٍ خطيبًا بلا مِثلِ
هتفنا له من كلّ فجٍّ ومَسكَنٍ: ... (يَعِيشُ جَمالٌ للعروبةِ والأهلِ)
فوَحدَتُنا حُلمٌ وناصرُ قائدٌ ... ولا لا.. لإسرائيلَ بالقولِ والفِعلِ

التصييف

التحوّل أو الانتقال المؤقّت في الصيف– من القرى والمدن المجاورة لساحل البحر إلى مناطق النخيل المرتفعة قليلًا عن البحر– من الأمور المهمّة لسكّان رأس الخيمة عبر السنين. والتصييف –باللغة الدارجة بين الناس في رأس الخيمة– هو التقييظ، نسبة إلى القيظ؛ وهي لفظة فصيحة، معناها صميم الصيف وشدّة الحرارة، لكنّ الجيل الحاليّ لا يستعملها، وفي طريقها إلى الانقراض، كما انقرضت ألفاظٌ خليجيّة كثيرة كنّا نستعملها أيّام الطفولة.

فالجوّ في معيريض حارّ نسبيًّا، وشديد الرطوبة طول السنة، عدا فصل الشتاء؛ وذلك من شهر نوفمبر إلى مارس. أمّا هذه الأيام (سنة ٢٠٢٤) فالحرارة في الخليج تستمرّ في شهر نوفمبر أيضًا؛ لذلك كانت الحرارة والرطوبة في القيظ خلال مايو–يوليو– أغسطس لا تطاق. ولقُربنا في معيريض من البحر كانت الرطوبة شديدة جدًّا؛ لذلك فإنّ سكّان إمارة رأس الخيمة، بما فيهم أهالي معيريض ينتقلون إلى الأماكن المرتفعة صيفًا، حيث بساتين النخيل والماء العذب، وقلّة الرطوبة، ثمّ العودة إلى مساكنهم في معيريض أوائل سبتمبر. والأغنياء من المتحوّلين يملكون نخيلًا يصطافون (يقيظون) بجانبها، والكثيرون من الذين لا يملكون نخيلًا يصيفون في مناطق النخيل أيضًا، أمّا الفقراء الذين لا يملكون نخيلًا فيظلّون قرب البحر؛ لعدم القدرة على تحمّل تكاليف النقل والسكن الجديد صيفًا، وكذلك يظلّ السمّاكون قرب البحر؛ بسبب المهنة؛ لحاجتهم إلى البحر.

أمّا عائلتنا فتصيف قرب نخيلنا في منطقة «شمل» القريبة من الجبال، حيث الجوّ جافّ جدًا، والماء شديدة العذوبة، وأهالي الوالدة من قبيلة المنانعة يصيفون قريبًا منّا. وقصيدتي (لاميّة الخليج) تحتوي على تفاصيل كثيرة عن نشاطنا في الصيف، وسأضمّن بعض أبياتها في هذا الفصل.

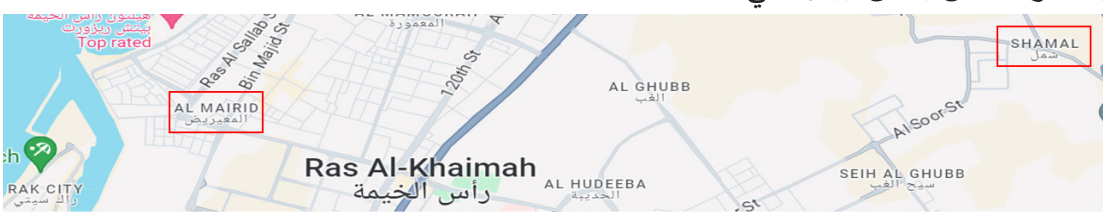

شمل، تبعد حوالي ٥ كلم عن معيريض

النخيل:

النخيل هي السبب الرئيسيّ لجلب الناس للتصييف؛ لما فيها من مغريات، نحو: الرطب، والماء العذب، وظلال الأشجار، وأحواض السباحة، والجوّ الجافّ؛ لذلك سأسهب في ذكر النخيل.

المصطلحات الخليجيّة المتعلّقة بالنّخيل:

لقد نشأت في البيئة الخليجيّة القديمة، التي كان النخيل والبحر أهمّ مصادر الحياة فيها؛ فكلّ ما في النخلة يستفاد منه، فمن ذلك: تمرها للطعام، وسعفها لبناء المساكن، وخوصها للمراوح اليدويّة والسلال، وكربها للدلالة على المواقع في البحر، وعسقها لصنع أقفاص صيد السمك، وليفها للتنظيف وصناعة الحبال، وجذوعها لتثبيت الجدران والأبواب

والسقوف، ونواها لطعام الغنم والبقر...الخ؛ لذلك فالمصطلحات السائدة في بيئتنا الخاصّة بالبحر والنخيل لغة الحياة، لا غنى عنها.

أنا أكتب ذكرياتي هذه لجيل عيالي وأحفادي الذين ما عاشوا في تلك البيئة، ولا علم لهم بالمصطلحات الكثيرة المتعلّقة بالنخلة؛ لذلك لا بدّ أن أشرح لهم بعض المصطلحات التي قد ترد في حديثي ويعرفها الكثيرون. ومع ذلك لا بدّ أن أبدأ بالقول: إنّنا أبناء الخليج، حظيظون بأنّ أغلب المصطلحات المتعلّقة بالنخيل هي نفسها في الفصحى، ولكنّ لهجتنا غيّرت نطق بعض الحروف فقط، لا كتابتها؛ فمثلًا نكتب «شجرة» وننطقها شيرة، بقلب الجيم ياءً. وفي الفصحى الجُلَّة هو الوعاء الدائرة مثل «القفّة» المعمولة من خوص النقل لتخزين التمر، ولكنّنا في الخليج نقلب الجيم المضمومة الجُلّة إلى قاف مفتوحة؛ فنقول «قَلَّة» ونكتبها بالقاف، ليس هذا فحسب، بل ننطق تلك القاف مثل الجيم المصريّة G التي يصعب كتابتها بالحروف العربيّة، فنقول Gallah. والغريب- في لهجتنا الخليجيّة- أنّنا- أحيانًا- نقلب الجيم قافًا، كما ذكرت، وأحيانًا نفعل العكس، بقلب القاف جيمًا، مثل مدينة «الشارقة» ننطقها «الشارجة». وهذه التغيرات في الألفاظ بسبب اختلاف القبائل العربية. والملاحظ الآن أنّ لهجتنا الخليجيّة في طريقها إلى الاندثار لتحلّ الفصحى مكانها؛ بسب التعليم. ومع حبيّ لأن تعمّ الفصحى كلّ الوطن العربيّ تمهيدًا للوحدة التي نحلم بها، بيد أنّه يحزّ في نفسي أن تنقرض لهجتنا الخليجيّة التي ربّينا عليها.

ولكن ما السرّ في هذا التقارب بين لغة أهل الخليج والفصحى، بخصوص مصطلحات النخيل؟ لقد فكّرت في هذا الأمر كثيرًا، وأعتقد بأنّي هُديت إلى معرفة السرّ:

أوّلًا: الخليج هو الموطن الأصليّ للنخلة، وقد برهنت على ذلك الحفريّات والدراسات العلميّة، كما يلي:
- كشفت الحفريّات أنّ مستوطنتين من العصر الحجريّ الحديث (في المكان الحاليّ للإمارات العربيّة المتّحدة والكويت) في مقابرها أحجار التمر المتفحّمة، التي يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر وحتّى الألفيّة السادسة والخامسة قبل الميلاد. وقد يدلّ ذلك على استعمال التمر للعلاج.
- أوّل حدائق النخيل المزروعة والمرويّة كانت في سفوح وأودية جبال عمان في العصر البرونزيّ المبكّر (٣١٥٠-٢٣٠٠ ق.م).
- أوّل مكان تمّ تلقيح النخل فيه هو العراق أيّام حامورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ قبل الميلاد).
- أوّل «مدبسة» لصناعة الدبس، تمّ اكتشافها في البحرين، في الألف الثاني قبل الميلاد.
لذلك، فمن الطبيعيّ أن تتكوّن الألفاظ والمصطلحات الخاصّة بالنخلة؛ قد أتت من البيئة الخليجيّة، موطن النخلة الأوّل.

ثانيًا: بالنسبة لمصطلحات النخيل التي نشأتُ أسمعها في رأس الخيمة، هي نفس المصطلحات في بقيّة الإمارات، وأغلبها عمانيّة الأصل، ولا عجب في ذلك؛ بسبب الجغرافيا والأنساب، وقد كانت منطقة الإمارات تسمّى ساحل عمان، قبل الاستقلال سنة ١٩٧١. وكانت عمان أقدم وأكبر من جميع إمارات الخليج الساحليّة. وكانت رأس الخيمة- أيّام طفولتي وصباي- أكثر الإمارات نخيلًا، ويصيف فيها بعض أبناء الإمارات الأخرى آنذاك.

ثالثًا: الذي وضع أوّل معجم للغة العربيّة وسمّاه (العين) هو الخليل بن أحمد الفراهيديّ، الذي ولد في عُمان سنة ١٠٠ للهجرة، وعاش في البصرة؛ فنقل المصطلحات العربيّة العمانيّة عن النخل من أهله وقومه؛ فكانت تلك أسس مصطلحات النخيل في الفصحى. وقد تبيّن لي- من مراجعتي للمعاجم عن تلك المصطلحات- أنّ ابن دريد ذُكر في بعضها بصفته مرجعا، وهو عمانيّ، ولد في البصرة سنة ٢٢٣هـ لأسرة عمانيّة غنيّة، ثمّ عاد إلى مدينة سحار في عمان ودرس اللغة على شيوخها، اثني عشر عامًا، ثمّ عاد إلى البصرة. وهو الشاعر المعجميّ، الذي وضع كتاب (الجمهرة في علم اللغة)؛ وهو قاموس في الدرجة الثانية، بعد قاموس (العين) للخليل.

أنا أعرف المصطلحات المتداولة في رأس الخيمة كما سمعتها من الأهل والجيران في مصيفنا منطقة شمل، ومازلت أتذكّر الكثير منها، وقد تكون في الإمارات البعيدة عن رأس الخيمة، مثل «أبو ظبي» مصطلحات لم أسمع بها لأعرفها؛

ففي الفصحى واللهجة الخليجيّة: النخلة: مفرد، والجمع: نَخْل ونَخِيل. ومجموعة من النخيل المحوطة بسور في رأس الخيمة، لا تسمّى حديقة ولا بستانا؛ وقد يكون لأنّها مخصّصة للنخل لا لأنواع مختلفة من الأشجار. والواقع، من النادر أن أشاهد– أيّام طفولتي– أشجارًا مثمرة من الفواكه مع النخيل، عدا سدرة أو رمّانة أحيانًا، أمّا شجر اللوز فلا يخلو نخل من شجرة أو شجرتين من اللوز قرب طويّ (بئر) النخل، تفرش ظلًّا كثيفًا على الحوض؛ لذلك، فالتسمية لتلك المجموعة هي «نخل» فقط، وتنسب إلى صاحبها، مثل نخل فلان. وبدلًا من حديقة النخل قد يقول البعض (زريبة النخل)، ولكن في الفصحى: الزريبة: هي حظيرة الماشية. الآن– وأنا أفكّر في مصطلحاتنا فقط– أدركت أنّ النخيل قد تكون جمع الجموع؛ أي: المفردة: نخلة، والجمع نخل، وجمع النخل: نخيل. فالزريبة الواحدة لشخص نقول عنها: نخل فلان، وإن كانت عنده أكثر من زريبة واحدة نقول: نخيل فلان، ولكنّ قاموس «معجم المعاني» يخالفني في ذلك، ويقول: «النَّخْلُ والنَّخِيلُ بمعنى واحد»، وأنا أقول: كلاهما جمع نخلة، ولكنّ النخيل جمع نخل.

وجدار الزريبة يسمّى (الطيّة)، ويبنى من الطين والحصى بارتفاع حوالي متر ونصف فقط؛ لمنع الحيوانات من الدخول. وفوق ذلك الجدار يكدّس «الزرب»؛ وهو أغصان الشجر الجافّ والمحتوي على شوك كثير، وبالأخصّ أغصان أشجار القرَط، الذي لا تستطيع الحيوانات– بما فيها الجمال– اختراقه. وفي اللغة: الزَّرْبُ: هو السياج، أو السُّور من الشِّباك.

«الطيّة» تحيط بنخل خالي عليّ بن عبد الله بن هندي الشامسيّ، في شمل، أثناء صيف سنة ١٩٥٩، وأنا جالس على الجمل.

الطيّة

التحوّل من معيريض إلى شمل:

أتذكّر– أيّام الطفولة والصبا– رحلات التحوّل من معيريض إلى شمل بداية الصيف والعودة في نهايته؛ وهي رحلات لا أنساها أبدًا؛ ففي يوم التحوّل يأتي رجلان من البداة (بدو الجبال)، حسب اتّفاق مسبق، مع ما لا يقلّ عن أربعة جمال، إلى معيريض وينيخونها عند باب منزلنا في الصباح، بعد شروق الشمس مباشرة؛ لنقل أغراضنا إلى شمل. ونحن نتعامل مع عائلة معيّنة من البداة، لها صداقة قديمة مع أهل أمّي، وعندهم نخل قريب من نخلنا.

يحمل الرجلان ما نحتاج إليه من أثاث وقدور وصناديق وحقائب، وأواعي وسلال وبرام على الجمال. فيقود أحدهما الجمال خارج معيريض، ونمشي نحن مع أغنامنا وأبقارنا، وكلبنا خلف الجمال. أمّا حمارنا فلركوب الوالد، الذي يجلس عليه، حاملًا مظلّة على رأسه تقيه حرارة الشمس. وتستغرق الرحلة حوالي ساعة ونصف. وعند العودة إلى معيريض– في أوائل سبتمبر– نطلب من البداة أن ينقلوا أغراضنا للعودة إلى معيريض.

وقد وصفت رحلة التحوّل تلك في لاميّة الخليج، وممّا قلت فيها:

سكنّا خيامَ الخُوصِ قربَ سَفينِنا ... وإن حَلَّ فصلُ الصيفِ حُلنا إلى النخلِ[١]
ونُكري ركابَ البدوِ تنقلُ قَشَّنا ... وقد ناءتِ البُعرانُ من ثِقَلِ الحَمْلِ[٢]
نعلّقُ جِفْرانًا بجنبيْ سَنامِها ... وجَرّاتُنا مالتْ على جانبِ الرَّحلِ[٣]
ورَنَّتْ قُدورُ الطَّبخِ تَعزِفُ نغْمَةً ... تُسلّي جمالَ البدوِ من وَحْشةِ السُّبْلِ
ويُمسِكُ خَطْمَ العَوْدِ جمَّالُ ركبِنا ... وما خافَ شوكَ الدَّربِ يمشي بلا نعْلِ[٤]
فيشدو وطولَ الدَّربِ يَحدو مطيّهُ ... فتتبعُهُ طوعًا ولو مدَّ بالحبلِ[٥]
وتنقلُ سلاَّتِ النِّساءِ حميرُنا ... وبُقشاتُها في الخُرْجِ تبرزُ كاليَحْلِ[٦]
وتتبعُ أبقارٌ بصَمتٍ نَقودُها ... تخورُ إذا حنّتْ إلى رُؤيةِ العِجْلِ
وأغنامُنا سِيقتْ تسيرُ وراءَنا ... وبانت خيوطُ الحِرْزِ في عُنُقِ السَّخلِ[٧]
ويتبعُ كلبُ الدَّارِ أغنامَ ركبِنا ... ويحرُسُها من غدرِ ذيبٍ ومن نَشلِ
وأُسرِعُ أحيانًا إلى الكلبِ راكضًا ... فتسحبُني أُخْتي فأَمشي مع الرَّجْلِ[٨]
ويَجلِسُ من قد شابَ تحتَ مظلّةٍ ... تقيهِ هجيرَ الشمسِ وهْوَ على البغلِ[٩]
ولمّا دنا الحُوَّالُ قربَ عَريشِنا ... أناخوا وحطُّوا الحَملَ عن أظهرِ الإبلِ[١٠]
ففي (شِمَلِ) الأخوالِ طابَ مَقيظُنا ... وأسعَدَ لمُّ الشَمْلِ في (شِمَلِ) أهلي[١١]

عرش القيظ:

كنّا ننتقل كلّ صيف إلى شمل؛ للتصييف في عرشنا قرب نخلنا. وأتذكّر التفاصيل الكثيرة عن فصل الصيف هناك؛ فقد كان منزلنا الصيفيّ مكوّنًا من ثلاثةِ عُرش، تمتدّ من الشرق إلى الغرب، وأبوابها نحو الشمال، يحيط بها جدار ساتر من الجريد. العريش في اللغة مذكّر، وكذلك في الخليج، في الغالب، وجمعه في اللغة عُرُش– بضمّ العين والراء، وفي الخليج جمع العريش عِرْش (بكسرة على العين وسكون على الراء)، والعِرش مؤنّثة في الخليج. وكان لزوّار الوالد مجلس تحت غافة كبيرة معمّرة، عمرها حوالي ٣٠٠ سنة، اسمها (غافة آمنة). وكانت تلك الغافة قرب ركن زريبة النخل، وتبعد حوالي خمسة وعشرين مترًا شمال عُرش العائلة. وكان ضيوف الوالد– وكذلك المتخاصمون– يأتون للوالد (قاضي البلاد) من مناطق مختلفة من رأس الخيمة؛ ليحكم بينهم تحت تلك الغافة (ذكرتها في قصيدة الضيوف أدناه). وكان

---

١. خيام الخوص: خيام مصنوعة من سعف النخل تسكن شتاء، وهي غرفة وسقفها مرتفع في الوسط ومائل على الطرفين؛ ليناسب نزول المطر. أمّا العريش فيسكن صيفًا وجريد جدرانه منزوع الخوص في الثلث الأسفل؛ ليسهل دخول الهواء، وسقفه موازٍ للأرض؛ لندرة سقوط الأمطار صيفًا. حلنا: تحوّلنا.

٢. نكري: نستأجر والكِرْوَة: الأجرة. رِكَاب: جمال. القَشّ: العفش والأثاث (خليج). وفي اللغة القشّ ما يُكْنَس من المنازل (لسان العرب). ناء: نهض بجهد ومشقّة.

٣. الجِفْران: جمع جَفير: سلّة من خوص أو غضف لها عروتان (خليج). و الرَحْل: ما يوضع على ظهر البعير كالسرج أو الأثاث.

٤. العَوْد: البعير المسنّ.

٥. يحدو: يسوق الإبل ويغنّي لها.

٦. البقشات: جمع بُقْشة: حزمة أو صرّة من الثياب (خليج) وفي بعض الدول العربيّة الشماليّة تسمّى بُقْجة، وهي معربة من أصل تركيّ (المنجد). الخُرْج: مشتقّة من «خرْجَة» وهي قطعة قماش على ظهر الحمار (خليج) والخُرْج: وعاء يوضع على ظهر الدّابّة (المنجد). اليَحْل: جمع يَحلة: جرّة من خزف لها بطن كرويّ (خليج). وأصل الكلمة: جَحْلة وجَحْل: الزقّ: الكبير (المنجد). الجَحْلة: الجزء المكوّر من الإناء الذي يفصل عنه عنقه (المعجم اليمنيّ في اللغة والتراث). بَرَزَ: خرج.

٧. الحِرز: التميمة، تضعه النساء في عنق العنز أو السخل، أو الطفل عن العين والسحر.

٨. الرَّجل: المشاة خلاف الراكبين على الدوابّ.

٩. شابَ: خالطه الشيب.

١٠. الحوّال: المتحوّلون من مكان إلى آخر (خليج).

١١. شِمَل: اسم منطقة نخيل في رأس الخيمة كنّا نسكنها صيفًا. المقيظ: المصيف.

المجلس هو ظلّ الغافة، مفروشًا بالحصر المعمولة من سعف النخل، وعليها السجّاد، والمساند؛ وهي المخدّات الكبيرة؛ للاتّكاء والتسنّد عليها أثناء الجلوس.

وقد قلت في لاميّة الخليج عن العرش:

وعرْشٍ ببطْنِ البَطْحِ مالتْ رؤوسُها ... جَنوبًا وما مالتْ لنقصٍ من الحَبْلِ[1]
ولكنَّها مالتْ لطُولِ جَريدِها وقد ... ماتَ بانِيها وما كانَ ذا جهْلِ
لجأنا بها والقَيظُ يشتدُّ وَهْجُه ... لتحضُنَنا، والعِرْشُ تحنو على الأهْلِ[2]
فجادتْ لنا بالحُبِّ والحِبُّ باردٌ ... يُزيلُ ظما العطشانِ من أوَّلِ النَّهْلِ[3]
وحِبٍّ بعِرْشِ القيظِ بالحِبِّ والهُ ... تكادُ مياهُ الحِبِّ من لَمْسِهِ تَغْلي[4]
وإن دَوَّقَتْ ريحُ النسيمِ بِعِرْشِنا ... وذُقنا لهيبَ الحرِّ في كِلَّةِ الفَصْلِ[5]
تَصبَّبتِ الأبدانُ من كُلِّ جانبٍ ... وصبَّتْ على الأثوابِ بالعَرقِ الوَبْلِ
مَسَكْنا مَهَفَّاتِ النخيلِ نهفُّها ... على الصدرِ والوجهِ المُعبِّرِ عن وَجْلِ[6]
فهبّت نُسيْماتُ البَرادِ براحةٍ ... تُعيدُ إلى الجسمِ الحياةَ وللعقلِ[7]
وتُسعِفُ أحواضُ النخيلِ بمائها ... وتُنذرُ حرَّ الصيفِ بالويلِ والقتْلِ

الحبّ

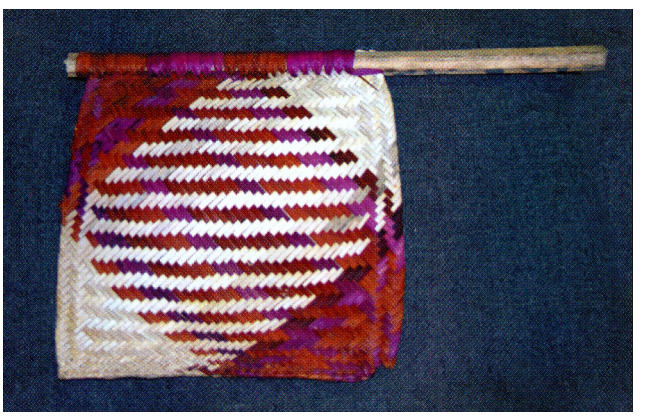

مهفّة

وفي شمل، لم نكن نسكن مع أقاربنا في منطقة واحدة، لكن في ثلاث مناطق متباعدة. ولا بدّ من تفصيل ذلك؛ ليكون مرجعًا للجيل الحالي من العيال الذين لم يعرفوا أولئك الأقارب الذين سأذكرهم؛ ولذلك أقترح على غير أقاربي أن يترك الثلاث فقرات القادمة؛ لعدم أهمّيّتها لهم؛ فنحن كنّا نسكن في أقصى شمال شرق شمل؛ بسبب موقع نخلنا، وخالي عليّ وعائلته يصيفون جنوبنا بحوالي نصف كيلومترا؛ حيث زريبة نخله. وغربنا بحوالي كيلومترا مصيف لأهلنا من عجمان، وفيهم عمّة الوالدة عائشة بنت هلال المناعيّ وعيالها، قرب عرش عائلة أحمد بن جبر الشامسيّ زوج أختها (من الأمّ،

---

١. العِرْش: جمع عَريش؛ وهي خيمة مبنيّة من سعف النخل بعد تقشير الخوص من أسفلها، ولها سقف موازٍ للأرض تسكن صيفًا (خليج)، البَطْح: الأرض المنبسطة، الواسعة التي تغمرها السيول، جمعها بطاح وبطوح (خليج).
٢. لجأنا بها: دخلنا بها، والقيظ: شدّة الصيف.
٣. الحِبّ– بكسر الحاء–: جرّة من الفخّار يبرّد فيها الماء (خليج). وفي اللغة الحُبّ (المنجد).
٤. الحِب: الحبيب.
٥. دوّقت الريح: سكنت (خليج). كلّة الفصل: شدّته وقمّة تأثيره حرارة أو برودة (خليج). وفي اللغة: الكَلُّ: الثقل (لسان العرب).
٦. مهفّات: مراوح يدويّة مصنوعة من سعف النخيل (خليج). وفي اللغة هفّت الريح: هبّت فسمع صوت هبوبها. الوجَل: الخوف، سكّنت الجيم للضرورة.
٧. البَراد: الهواء البارد في الصيف (خليج).

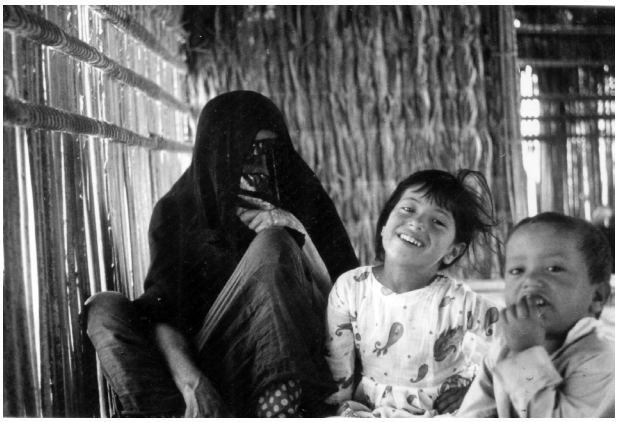

عمّة الوالدة في عريشها، مع الأطفال في شمل سنة ١٩٥٩

العرش في شمل

وهي مريم بنت عليّ المناعيّ، التي كانت المرجع الوحيد لأنساب العائلة)؛ فالمنانعة والشوامس في عائلة أمّي متشابكون كثيرًا بالزّواج عبر الزمن؛ فأحمد بن جبر شامسيّ، أما أمّه مناعيّة من عمّات أمّي. ووالد أمّي مناعيّ وأمّها شامسيّة، وزوجها (أمّ الوالدة) الأوّل شامسيّ؛ لذلك خالي عليّ وخالتي مريم من الزوج الأوّل شوامس؛ فخالي الشامسيّ أخو أمّي من الأمّ، تزوّج أخت أمّي من الأب عاشة بنت سالم المناعيّ، التي لا تقرب له؛ لذلك عيال خالي من عاشة هم عيال خالي وعيال خالتي أيضا. أنا أدرك أنّ هذا الحديث عن تشابك نسب الأهل يتوّه القارئ، وسأكتفي بذلك.

وفي أقصى جنوب شمل، تسكن خالتي مريم بنت عبد الله الشامسيّ مع أنسابها المنانعة؛ فزوجها حميد بن جاسم المناعيّ، شقيق شيخة بنت جاسم المناعيّ، زوجة خال الوالدة (علي الشامسي).

وأنا كنت أذهب مع أمّي صيفًا؛ لزيارة كلّ هؤلاء الأقارب في شمل، طفلًا، ولمّا صرت صبيًّا كنت أذهب ماشيًا وحدي إلى عرش أولئك الأقارب؛ للزيارة واللعب. وفي منطقة عمّة الوالدة عائشة بنت هلال، كانت الطفلة مريم بنت عبد الله المناعيّ، أمّها شيخة بنة عاشة بنت هلال (عمة الوالدة)، أقرب الأطفال منّي سنًّا وقرابة في شمل؛ فكنّا زملاء الطفولة نلعب معًا. ومنذ الطفولة وأنا أسمع من الأهل يذكرونها بأنّها خطيبتي وأنا خطيبها. ولمّا كبرنا وبلغتُ الخامسة عشرة من العمر، قرّرت أمّي أن يتمّ عقد نكاحي على «الخطيبة» قبل سفري للدراسة في الكويت؛ كي تنتقل للعيش مع أمّي في بيتنا في معيريض، بدلًا من الذهاب إلى عجمان حيث يسكن أهلها. وقد باركت العائلة كلّها فكرة عقد النكاح ومنهم الوالد. ولكن لمّا سمعت خالتي مريم سارعت بإخبارنا بأنّ مريم أختي من الرضاع؛ فقد رضّعتنا معًا مرارًا؛ ولذلك تمّ إلغاء فكرة الزواج.

المنامة

أمّا النوم ليلًا في شمل؛ فكنّا ننام على المنامة (السيَم) المرتفعة عن الأرض بأعمدة خشبيّة، كما في الصورة؛ تجنّبًا للحشرات والدوابّ، كما أنّ الهواء في مكان مرتفع أفضل.

وخلافًا للمنامة في معيريض، نستيقظ في شمل والفراش جافٌّ جدًّا، في حين، يكون الفراش في معيريض رطبًا جدًّا؛ بسبب رطوبة الهواء الشديدة.

نخيلنا:

كانت النخل– في الأصل– ملكًا لجدّي سالم بن هلال المناعيّ، والد أمّي، ولمّا قربت وفاته باعها على الوالد. وأخبرتني الوالدة أنّ والدها كان يريد أن يعبر فوق طيّة زريبة نخله، فتسلّقها وانزلق وسقط على أحجار، وأصيب بجرح عميق في رجله؛ فنام في منزله يتطبّب بالأعشاب الطبّيّة؛ لعدم وجود أطبّاء حقيقيّين في رأس الخيمة آنذاك، فتعفّن الجرح، وأصيبت رجله ب(الغنغرينا) فعرف أنّه هالك، فأرسل إلى والدي؛ كي يوصيه بما يفعل له بعد وفاته؛ فذهب الوالد مع الوالدة من معيريض إلى شمل مشيًا، وكنت معهما، ولكنّي لم أتعدَ الأربع سنوات من العمر. وكان الجدّ مع عائلته

يقضون الشتاء في الرمس، إلا أحيانًا بعد الصيف يكمل الشتاء في منزله في شمل، حيث يملك بيتًا من الطين. وكلّ الذي أذكره ذلك اليوم أنّ جدّي كان مستلقيًا على ظهره فوق مطرح، في ظلّ غرفة من الطين، رأسه نحو الشرق، ورجله المصابة سوداء اللون. ولا أذكر غير ذلك، ولكنّ أخبرتني أمّي- بعد أن صرت صبيًّا- أنّ جدّي قال لوالدي: اشتر النخل بكذا روبيّة، «وسدّد عنّي دينًا بقيمة ٢٥ روبيّة لصاحبي فلان المهيريّ (والد أمّ الشيخ فاهم بن سلطان القاسميّ)، الذي كان صديقه ومرافقه في الغوص. ثمّ وزّع بقيّة المال على التركة». وأضاف، قائلًا للوالد: «أنا أعلم أنّه لا خبرة لك بالنخيل، ولكن لا تخف فعليا (أمّ الوالدة) تعرف للنخيل جيّدًا». أمّا تلك الغرفة الطينيّة فأذكرها؛ لأنّي كنت ألعب حولها في الصيف بعد وفاة جدّي سالم. وكانت أقرب لنخل خالي في جنوب شمل من نخلنا.

خالي علي الشامسي قرب نخله في شمل صيف ١٩٦١

الرطب:

أفضل طريقة لزراعة النخيل لتكاثرها، هو نقل الصرمات الصغيرة التي تنمو من جذع النخلة الأمّ، إلى أماكن أخرى. النخل من الأشجار التي يميّزها وجود شجرة أنثى وشجرة ذكر (فحل)؛ فصغار الأنثى أنثيات وصغار الذكر ذكور. ويركّز المزارع على نقل وزراعة صغار الإناث؛ لأنّها النخيل المثمرة، ولا يزرع من الفحول إلا القليل جدًّا؛ ففحل واحد يكفي لتلقيح نخلات عديدة من الإناث؛ لذلك فالعوامل الطبيعيّة- مثل الهواء والحشرات- لا تكفي لنقل نبات الذكور إلى نبات الإناث للتلقيح؛ فالإنسان مضطرّ للتلقيح باليد، منذ أن عرف زراعة النخيل. وهناك صور للملك البابليّ، حامورابي -في القرن السادس عشر قبل الميلاد- يحتفل بتلقيح النخيل في العراق.
الصورتان أدناه من حديقة منزلي تبيّن الفرق بين النباتين.

نبات الفحل

وثمرة النخلة تَمُرُّ بمراحل، والرطب هو الثمرة الناضجة؛ وهي الأفضل طعمًا وفائدة للجسم. وقد لاحظت أنّ الجيل الجديد من عيالنا، لا يعرف حتّى اليسير عن النخلة وثمارها، كما عرف جيلنا. لم يعلّمنا أحد عن النخلة، ولكن تعلّمنا من البيئة التي عشناها بالرؤية والسماع؛ فثمار النخلة الذي يؤكل هو كما يلي حسب مرحلة النضج (وسأهمل المرحلة الأولى- الحبيبو- لأنّها غير صالحة للأكل):

١. الخلال: لونه أخضر، وكنّا نأكله، ولكنّه لم يكن لذيذًا، والآن يندر أن يأكله الناس. ومن مميّزاته أنّه يحتوي على نسبة عالية من فيتامين A المفيد للنظر، وهو علاج جيّد للعشاء الليليّ.

٢. البسر: المرحلة التالية للنضج، فيكون إمّا أصفر أو أحمر حسب صنف النخله، وهناك حوالي ألفي صنف من النخل. والبسر لذيذ ومحبوب.

نبات النخلة الأنثى

٣. الرطب: المرحلة الثالثة، وهو الثمرة الناضجة. فالجزء الناضج من الرطبة بنيّ اللون، والبقيّة لون البسرة؛ إمّا أصفر أو أحمر، والرطبة التي نصفها بسر ونصفها رطب هي الأفضل طعمًا، وتسمّى «المحقبة»؛ أي أنّ الحد بين البسر والرطب عليها، كخيط الحقب على البطن.

الرطب المحقب

٤. التمر: المرحلة الأخيرة؛ وهو الرطب الجافّ، ونسبة السكّريّات فيه أكثر؛ لأنّ السكّر مركّز بعد فقدان الماء بالتجفيف. والتمر متوافر طول العام؛ لأنّه لا يتلف دون تبريد. وكان التمر أهمّ أطعمة العرب؛ فقد روي عن عائشة- رضي الله عنها- أنّها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، بيت لا تمر فيه جياع

أهله، وكرّرها ثلاثًا». وقالت عائشة– رضي الله عنها–: «لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ وما لنا طعام إلا الأسودان: التمر، والماء». ولا شكّ عندي أنّ التمر ساعد العرب– ومنهم أهل الخليج– في أيّام الفقر والعوز، على حفظ الصحة. وكنّا– نحن الصبيان– عندما كنّا ندرس القرآن عند المطوّعة ونذهب إلى البيت الضحى لأكل التمر، يأكل الفرد منّا نصف صحن؛ أي حوالي كوبين من التمر كلّ يوم؛ فبجانب السكّريّات للطاقة الحراريّة، يحتوي التمر على الفيتامينات والمعادن المهمّة، وأهمّها الحديد؛ فكان التمر من المصادر الرئيسيّة؛ لمنع فقر الدم عند النساء الحوامل.

الخلال

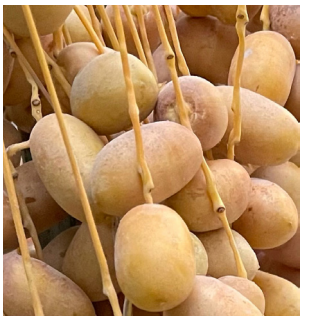
البسر

الرطب

التمر

الرّي:

كنت أستيقظ صباحًا في شمل على صوت المنيور بعد الفجر، في بداية الصيف، ثمّ تعوّدت على ذلك الصوت الموسيقيّ، فلا يوقظني من النوم. والمنيور (منجور) اسم البكرة الخشبيّة التي تدور حول عمود خشبيّ مدوّر مربوط على جذعين بارتفاع ٣–٤ أمتار. يمرّ على البكرة حبل الدلو، فيحرّكها أثناء الريّ؛ فاحتكاك خشب المنيور على خشبة العمود فيها ينتج الصوت الموسيقيّ الذي يسمع على بعد أكثر من ٢٠٠ متر، كما أذكر.

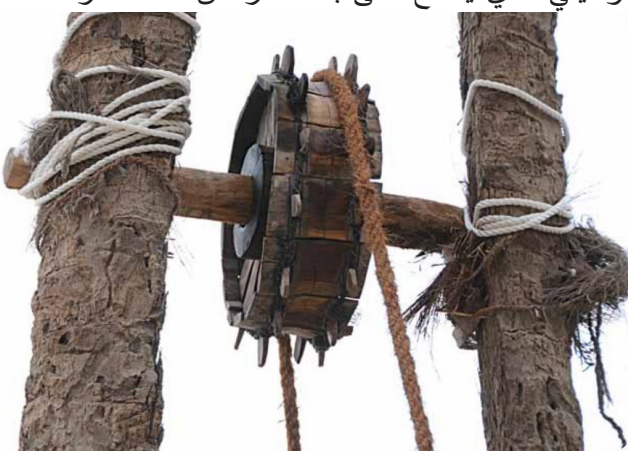
بكرة المنيو

في صيف سنة ١٩٥٩ وخلال الإجازة المدرسيّة في الكويت، زرت الأهل في قطر لمدّة شهر، ثمّ قضيت شهرًا في رأس الخيمة مع بقيّة الأهل والأصدقاء، ثمّ ذهبت؛ للسباحة في حوض لنخلنا السابقة في شمل. وأكلت رطبًا من نخلة اللؤلؤ التي كانت مخصصة لي أيّام الطفولة بشوق. وكنت آنذاك عضوًا في نادي التصوير والجغرافيا في مدرستي؛ مدرسة المتنبّي المتوسّطة في الكويت. وكان المطلوب منّي استعمال فلمين؛ للتصوير خلال الصيف؛ أي حوالي ٧٢ صورة؛ فكنت أتفرّج على المزارع وهو يسقي النخل باستعمال الثور، الذي يسحب حبل الدلو من البئر على بكرة المنيور. ولم يكن ذلك المنظر الذي تعوّدت على رؤيته منذ طفولتي أمرًا نادرًا لي يستحقّ التصوير، ولكنّ حاجتي لإتمام واجب المدرسة، أرغمتني على تصوير ذلك المنظر. والآن صارت تلك الصور– بعد انقراض طريقة الريّ تلك– صورًا نادرة جدًّا، يصعب الحصول على مثلها؛ فمتطلّبات الريّ قديمًا: بئر الماء، الدلو المربوطة بالحبال، المنيور المربوط على الجذعين وحوله حبل الدلو، والثور المدرّب، والمزارع الذي يثبّت الحبل على كتف الثور، ويقود الثور نزولًا وارتفاعًا في الخَب وهو المنحدر المحفور لذلك الغرض. ولمّا يصل الثور إلى آخر المدى السفليّ في الخب، يكون الدلو خارج

البئر؛ فيصبّ ماءه الذي يجري إلى الحوض. ومن الحوض يتسرّب الماء في جداول إلى النخيل. ويتحكّم البيدار في توجيه سريان الماء، من نخلة ثمّ أخرى باستعمال الطين.

طريقة الريّ باستعمال الثور من تصويري سنه ١٩٥٩

ففي الصورة الأولى ينزل المزارع بالثور منحدرًا في الخب، ووزن الثور يساعده وهو منحدرٌ على سحب حبل الدلو المملوء بالماء من البئر. وفي الصورة الثانية الدلو خارج البئر ويصبّ الماء. وفي الصورة الثالثة يعود المزارع بالثور إلى أعلى، فينزل الدلو إلى أسفل البئر، ليمتلئ من جديد.
وقد وصفت طريقة الريّ تلك في اللاميّة، قائلًا:

أَحِنُّ لذاكَ العَصرِ والنـخلِ والأَثْلِ ... وصيفٍ به المَنْيُورُ يشدو على مَهلِ[١]
فيَطرَبُ ثورُ الخَبِّ في الخَبِّ راقِصًا ... ويمشي بحبلِ الدَّلْوِ هَوْنًا وفي ذُأْلِ[٢]
إذا غَفَلَ الثورُ الذَّلولُ هُنَيهةً ... يذكِّرهُ البَيْدارُ بالزَّجرِ والرَّكْلِ[٣]
فيسحَبُ أشطانَ الطَوِيِّ بكَتْفِهِ ... ليندفقَ السيلُ الجليلُ من السَّجْلِ[٤]
فلو شاهدَ العبسيُّ أشطانَ بيرِنا ... لرقَّ لذاكَ الثورِ يشكو من الأسْلِ[٥]

الحوض:

---

١. المنيور: أصلها المنجور: بكرة كبيرة يُجرّ عليها حبل الدلو (خليج). ولقد عثرت على كلمة المنجور في المخصّص ج٩ ص ١٦٨ بنفس المعنى الخليجيّ؛ إذ جاء فيه: «المحالة والمنجور في بعض اللغات: البكرة العظيمة التي تسقى بها الإبل». وكلمة المنجور مثل المصنوع؛ أي الذي نجره النجّار؛ أي صنعه.
٢. الخَبّ: مسار محفور لمشي الثور ينخفض كلّما بعد الثور عن البئر (خليج). وفي اللغة: الخَبّ: سهل بين حزنين (لسان العرب) ، الذأل: المشي بخفّة.
٣. البَيدار: الفلاّح، بلغة أهل عمان والإمارات.
٤. أشطان: جمع شطن وهو حبل. الطويّ: البئر المطويّة. السجلّ: الدلو العظيمة.
٥. العبسيّ: عنترة بن شدّاد؛ إذْ قال:
يدعونَ عنترَ والرماحُ كأنّها ... أشطانُ بئرٍ في لبان الأدهمِ:
فازورَّ من وقع القنا بلبانه ... وشكا إليّ بعبرة وتحمحمِ
الأَسَل: الرماح، سكّنت للضرورة، والمقصود هنا أشطان البئر.

وقد قلت في اللاميّة عن حوضنا:

وحوضٍ بظلِّ اللَّوزِ يبرُدُ ماؤُه	فترتعشُ الأطفالُ في الحوضِ والظلِّ[١]
فنسبَحُ فيه قبلَ ظُهْرٍ وبعدَه	للهوٍ، ولم نَجنَحْ إلى الحوضِ للغَسلِ
ويسقُطُ لوزٌ أحمرٌ عنْ شِمالِنا	وأصفرُ مَعسولٌ على شرقِنا الضَّحْلِ[٢]
وأشْبى الشَّبَا في الماءِ في كُلِّ جانبٍ	وينمو كأهدابِ النسيجِ وكالبَقْلِ[٣]
فلم نكترِثْ من طُحلبٍ لفَّ حولَنا	كما لُفّت الأحرازُ خوفًا مِن النَّضْلِ[٤]
ونَخْرفُ بينَ الحينِ والحينِ لؤلؤًا	لتَزْيينِ أحْشاءٍ بجِدٍّ وبالهَزْلِ[٥]

كان حوض نخلنا والبئر المجاور له في ظلّة لوزة ضخمة، تظلّل منطقة كبيرة حول البئر. وماء الحوض الضحل، الذي لا يزيد عمقه عن ٩٠ سنيمترا، بارد؛ بسبب الظلّ ومرور الريح الجافّة عليه؛ فكنت صبيًّا محبًّا للسباحة في حوض نخلنا المجاور للبئر مع الأطفال الذين يلعبون معي. وقد كنت متقنًا للسباحة والغوص في الحوض؛ لأنّي كنت أسبح في بحر معيريض منذ كنت في الخامسة من العمر؛ بفضل تدريب ابن عمّي لي. والحوض مليء بالشبا (الطحالب) بخيوطها الخضراء الطويلة، التي تعوّدنا عليها فاعتبرناها طبيعيّة في الحوض.

أهمّ من كان يسبح معي في الحوض وأنا صغير لم أتجاوز التاسعة من العمر طفلة قريبة من سنّي؛ وهي عائشة بنت حميد المناعيّ، وهي بنت خالتي مريم بنت عبد الله الشامسيّ. ومرّة قرّرنا أن نتنافس في الغوص تحت الماء، ليكون الفائز من يظلّ تحت الماء أطول. وكنت أقدر من عائشة على الغوص مدّة أطول؛ لأنّي كنت متدرّبًا على ذلك في البحر، أمّا عائشة فلم تسبح في البحر قطّ. فأخذنا نفَسًا عميقًا وغطسنا معًا، فكنت أفتح عيني تحت الماء وأراقبها، حتى عَجزَت، فأخرَجَت رأسها من الماء لتتنفّس، وأنا أرفع لها يدي من تحت الماء متحدّيًا، وهي تضحك، حتّى ضاق نفَسي، ولكن تصبّرت وتحمّلت أكثر، حتّى لم أتمكّن أن أظلّ تحت الماء أكثر، فقفزت من تحت الماء بسرعة وقوّة شديدة، وعائشة تضحك، فارتطم رأسي بفمها الضاحك، وغارت أسنانها الأماميّة في رأسي؛ فصرخت عائشة متألّمة، مثلما صرختُ متألّمًا، والدماء تسيل من رأسي وفم عائشة، فسمع الأهل صراخنا وهم في العريش خارج النخل؛ فأسرعوا إلينا، وسحبونا من الحوض؛ لإسعافنا. فلم تكن عندهم حيلة لإيقاف النزيف من أسنان عائشة، أمّا أنا فأخذتني شيخة بنت جاسم المناعيّ، زوجة عليّ بن عبد الله الشامسيّ، خال أمّي، ووضعت تمرًا في جرح رأسي حتّى توقف النزيف. ثمّ أتت برماد من موقد النار الذي كانت أمّي تطبخ عليه، وملأت به جرح رأسي، ثمّ غطّت الجرح بتمر معفوص، وربطت رأسي بخلقة. وكرّرت تغيير ذلك العلاج لمدّة خمسة أيّام، ثمّ تركت الجرح بعد أن جفّ دون غطاء، فتعافيت. وما زال أثر ذلك الجرح واضحا في رأسي. أمّا ابنة خالتي فتوقّف نزيف الفم، ولكن لم تكن عندهم حيلة لتخفيف الألم. بعد سنوات قليلة من تلك الحادثة أصيبت عائشة بمرض أدّى إلى وفاتها؛ لعدم وجود أطبّاء ومستشفيات في رأس الخيمة آنذك. وقد أنجبت خالتي عدّة أطفال وكلّهم ماتوا أثناء الطفولة. وكذلك مات زوجها حميد بن جاسم المناعيّ، وهو من أبناء عمومة أمّي، قبل أن أبلغ العاشرة من العمر.

الآن، وأنا أتذكّر ذلك العلاج البدائيّ القديم لعلاج الجرح في رأسي، لا استهين به؛ فإيقاف النزيف بضغط التمر فيه، كان منطقيًّا. وقبل أن أعلّق على ذلك العلاج البدائيّ الذي ذكرته أعلاه، لا بدّ أن أعلّق على العلاج الطبّيّ الحديث للجروح؛ فالمطهّرات والأدوية التي نضعها هذه الأيّام حول الجروح وداخلها، وظيفتها النظافة ومنع دخول الجراثيم الجرح؛ كيلا تفسده، ولا دور لها في عمليّة برء الجرح.
فنحن نعرف الآن أنّ الجراثيم لا تعيش في التمر ولا العسل؛ لأنّ تركيز السكّر العالي– مثل تركيز الملح العالي– يمنع الجراثيم من الحياة والتكاثر؛ لذلك لا يحتاج التمر للحفظ في ثلّاجة لأكثر من سنة. والسبب العلميّ هو أنّ السكّريّات

١. اللوز: شجر مثمر (خليج).
٢. الضحل: قليل الماء.
٣. أشبى: التفّ وطال، والشبا: يطلق على الطحالب التي تنمو في الماء العذب أو البحر (خليج).
٤. النضل: المصيبة أو المرض؛ بسبب العين (خليج).
٥. خرَفَ: جنى الرطب من النخل (خليج). لولو: صنف من أصناف الرطب، يشبه اللؤلؤ في استدارته (خليج).

في التمر تمارس الضغط الأسموزي osmosis على الخلايا الجرثوميّة، مثل جرثومة البكتيريا، فتسحب الماء من الخلايا عن طريق التناضح فتصيبها بالجفاف. ونتيجة لذلك، تتقلّص الخلايا؛ بسبب الجفاف، ولا تتمكّن من العيش في محلول السكّر المركّز hypertonic sugar solution.

أمّا الرماد فهو مادّة نظيفة ومُعقَّمة؛ نتيجة لاحتراق الحطب بالنار؛ فالرماد في الجرح يشكّل طبقة مانعة من دخول الجراثيم. أمّا عملية برء الجرح، فيقوم بها الجسم نفسه، عن طريق الدورة الدمويّة الغنيّة بالغذاء، التي تساعد في بناء أنسجة جديدة، وفيها كرات الدم البيضاء المقاومة للجراثيم، وكرات الدم الحمراء التي توصل الأكسجين. فالمطلوب للجروح منع التلوّث بالجراثيم، أمّا بناء الخلايا لسدّ الجرح وبرئه فذلك ما يفعله الجسم.

أمّا صديقي الثاني في شمل فكان صبيًّا اسمه سعيد وهو من البداة (بدو الجبال)، ولهم نخل قرب نخلنا. فأذكر أنّنا كنّا نلعب كثيرًا في ظلّ عريشنا، بتعليق لعبة مثل المنيور نربطها على جريد العريش ونسحب حبلًا حولها. وكنّا نمشي بين نخلنا ونخلهم، فكنت ألبس نعالًا وأشتكي من أشواك كرويّة صغيرة، تدخل نعالي فتؤلمني، وهو يمشي حافيًا ويضحك منّي؛ لأنّه لا يحسّ بألم من تلك الأشواك الصغيرة؛ لأنّ جلدة قدمه صارت خشنة، لتعوّده على المشي حافيًا.

لقد سمعت عن سعيد لمّا كبر وصار شابًّا، بأنّه كان واقفًا يتحدّث مع ابنة عمّه ببراءة في وضح النهار، فلمّا رآهما والدها (عمّه)، اشتطّ غضبًا لوقوفهما على انفراد؛ فأطلق عليه النار وقتله، فحزنت عليه.

الحيوانات والحشرات في شمل:

الحيّة:

في نخلنا كانت تعيش حيّة أم جرس، أو الحيّة جرسيّة Rattlesnakes وهي سامّة، لها جحرها المعروف في طين طيّة النخل، يشاهدها البيدار والأهل أحيانًا. وقد أخبرتني أمّي أنّها كانت تسمع جرس الحيّة إذا مشت مع أهلها قرب طيّة النخل ليلًا، ولكنّ والدها أوصى بأن لا يمسّ أحد تلك الحيّة بأذى؛ إذْ إنّها عاشت هناك في نخله سنينًا عديدة، ولم تؤذ أحدًا قطّ.

أخبرتني أمّي عن وصيّة جدّي تلك وأنا صغير؛ فأخذت انطباعًا مشابهًا لانطباع أمّي؛ بأنّ تلك الحيّة المعمّرة تعيش في النخل من عهد طويل، وهي مسالمة، لم تسبّب ضررًا لأحد. وبعد أن كبرت وتذكّرت القصّة بحثت وقرأت عن الحيّات فوجدت معلومات مهمّة؛ فالحيّة مسالمة بالفعل، لا تنهش أو تلدغ إلا فريستها، كالفأر أو الطير، ولكن قد تستعمل سمّها؛ للدفاع عن النفس، إذا شعرت بالتهديد من إنسان أو حيوان؛ لذلك، أذا رأى الإنسان حيّة قريبة منه، فليترك المكان ولا يقترب منها حتّى لا تحسبه يشكّل خطرًا عليها. ولا تعيش الحيّات أكثر من ٦٢ سنة، أمّا الحيّة الجرسية فلا تعيش أكثر من ٢٥ سنة، وكان جدّي يظنّ أنّ تلك الحيّة هناك في النخل قبل أن يولد؛ فالحيّة تناسلت، وهم كانوا يسمعون حيّات من نسلها تعيش في نفس الجحر. ويصدر الصوت من اهتزاز ذيلها؛ لتحذير أعدائها وتخويفهم من الحيوانات المفترسة فقط؛ فهي مضطّرّة إلى إصدار ذلك الصوت؛ دفاعًا عن النفس، وإلا فليس من مصلحتها أن تخبر فريستها بمكانها.

في ذيل الحيّة الجرسيّة قشور مجوّفة خاصّة، على طرف ذيل الثعبان. هذه القشور متّصلة بشكل فضفاض. عندما تهزّ الأفعى الجرسيّة بذيلها، تضرب القشور بعضها بعضا بسرعة؛ ممّا يتسبّب في صوت طنين.

العقرب:
أمّا الخطر الثاني في النخيل فهو العقارب، التي تعيش هناك. وأذكر أنّه لمّا كانت خالتي عائشة أشرفت على الوفاة، وهي في بيت زوجها خالي علي في شمل. (خالتي عائشة لا تقرب لخالي؛ فهي أخت أمّي من الأب، وخالي علي أخو أمّي من الأمّ فقط). فكنت طفلًا صغيرًا ألعب مع مريم ابنة خالي في النخل، فنزعتُ كربة مكسورة من نخلة، فرأيت شيئًا أسود تحت الكربة، لا أعرفة، ولمّا رأته مريم صرخت «عقربة» وركضَت؛ فركضتُ وراءها إلى عريش الأهل. وكانت تلك أوّل مرة أرى عقربًا.
أمّا حشرات شمل المهمّة الأخرى في النخيل، فالدبي، والسمسوم، والحاس.

الدِّبِي:

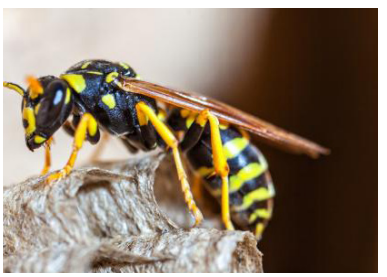

الدِّبِي: اسم محلّيّ لحشرة سامّة تشبه النحلة ولها إبرة سامّة في مؤخّرتها تلسع بها، ولكنّها أكبر وأشرس من النحلة، وتسمّى في الفصحى الدّبّور، كما تسمّى الزنور، وبالإنجليزي Wasp. تعمل عشّها الصلب من الطين على جدران المنازل، وتتغذّى على الحشرات الأخرى، مثل: النحل، والعنكبوت. لسعتها مؤلمة جدًّا، وقد لسعتني مرّة في قدمي وأنا صبيّ؛ لأنّها كانت قد دخلت في نعلي قبل أن ألبسه، ولم أرها، فلمّا أدخلت رجلي في النعل، دستها؛ فلسعتني؛ فتألمّت كثيرًا جدًّا.

السَمسوم:

السمسوم نملة سوداء أكبر من النمل العاديّ، وفي مؤخّرتها إبرة تلسع بها. اسمها يدلّ على أنّها سامّة، وهي منتشرة في الجزيرة العربيّة، وخاصّة في مناطق النخيل، مثل شمل. وفي الإنجليزيّة تحمل الاسم العربيّ Black Samsum Ant ولسعتتها مؤلمة، وقد تؤدّي إلى الوفاة لمن عنده حساسية لسمّها.

الحاس:
حشرة صغيرة جدًّا، تكثر في الصيف، تحلّ على الجلد وتقرص.

البوبشير:

فراشة جميلة نراها حول أحواض السباحة في النخل، نتفرّج عليها وهي تطير على الماء، لا ضرر منها، بل يعتقد البعض أنّها تجلب الحظّ الجيّد. وفي غير الخليج تسمّى اليعسوب.

أنا ونخلة اللولو:

رطب اللولو (اللؤلؤ) من ألذّ وأفضل وأشهر الرطب في رأس الخيمة أيّام طفولتي. وكنت مغرما به؛ لذلك خصّصت العائلة نخلتين صغيرتين من نخل اللولو: واحدة لي، والأخرى لأختي؛ فنخلتي مع أنّ عذج (عذق) رطبها نازل، إلا أنّ ارتفاعه أعلى من طولي بمتر، فكنت أتسلّق قليلًا؛ للوصول إلى الرطب. ومرّة انزلقت رجلي؛ فسقطت على الأرض، فتشمّخ بطني ونزف الدم قليلًا، ولكنّ الجرح برأ بسرعة دون علاج.
يمتاز بسر اللولو باللون الذهبيّ الجذّاب، ثمّ يتحوّل إلى اللون العسليّ في مرحلة الرطب، ويصبح لونه في مرحلة التمر بنيًّا.

المِسطاح:
المِسطاح هو مكان تجفيف التمر على الحصران (في اللغة هي الحُصُر، جمع حصير)؛ وهي منطقة مستوية على

الأرض. وكان المسطاح مجاورًا لعرشنا في شمل. وكنت أظنّ أنّ المصطلح محلّيّ في رأس الخيمه؛ ومعنى سطَح الشيء في اللغة: بسطه. ولكنّي وجدت المصطلح له أصل في اللغة وهو المَسْطَح؛ مكان يُبْسَط فيه التَّمرُ ويجفّفُ. كان البيدار (المزارع) ينثر الرطب في المسطاح تحت الشمس؛ فيجفّ خلال ٥-٦ أيّام، ثمّ يرصّه بدوسه تحت الأرجل. وكان يناديا نحن الصغار؛ لنساعده بالدوس بأرجلنا الحافية. وما كان يطلب منّا أن نغسل أرجلنا قبل ذلك. فكنّا نلعب ونقفز على التمر ونحاول الركض، حتّى نتعب فنتوقّف. وأذكر أنّنا- بعد تلك العمليّة- تصبح أرجلنا بيضاء، نظيفة جدًّا، وقد زال عنها الغبار والأتربة؛ عندها نغسل أرجلنا من التمر العالق بها قبل أن نلبس الأنعل. بعد ذلك يقوم البيدار بوضع ذلك التمر المرصوص في الجربان (جمع جراب). والجراب: كيس طويل معمول من سعف النخل؛ لتخزين التمر.

والآن دعوني أقفز من ذكريات الصيف الحار في الوطن إلى الأمام، حوالي ست عقود من الزمن، حيث كنت أصيف في منطقة جبال الألب، التي تعتبر «جنة الدنيا» في الصيف، فهل تصدقوني إذا قلت كنت أحن إلى صيف الطفولة. وبرهاني هذه القصيدة آنذاك:

صَيفي هنا في جِبالِ (الألبِ) والسفرُ ... قد هيَّجا الفِكرَ، فاستَشْرَت بيَ الفِكَرُ
أبكي اشتياقًا إلى عَصرِ الصِّبا ولهًا ... والشِّعرُ يأسو، وقلبُ المرءِ يَنفَطِرُ[1]
لمَّا بَدَت لُمَّتي كالبَدرِ مُسفِرَةً ... رَضيتُ مُنكَسِفًا أن يُكسَفَ القَمَرُ[2]
فالشيبُ أزهرَ في رأسي يُذكِّرُني ... بأنّني الكَهلُ، أو قد مسَّني الكِبَرُ
فللسوادِ برأسِ المَرءِ رونَقُهُ ... وللبياضِ وَقارٌ فيهِ يُفتخرُ

مَن ذا يشارِكُني الذكرى ويَعتَبِرُ ... ما غيَّرَ الدهْرُ أو ما غيَّرَ البَشَرُ؟
فكَمْ ركَضنا على الرمضاءِ تَحرِقُنا ... مثلَ الشياطينِ لا خوفٌ ولا حَذَرُ
أمشي على السّيفِ طِفلًا والهوا لَهَبٌ ... لا ضَربَةُ الشمسِ تَنهاني ولا الخَطَرُ
كم لامني والدي، والرملُ في قَدَمي ... بِلا نِعالٍ بها أمشي، فأعتذِرُ
حَسبي مِن القيظِ حَوضٌ أستحمُّ بهِ ... وظُلَّةُ اللوزِ فوقَ الحَوضِ تنتَشِرُ
ونَومُ قَيلولةٍ في العِرشِ هادِئةٍ ... وإن تَفرَّقَ عنّي الناسُ أو هَجَروا
بانَ العَريشُ بذِهني اليومَ مرتَفِعًا ... لكنَّ عَيني إلى رُؤياهُ تَفتَقِرُ
وحِبُّ ماءٍ نَديٍّ قد حَنَنتُ لَهُ ... معْ أنَّ أعلاهُ مَثلومٌ ومُنكَسِرُ
والليلُ يَسجو، وأقراني تُسامِرُني ... يا حُسنَهُنَّ لَيالٍ زانَها السمَرُ

فكلَّما زادَ عُمري وانجلى الكِبَرُ ... إزددتُ للأمسِ توقًا فانبَرى الصِّغَرُ
منازلٌ مِن جَريدِ النخْلِ هادئةٌ ... فيها الكَرى لِمَبيتِ الليلِ يَنتَظِرُ
والرملُ تِبْرٌ ظَهورٌ في منازِلنا ... به التيَمُّمُ سهلٌ إن بَدا الضَّرَرُ
والسدرُ ظِلٌّ ظَليلٌ وارِفٌ حَسَنٌ ... ولَونُهُ كلَّ فصلٍ أخضَرٌ نَضِرُ
والبَحرُ أكرمُ ما في الكونِ يرفِدُنا ... فَهْو الجَوادُ وفي أعماقِهِ الدُّرَرُ
لا تُنكِرِ الفَضلَ في عَصرٍ وُلِدتُ بهِ ... إلّا إذا كُنتَ بَعدي ساقَكَ القَدَرُ

---

١. ينفطر: ينشق.
٢. يُكسَفَ القَمَر: كناية عن صبغ شَعر رأس الشاعر الأشيب باللون الأسود.

قد أقلَعَت ذكْرَياتي اليومَ مُبحِرةً ... فليسَ في سردِها عَيبٌ ولا ضَرَرُ
صَبَيتُ في القَيظِ لم أصبُ لِفاتنةٍ ... إذ كيفَ يَصبو صغيرٌ جاهلٌ غَمِرُ[٣]
وأسعَدتني زَمانَ القَيظِ أربَعَةٌ ... الحوضُ واللوزُ والنخْلاتُ والثَّمَرُ
يا حُسْنَ ذاكَ الصِّبا، والصيفُ مُبتدِئٌ ... والشمْلُ مُجتمِعٌ، والنخْلُ مُبتَسِرُ
والليلُ خيَّمَ، والأطيارُ قد سَكَنَت ... ولألأَ النجمُ حتى أسفرَ القَمَرُ
ماءٌ مِن البئرِ صافٍ بارِدٌ عَسَلٌ ... تأتي به الدلوُ ما في صَفوِهِ كَدَرُ
أبكي عليهِ وقد جَفَّت منابِعُهُ ... فماءُ عيني على ذِكراهُ يَنهَمِرُ
قالوا: أتبكي على نَخْلٍ وقد دَرَسَتْ ... وماءِ حَوضٍ، وبئرٍ ما لها أثَرُ؟
فقلتُ: لا، ليسَ هذا ما يُؤرِّقُني ... بل ذكرُ عَصرِ الصِّبا يَنأى ويَندَثِرُ
أسلو بذكرِ الصِّبا والأمسِ عَن شَجَني ... أشجانيَ الشاجيانِ: الشيبُ والقَدَرُ

منترو، سويسرا ٢٠٠٩/٧/٢٥

بيع النخل:

بعد أن استقال الوالد من منصب القضاء في رأس الخيمة، وقضى سنة في الرياض معلّمًا في معهد إمام الدعوة، وأثناء وجوده في معيريض خلال إجازة الصيف سنة ١٩٥٨، قرّر التخلص من نخله؛ فاستدعى البيدار (المزارع، البستانيّ) الذي يعتني بالنخل منذ سنين عديدة؛ فعرض عليه أن يشتري النخل بحضوري. فقال المزارع: «يا شيخ، أنت تعرف أنّي فقير ولا عندي دراهم أشتري فيها النخل، فكيف أشتريها»؟! فقال الوالد: أنت أحقّ الناس بها؛ لأنّك تعبت عليها عبر السنين، ولا أريد أن تؤول إلى غيرك». ثمّ أضاف: أنا أعرف أنّك لا تملك دراهم، ولكنّي سأحسب قيمتها والأراضي التابعة لها بمقدار سبعة آلاف روبيّة، تسدّدها لي بتزويدي بيتي بالتمر كلّ عام منها، على راحتك»؛ ففرح المزارع وتحمّس لذلك. هكذا انتقلت ملكيّة النخل وأراضي ستّ زرائب قاحلة تابعة لها، إلى المزارع، وكتب له الوالد ورقة رسميّة بذلك.

ولكنّ المزارع لم يرسل لنا إلا عشر قلّات من التمر، مرّة واحدة سنة ١٩٥٩ إلى قطر. ولأن الوالد سمع أنّ إنتاج النخيل قلَّ في رأس الخيمة؛ بسبب تحوّل المياه العذبة إلى مالحة؛ فقرّر ألا يزعجه بالطلب آنذاك فسامحه. وبعد سنوات انتقل ذلك المزارع الطيّب إلى رحمة ربّه، وهلكت النخيل في رأس الخيمة؛ بسبب استعمال مضخّات الديزل، التي سحبت الماء العذب بسرعة، فحلّ محلّه الماء المالح الذي قضى على النخيل كلّها.

أنا– في الصورة أعلاه– مع صديقي محمّد بن شاهين بن غانم، نسبح في حوض نخل يضخّ الماء فيه بآلة الديزل سنة ١٩٦٠.

٣. صبيت: فعلت ما يفعل الصبيان. أصبو: أميل وأشتاق.

وفي نهاية الستّينات من القرن الماضي، ذهبت لرؤية ما تبقى من نخلنا؛ فأحزنني منظر أرض النخيل الجافّة، وقد هلك أغلب النخيل، ولم تبق إلا نخيلات ضعيفة دون ريّ أو عناية، كما في الصورة التي التقطتها ذلك اليوم (أدناه).

ما بقي من نخلنا المهجورة سنة ١٩٦٣

وفي الثمانينات من القرن الماضي– وأنا أكتب قصيدة (لاميّة الخليج)– رأيت صورة نخلنا الكئيبة تلك، فسرحت في تذكّر أيّام الصبا وأنا ألعب في تلك الساحة الخضراء الجميلة؛ فقمت أسجّل خواطري، كالآتي:

أقولُ لنخلاتٍ رأيتُ بصورةٍ ... لعِبتُ حواليْها صغيرًا على مَهْلِ
أيا نخلُ، هل ما زلتِ فرْعاءَ كاربًا؟ ... وعِذْقُكِ نَهدٌ كاعِبُ البِسرِ في الفصلِ؟[١]
وجيدُكِ ملفوفٌ بليفٍ كمِلْفَعٍ ... حواليهِ أقراطٌ من البِسرِ الهَدْلِ؟[٢]
تدَلّتْ شماريخٌ كأقراطِ نِسْوةٍ ... لها صُفرةٌ كالتِّبْرِ أو حُمرةٌ تُسلي؟[٣]
ورأسُكِ رابٍ في السماءِ جريدُه ... إذا السُّحبُ مالتْ للعِناقِ وللوصْلِ؟
أمِ الدهرُ أودى بالنخيلِ وبئرِها ... فحالتْ بكِ الأيّامُ بعديْ إلى الذَّبلِ؟
أمِ الناسُ يا نخلي، عليكِ تغيّرت ... وما فرّقت بين الكرائمِ والحَضْلِ؟[٤]
فهَل يا تُرى قامتْ مكانَكِ صَرْمةٌ ... فتنمو بعصرٍ غيرِ عصرِكِ يا نخلي؟[٥]
فقد كان حبلٌ بينَ إنْسٍ ونَخلةٍ ... وقربى مدى الأزمانِ أعرقُ من نسلِ
فإنْ أنجبتْ نخلٌ رأيتَ ابْنَ آدمٍ ... يُربّي صغارَ النخلِ بالحُبِّ والبَذْلِ
ويَسْتُرُها بالثوبِ عن عينِ حاسدٍ ... ويخطُبُها بَعْدَ البلوغِ إلى الفَحْلِ
ويُلْقِحُ من طَلْعِ الفحولِ نباتَها ... فإن حملتْ، يحنو على النخلِ والحملِ[٦]
فلا العيشُ نفسُ العيشِ يا أختَ نخلةٍ ... ولا الناسُ نفسُ الناسِ يا عمّةَ الأهلِ[٧]

---

١. العِذْق: قنو النخلة، مثل العنقود للعنب. البِسْرُ: –بكسر الباء (خليج) وبضمّ الباء في الفصحى–: ثمر النخل الأصفر أو الأحمر قبل أن يُرطِب؛ أي أنّ البسر مرحلة من مراحل نضج ثمرة النخل، بعد مرحلة الخِلال (الأخضر) وقبل مرحلة الرطب.
٢. الجيد: العنق. الليف: جمع ليفة، قشور النخل، وهي الخيوط الليفيّة الملتفّة حول جذع النخلة، التي تصنع منها الحبال. المِلْفع: قماش تغطّي المرأة به رأسها وعنقها، وجمعه ملافِع (خليج)
٣. شماريخ: جمع شمروخ، عذق عليه بسر.
٤. الحضْل: النخيل الفاسدة، وأصلها حضَلتِ النخلة حضَلا: فسدت أصول سعفها. سكّنت للضرورة (لسان العرب).
٥. الصَرْمة: الفسيلة، النخلة الصغيرة التي قطعت من أمّها (خليج). وأصلها اللغويّ مشتقّ من صَرَمَ: قطعَ والصَّرام والصِّرام: جَداد النخل (لسان العرب).
٦. الطّلع: أزهار النخيل عليها حبوب اللقاح. وفي الخليج يسمّى: طلع النخلة نباتًا أيضًا.
٧. عمّة الأهل: إشارة إلى الحديث الشريف: «أكرموا عمّتكم النخلة؛ فإنّها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم. (كتاب زاد المعاد للإمام ابن القيّم).

الضيوف:

كان مجلس الوالد في الصيف ظلّ غافة معمّرة وظليلة قريبة من نخلنا، ولكن تبعد حوالي ٢٥ مترًا عن عرش الأهل فلا تكشف عليها، اسمها غافة آمنة. وقد ذكرتها في اللاميّة، قائلًا:

وغافٍ بطَرفِ السّيْحِ يجزُلُ ظِلُّهُ　　فنَفرشُ للأضيافِ في ظلّهِ الجَزْلِ[١]
ونَسقيهمُ بالبَقّ ماءً معطّرًا　　ونَقريهمُ باليِقْطِ والرُّطَبِ الخَضْلِ[٢]
وصِفْريَّةُ الحلواءِ تقْبَعُ دائِمًا　　بصِينِيَّةِ الخُطَّارِ في الصُّبحِ والليْلِ[٣]
فإن فَرَغَ الخُطَّارُ من هَبْشِ ما بها　　وحان ارتشافُ القهوِ جِئْنا بها تَغلي[٤]
وقد غُليتْ في دلَّةِ الخَمْرِ ساعةً　　على جَمْرِ سَمْر، والمِشَبَّةُ من نخْلِ[٥]
فقَهْوتُنا ليستْ من الخَمْرِ أصلُها　　ولا خمرُها خمرٌ على القلبِ والعقْلِ
فخمْرتُها اقْنَادٌ إذا فاحَ واستوى　　فخمرٌ إذا غفَّى، وحَثْلٌ لدى الشَّخْلِ[٦]
وما زادها الإقْنَادُ إلا أصالةً　　أَرومَتُها تُغْري إلى النَّهْلِ والعَلِّ[٧]
وقد كُحِّلتْ بالزَّعْفرانِ تزيُّنًا　　ويَعبَقُ عِطرُ الهَيْلِ من قُلَلِ الدلّ[٨]
يُميّزُها المِسْمَارُ دومًا بنكهةٍ　　فيَنْسِبُها لعُمَانَ في دلَّةِ الأهْلِ[٩]
تَدورُ على الأضيافِ تَخلُبُ لبَّهم　　عُمانيةٌ، لا بلْ، يمانيَّةُ الأصْلِ
وما سَكِروا منها وإن لاحَ بعْضُهم　　إذا هزْهزَ الفِنْجَانَ كالشَّاربِ الثَّمْلِ
وإن آنَ للضيفِ الغَداءُ ببيتِنا　　نَكَبْنا على السَّرُّودِ بالتَّيسِ والسَّخْلِ[١٠]

---

١. الغاف: جمع غَافَة: شجرة عظيمة كثيفة الورق تُعَمَّر مئات السنين وتكثر في الإمارات العربيّة المتّحدة وعُمان. وقد ذكر الفرزدق غاف عمان؛ إذ قال (لسان العرب): إليك نأَشتُ يابن أبي عقيلٍ ودوني الغافُ غافُ قرى عُمانِ
السَّيْحُ: البراري الواسعة غير المزروعة، تكثر فيها أشجار السَّمُرِ التي تنمو على مياه الأمطار والسيول والوديان (خليج). وفي اللغة: السَّيْحُ: الماء الجاري على وجه الأرض، وساح: جرى على وجه الأرض (لسان العرب). يجزل: يكثر.
٢. البَقُّ ويعرف أيضًا بالشَّرْبة: إناء صغير من الفخّار صغير البطن، ضيّق الفم، يبرّد فيه الماء، (خليج). وفي اللغة: بقّ النبت: طلع، وبقّ الماءَ من فيه: قذفه بشدّة (المنجد). وبَقَّتِ السماءُ: جادت بمطر شديد (جمهرة اللغة). اليِقْط: طعام مصنوع من اللبن (خليج) والأصل اللغويّ: إقط (لسان العرب). الخَضْل: اللؤلؤ (لسان العرب) ودرّة خَضْلَة: أي صافية ونقيّة (العين)، والخَضِل: الرطب الجيّد النضج (تاج العروس).
٣. الصِفريّة: قِدرٌ أو طاسة لها غطاء، مصنوعة من الصِّفْرِ (النحاس الأحمر)، وهو الأصل في التسمية، ولكن في الآونة الأخيرة أطلق الناس في الخليج نفس التسمية على أيّ إناء معدنيّ مشابه، ولو لم يصنع من الصفر (خليج). الصينيّة: طبق معدنيّ كبير مدوّر الشكل، يقدّم فيه الطعام (خليج). والصينيّة في اللغة: طبق من قشّ أو معدن (المنجد). الخطّار: الضيوف (خليج).
٤. هَبشَ: تناول طعام الفوّالة؛ وهو الطعام في غير أوقاته، ولا تستعمل كلمة الهبش لأكل الوجبات الرئيسة كالغداء (خليج). وفي اللغة: الهبش: الحلب بالكفّ والجَمْع والكَسْب (لسان العرب) والهبّاش: الكثير الكسب. العيش: ما يتناول من طعام (المنجد). القهو: ترخيم القهوة بمعناها الحديث؛ لأنّ القهوة قديمًا معناها الخمر، وسمّيت قهوة؛ لأنّها تُقهي الإنسان؛ أي: تشبعه وتذهب بشهوة الطعام (العين). أمّا القهوة التي نشربها الآن، المستحضرة من حبوب البنّ، فلم تكتشف إلا في القرن التاسع الميلاديّ في اليمن، ولم ينتشر شربها إلا في القرن السادس عشر (ENC. BRIT). وفي ترخيم القهوة حذفت التاء، والترخيم لغير المنادى جائز.
٥. دلّة الخمر: الدلّة الكبيرة التي يتمّ فيه طبخ القهوة، ومنها تصبّ في دلاّت أصغر؛ لتقديمها للضيوف (خليج)، المشبّة: مهفّة، تصنع غالبًا من خوص النخل، وتستعمل لشبّ النار (خليج).
٦. إقناد: بهارات عطرة تضاف إلى القهوة، مثل: الهال، والزعفران، والقرنفل (خليج). والأصل اللغويّ: القَنْد: طيب يعمل بالزعفران والخمر المطيّب (المنجد). وخمرة القهوة: خليط من القهوة، والإقناد يدور في ماء القهوة أو يطفو أثناء الغليان. استوى: جهز (خليج). الشخل: التصفية. حثْل أو حثالة القهوة: رواسبها.
٧. أرومة: أصل الشيء.
٨. القُلل: الرؤوس. الدلُّ: يقصد بها الدِلال والدَلاّت: مفردها دَلَّة: إناء رشيق، لتقديم القهوة (خليج).
٩. المسمار: القرنفل (خليج). ولقد أطلق أهل الخليج اسم المسمار على القرنفل؛ لأنّ حبّة القرنفل تشبه المسمار في الشكل، والمسمار: واحد مسامير الحديد (لسان العرب).
١٠. نَكَبَ: غَرفَ الطعام من القِدْرِ ووضعه في الصينيّة أو الأطباق (خليج). وفي اللغة: نَكبَ: طرح، ونكب الإناء: أراق ما فيه (لسان العرب). السَّرُّود: السفرة المستديرة المصنوعة من خوص النخل وما شابهه، تُصفّ وُترتّب عليها أطباق الطعام على الأرض في الإمارات وعمان، أمّا في قطر والكويت فالسرود: طبق من خوص يوضع فيه التمر (خليج).

ولـو لـم يَكـنْ فـي الـدارِ إلا غُنَيْمـةٌ ... نَحَرْنـا وأكرَمـنا الضيـوفَ بِـلا بُخْـلِ
فلـم يمنـعِ الفقرُ الرّجـالَ عـن القِرى ... إذا الضيفُ تحتَ الغَافِ ألفى إلى الظِلّ
فـإنَّ قِرى الأضـيافِ لا شـكَّ طَبْعُنـا ... تُورّثـهُ الأجدادُ أصـلًا إلـى النَّسْـلِ[11]
فعاداتُنـا هـذي نَمَتْ فـي خليجِنـا ... نَشَـأنا عليـها بالمَكـارمِ والفضْـلِ
وشِبْنَا ومـا شَـابتْ مكارِمُ قوْمِنـا ... تُجَدّدُها الأجْيـالُ بالقـولِ والفِـعْلِ
سجايا ورِثْنَاهـا جَرَتْ فـي عُروقِنـا ... بِها ينْبُضُ الشِّرْيانُ فـي هَامَةِ الطِّفْلِ

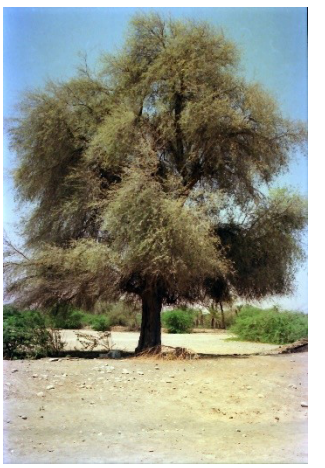
غافة آمنة

المهفّة للجسم

مشبّة للنار

قصّة بيع نخلنا:

لقد باع ورثة المزارع الذي بعنا عليه أرض نخلنا والأراضي التابعة لها لمستثمرين كويتيّين بملايين الدراهم. وفي سنة ٢٠١٨ أبلغني صديقي الشيخ أحمد بن حميد القاسميّ أنّ واحدا من أبناء مزارعنا السابق عنده أرضٌ في شمل للبيع، وفي السند مكتوب أنّ صاحب الأرض السابق الشيخ أحمد بن حجر. فقلت للشيخ أحمد: أودّ أن أراها، فأخبر البائع أن ينتظر زيارتي إلى رأس الخيمة قريبًا. ولمّا قابلته ورأيت الأرض، عرفت أنّها ليست أرض نخلنا، ولكنّها من الأراضي المجاورة التابعة لها، فقرّرت أن أشتريها؛ لأسباب عاطفيّة، لارتباطي التاريخيّ بنخلنا السابقة.

قال لي البائع إنّه لمعرفته بي، سيبيعها لي بمبلغ مليون ومئتي ألف درهم، ولو لغيري، لطلب ثمنًا أكبر. فقلت له: لا تعمل فضلًا عليّ؛ فوالدك اشترى الأراضي من والدي بسعر زهيد بحضوري، وكان الاتّفاق أن يسدّد ثمنها بالتمر فقط، ولكنّ والدك أرسل لنا عشر قلّات مرّة واحدة، ولم يسدّد الباقي. فإذا تريد تجعلها منّة، فسأقيم عليك دعوة؛ لاسترجاع الأراضي كلّها؛ لعدم تسديد والدك ثمنها المتّفق عليه. قال: آسف واسمح لي. قلت لا بأس سأشتريها بالمبلغ الذي ذكرت.

نهاية النخيل في رأس الخيمة:

كانت المنطقة الشرقيّة من رأس الخيمة التي تبعد عن ساحل البحر بين ٤–١٠ كيلومترا، من قرية خت حيث العين المشهورة جنوبًا، إلى طرف شمل الشمالي حيث كانت نخلنا، معروفة بمنطقة النخيل. وقد اشتهرت رأس الخيمة بها؛ إذ كانت تلك المنطقة مصيفًا لأهل رأس الخيمة وبعض الميسورين من الإمارات الأخرى– مثل: أمّ القيوين، وعجمان، والشارقة، ودبي–الذين كانوا يأتون إلى رأس الخيمة؛ لقضاء أشهر القيظ. فكان خوالي القاطنون في عجمان يصيفون

١١. قرى الضيف: إكرامه.

معنا في شمل. وأذكر أنّي رأيت– قديمًا– منازل صيفيّة لبعض شيوخ دبي في منطقة النخيل.

خلال النصف الأخير من القرن الماضي زادت نسبة استعمال مضخّات الديزل للريّ في رأس الخيمة، بدلًا من الطريقة التقليديّة للريّ باستعمال الثور؛ فزادت ملوحة الماء، وانخفض مستوى المياه الجوفيّة وتراجع المخزون؛ بسبب ندرة سقوط الأمطار عن القرون السابقة؛ فماتت النخيل بسرعة. كذلك قلّل وصول الكهرباء إلى رأس الخيمة من الحاجة للانتقال إلى النخيل صيفًا.

وللطوفان الذي أصاب رأس الخيمة سنة ١٩٥٧م أثر في تهجير الناس من معيريض ورأس الخيمة إلى منطقة النخيل؛ فاستعملت أرض النخيل وما حولها للسكن والفنادق والمستشفيات والمتاجر والعيش بصورة دائمة. وبذلك انقرضت المنطقة التي كنّا نسمّيها– قديمًا– «النخيل».

الداء والدواء في معيريض

كنت– منذ طفولتي– مهتمًّا بأمور الأمراض والعلاج لعدّة أسباب؛ منها أنّ جارنا في البيت القديم كان عبد الله الحسّان، الذي كنت أحبّه، ويأتي لي بالنبق (فاكهة السدر) واللوز وأنا صغير. وكانت زوجته مريم المحرقيّة صديقة جدّتي وأمّي. وكان الحسّان (الحلّاق) بمنزلة الطبيب الشعبيّ، وسمّي الحسّان؛ لأنّه يحسّن الرأس؛ أي يحلقه. وبعض الخليجيّين يسمّون الحلّاق المزيّن بدلًا من الحسّان، والمعنى واحد. كما كان يمارس الختانة والحجامة والكي في حيّنا.
وهو الذي ختنني مع مجموعة من أقراني الصغار ب(موس) واحد دون تعقيم، واستعمل العايدين على الجرح.
فكثيرًا ما كنت أتفرّج على الحجامة التي يقوم بها الحسّان في السكّة قرب باب منزله. وعرفت كلّ الخطوات المتّبعة للحجامة؛ بسبب تكرّر الحالات التي أشاهدها أمام بيته. وتعوّدت على مشاهدة الدم المستخرج في قرون الثيران المستعملة، ورأيته يُري المريض الدم الداكن في القرن، ويقول له: «انظر، إنّه الدم الفاسد الذي أخرجته من جسمك»؛ فيفرح المريض ويتفاءل بالشفاء. والحسّان لا يكذب بل يعتقد بأنّه فعل ذلك. وكنت أرى حجّامين آخرين في معيريض يعالجون المرضى في أحياء أخرى من معيريض بنفس الطريقة. وكان الموقعان المفضّلان للحجامة على الجسم مؤخّرة الرأس والظهر. ولكن، هناك سبب آخر قويّ جعلني أعشق الطبّ من صباي، سأتطرّق إليه فيما بعد.
وقد أخذت نصيبي من حُمّيات وأمراض الطفولة المعدية، كبقيّة الأطفال في معيريض، مثل: الأنفلونزا، والحصبة، والسعال الديكيّ، وجدريّ الماء، والتراخوما؛ وذلك لعدم وجود تطعيمات ضدّ أمراض الطفولة، بل ليس هناك طبّ في رأس الخيمة آنذاك، إلا الطبّ الشعبيّ، الذي لا يجدي نفعًا مع تلك الأمراض الجرثوميّة؛ فكلّ الأطفال بعد الولادة يصابون بالتراخوما المسبّب للرمد، ولكن، تتفاوت شدّة الإصابة من خفيف إلى شديد؛ وهو يصيب الكبار أيضًا، وقد يسبّب إعوجاجًا مزمنًا وتشوّهًا في الجفون. أمّا الآن فيوضع مرهم مضادّ حيوي في عين الطفل بعد الولادة مباشرة، يحميه من تلك الإصابة.

وسائل العلاج التي شهدتها في معيريض أثناء الطفولة والصِّبا:

١. العلاج الدينيّ:

كان العلاج الدينيّ هو الأكثر شيوعًا وقبولًا في المجتمع، والمعالج هنا المطوّع؛ وهو إمام مسجد يمارس ذلك العلاج، وهو الذي يقرّر طريقة العلاج؛ فالشخص المصاب بالحمّى فقط، قد يكتفي بقراءة القرآن عليه، وإن طالت مدّة مرضه فقد يعالجه بالـ(محو)؛ والمحو هو كتابة آيات من القرآن الكريم، بماء مذاب فيه الزعفران، في صحن صينيّ أبيض، ثمّ يتمّ «محو» الكتابة بماء الورد – من هنا أتت التسمية– ثمّ يصبّ ماء الورد وما فيه من الزعفران في كأس يشربه المريض.
وهناك فئة من المشعوذين يمارسون بعض الأعمال السحريّة، مثل (الزار– السحر) إلى جانب عمل وصفات سحريّة، لحالات الصرع والجنون. وقد يلجأ

المحو

إليهم من لم يستفد من العلاجات الشعبيّة العاديّة.
وفي بعض أحياء معيريض تشكّ عائلة المريض إذا كان المريض طفلًا بأنّه أصيب بالعين؛ فترسل العائلة صبيًّا يحمل كأسًا به ماء ويقف عند باب المسجد؛ ليقرأ من يتبرّع من المصلّين قرآنًا، وهم خارجون من المسجد، وينفخ القارئ أو يبصق في الماء. ويُسقى المريض ذلك الماء الملوّث؛ على أمل أن يبطل ذلك العلاج العين أو الحسد.
وكان هناك مطاوعة مشعوذون، اشتهروا بإخراج الجنّ وإبطال السحر؛ فالمطوّع يقرأ على المريض ويعمل له تميمة، يدّعي أنّها تطرد السحر؛ ليبرأ المريض.
أمّا تشخيص المريض بأنّ جنيًّا قد سكنه، وسبب مرضه، فكان شائعًا، والغريب أنّي لم أكن أصدّق ذلك وأنا صبيّ. ولقد آلمني مرّة تشخيص المطوّع أحمد عيسى لمريض (اسمه خليل)، من الصبيان الذين يلعبون معي في الحيّ؛ إذ كان يعاني من حمّى شديدة جعلته يهذي؛ فأصرّ المطوع الأصمخ (الأصمّ) على أنّ جنيًّا كان يسكن الصبيّ؛ فكان يهدّد الجنّيّ ويردّد: «حبسٌ حابس، خضرٌ يابس»، ولا أدري ما يقصد، ويضرب الصبيّ بالعصا ضربًا شديدًا. ولمّا سألت الناس الواقفين يتفرّجون على الضرب: لماذا يضرب المطوّع خليلًا؟ قالوا: خليل لا يحسّ بالضرب، ولكنّ الضرب يؤلم الجنّيّ فقط. فلم أفهم ذلك، ولم أصدّقه. ولقد توفّي ذلك الصبيّ بعد سنتين من تلك الحادثة.
ولم أنس ذلك المشهد عبر السنين قطّ، وأتعجّب الآن كيف يصدّق المجتمع تلك الخرافات، ويقبل أهل الصبيّ أن يُضرب ابنهم ضربًا مبرّحًا، حتّى يحمرّ جلده وهم ساكتون، ثمّ يشكرون المطوّع! وهذا كلّه بسبب الجهل الشديد والأمية. لقد كانت نسبة الأمّيّة آنذاك، في ذلك المجتمع، تزيد عن ٩٥٪. وكانت معلّمتي التي تعلّمني القرآن أمّيّة، لا تعرف القراءة والكتابة، ولكن تقرأ القرآن. وكنّا – نحن الأطفال – نقضي سنتين؛ لنتعلّم القرآن، دون أن نعرف القراءة والكتابة؛ فكنّا نردّد قراءة السورة الصغيرة عدّة مرات حتّى نحفظها غيبًا. أمّا السورة الكبيرة فكانت المعلّمة تجزّئها لنا؛ لنحفظها. وبمرور الزمن في تكرار القراءة، صرنا نربط صورة الحرف مع اللفظ؛ فصارت الحروف تساعدنا على الحفظ. ولمّا ختمت القرآن قبل أن أتعلّم الكتابة تمامًا، كنت أستطيع أن أفتح أيّة صفحة من المصحف وأقرأ دون صعوبة، ولكن لا أعرف قراءة الرسائل.
السؤال: لماذا لم يعلّمونا الحروف الأبجديّة؛ قراءة وكتابة، قبل تعليمنا قراءة القرآن؟ والجواب – كما أظنّ –أنّه لم يكن هناك، في ذلك المجتمع الأمّيّ، عدد كاف من الذين يعرفون الكتابة ليعلّموا الأطفال ذلك الفن، ولذلك صارت النساء الأمّيّات وصار الرجال الأميّون يعلّمون قراءة القرآن. وحتّى المعلّمون الذين يعرفون القراءة والكتابة، يمشون على ذلك المنهج؛ فبعد ختم القرآن يبدؤون بتعليم الأطفال، الذين يرغب ذووهم في تعليمهم القراءة والكتابة والحساب. ولكنّ أغلب الآباء – بسبب الفقر – يريدون أبناءهم أن يعملوا معهم؛ لكسب الرزق، فلا يهتمّون بتعليمهم. وبدأ التعليم النظاميّ في رأس الخيمة بمساعدة الكويت سنة ١٩٥٣، وكنت من الرعيل الأوّل الذي استفاد من التعليم النظاميّ في رأس الخيمة حين بدأ.
أمّا البنات، فمن النادر تعليمهنّ حتّى القرآن، إلا القليل. أمّا القراءة والكتابة فلا يقبل تعليمهما آباء الأجيال السابقة لبناتهم؛ «حفاظًا على الشرف». وكانت الفكرة التي سمعتها من بعض الآباء، أنّ البنت إذا عرفت القراءة والكتابة، فقد يسهل عليها الوقوع في الحبّ، ومراسلة الرجال سرًّا؛ لذلك حرّم الرجال في كلّ الخليج والجزيرة العربيّة على بناتهم التعليم. ولكن، نجحت الحكومات في الضغط على المجتمعات بقبول تعليم البنات تعليمًا موازيا لتعليم الأولاد في الخليج والجزيرة، خلال منتصف القرن الماضي. وكانت البحرين سبّاقة في التعليم وفتح أوّل مدرسة للبنات سنة ١٩٢٨، ثمّ الكويت ١٩٣٧ و قطر ١٩٥٤ ورأس الخيمة ١٩٥٨–١٩٥٩ والمملكة العربيّة السعوديّة ١٩٦٠.
حتّى دولة العراق التي كانت متقدّمة في أمور التعليم والثقافة، كانت تعاني من عدم قبول المتديّنين ورجال الدين لتعليم البنات، في أوائل القرن العشرين؛ فأوّل مدرسة رسميّة للبنات في بغداد ١٩٢٠. لقد وجدت قصيدة للشاعر العراقيّ محمّد مهدي الجواهريّ نشرها سنة ١٩٢٩ يهاجم فيها المعارضين لفتح مدرسة ابتدائيّة للبنات في مدينته النجف، وكان مطلعها:

علِّموها فقد كفاكم شَنارا ... وكفاها أن تحسب العلمَ عارا[١]

وقال:

إنَّ خيرًا من أن تعيشَ فتاةٌ ... قبضةَ الجهلِ أن تموتَ انتحارا
ازدراءً بالدينِ أن يُحسَبَ الدّين ... بجهلٍ وخزيةٍ أمّارا

١. شنار: قبح.

٢. الأعشاب:

التداوي بالأعشاب والنباتات البرّيّة، شائع جدًّا في تلك الأيّام. وهناك المئات من الأعشاب التي كانت تستعمل دواءً، لا معرفة لي بها. كان بائع الأدوية (العطّار) يعالج ويصف الأدوية للمرضى؛ فإذا كان المريض متكلّفًا استعان الناس بالمعالج الشعبيّ، الذي يصف الأعشاب المناسبة لكلّ مرض. أمّا إذا كان المريض غير متكلّف، فسيكون في أهله وجيرانه من ينصح بهذا العشب أو ذاك؛ لأنّ تلك الأمراض تكرّرت، وتكرّر علاجها أمامهم؛ لذلك أذكر مثلا شعبيًا في الخليج وهو (اربط صبعك وكلٌّ ينعت لك دواء)، فالناس إذا رأوا شخصًا لافًّا اصبعه بقماش، سارعوا في وصف آلاف الوصفات الدوائيّة، دون معرفة المشكلة.

كان الناس يحتفظون– آنذاك– بأهمّ الأعشاب في بيوتهم؛ احتياطًا للأمراض، ومن لم يجد في بيته سأل جيرانه، فيزوّدونه بها؛ فمن ذكرياتي الشخصيّة أنّ عمّتي وأمّي كانتا تستعملان الحنّا؛ لعلاج آلام الرأس. وكانت أمّي تسقيني الزعتر للكحّة والزكام، واليعدة (الجعدة) أو الفوطن للمغص وآلام البطن. ويحلّ الزنجبيل محلّ الزعتر للكحّة والزكام. وحتّى بعد أن كبرت وصرت طبيبًا، تصرّ أمّي على أن تسقيني الزعتر إذا زكمت، وقد أشرت إلى ذلك في لاميّة الخليج، قائلًا:

وكم فوّحَتْ لي الزنجبيلَ كبلسمٍ ... إذا كنت زكمانًا وبانَ لها سَعْلي
وزعترُها المشهورُ قد فاحَ عِطرُهُ ... صباحًا وقبلَ النومِ تأتي به يَغلي
تُصِرُّ على أن أشربَ الكوبَ مُرغمًا ... ففيه شِفاءٌ للطَبيبِ وللأهلِ
وما ردَّها كَوني طبيبًا مجرّبًا ... وكهلًا أداوي الناسَ والطبُّ ذا شُغلي
إذا نظرت أمّي إلى الكهلِ إبنِها ... رأت إبنَها طفلًا فما عادَ كالكهلِ
فقد نظرت أمّي إليَّ بقلبِها ... وللأمِّ قلبٌ يَسبِقُ العينَ للطفلِ

أمّا الحلول (العشرج) فكنّا نُكره على شربه؛ للوقاية من الأمراض البطنيّة. وكنت وأختي نَكره الحلول بشدّة؛ فالعشرج له طعم سيّء، ويسبّب الإسهال الشديد. ولكن ذلك الجيل يعتقد أنّ الحلول هو لغسيل المعدة والأمعاء، مثل الاستحمام لغسل الجسم. ولا يستعمل الحلتل هكذا من قبل سكان الجبال والقرى الفقيرة (حسب علمي)، بل لإمساك البطن (القبض) فقط. وقد قرأت– فيما بعد– أن استعمال المسهلات المعويّة– مثل زيت الخروع– كانت شائعة في الحضارات القديمة، مثل: الفرعونيّة، والإغريقيّة، والرومانيّة، لنفس الأسباب. ولقد استعملت تلك الحضارات المسهلات المعوية «لتطهير» الجسم من السموم وللمحافظة على التوازن في الجسم حسب نظريات «الأخلاط» القديمة البالية.

أذكر أنّ والدي مرض في معيريض وأنا صبيّ، فكان كلّ زائر يزوره ينعت له عشبًا، وكان هو يجرّب ما يصفون له، لمدّة عدّة أشهر، ومن ذلك عشبة العاقول (شوك الجمال) المرّ الذي لا تأكله إلا الجمال، فيطبخ في الماء له ويسقى المحلول. وكانت حالته تزداد سوءًا، وجسمه نحولًا بمرور الزمن حتّى تكسّح (وأصيب بالشلل) بعد عدّة أشهر من المرض، فعجز عن المشي، وشارف على الوفاة. ولكن قدر الله له، أن يأتي لزيارته صديقه الشيخ حميد بن محمّد القاسميّ؛ فقرّر حمله في سيّارة جيب إلى دبي، حيث رأه الطبيب (ماكولي)، فشخّص المرض بالتهاب وحصوات في المرارة، وسوء تغذية؛ بسبب المرض؛ فعالجه بالمضادّات الحيويّة والفيتامينات حتّى تحسن، واقترح عليه السفر إلى الكويت؛ لعمليّة جراحية في المرارة؛ لأنّها لا تجرى تلك الأيّام في الخليج إلا فيها، ففعل، وأنجاه الله.

أمّا علاج الرمد (التهاب واحمرار العين) في معيريض فكان صبغ القرمز أشهر الأدوية لذلك. وقد يضع البعض موادّ حارقة، مثل الشبّ. وأعرف امرأة من أهل والدتي (عائشة بنت كحيص)، وضعت دواء حارقًا في عينيها لعلاج الرمد، فأصيبت بالعمى.

٣. الحجامة:

والحجامة هي استخراج الدم «الفاسد» من الجسم، كما يدّعون، وهي مهنة الحلّاقين، كما ذكرت أعلاه. يقوم الحلّاق بتشطير الجلد في موقعين أو أكثر خلف الرأس أو على الظهر ب(الموس)، ثمّ يضع قرنًا أو كأسا خاصًّا على مكان الجرح، ويسحب الدم؛ بمصّ نهاية القرن أو أنبوبة الكأس؛ فيتجمّع الدم في ذلك الوعاء. وكان استعمال قرون الثيران شائعًا، ثمّ صُنعت كؤوسٌ معدنيّة بدلًا من القرون، وحديثًا صنعت كؤوس زجاجيّة متطوّرة لذلك الغرض.

هذه أدوات الحجامة القديمة:

الموس

القرن

كأس معدني

كأس زجاجي

٤. الكي:

أمّا الكيّ فكنت أشاهد جارنا يكوي الرجال، والنساء الممارسات للكيّ، يأتين إلى بيتنا بأدواتهن؛ لكيّ الجدّة أو الوالدة، أو إحدى الجارات؛ فتضع المعالجة منقل النار، وتشعل النار في الفحم، ثمّ تضع مسمار الكيّ في النار حتّى يحمرّ مثل الجمر، قبل أن تضعه على جلد المريض لمدّة ثانية فقط. ولكلّ مرض موقع معيّن في الجسم للكي. وأدوات الكيّ: موقد النار، والميسم؛ وهو مسمار يوضع في النار حتّى يحمرّ طرفه، فيلسع به الجلد.

موقد النار والميسم

الكيّ على الظهر

الكيّ على البطن

وأنا من القلائل النادرين في المجتمع، الذين لم يمسّهم الكيّ قطّ، على حين أخذ أغلب أقراني نصيبهم؛ فقد أصبت بحمّى مرّة وأنا في السابعة من العمر؛ فطلبت أمّي عجوزًا مشهورة بالكيّ أن تأتي لتكويني عن الحمّى؛ فقرّرت العجوز (كويي) على الرأس. فلمّا أشعلت النار، ورأيت المسمار محمرًّا كالجمر، صحت كثيرًا وتمكّنت من الهرب إلى مجلس الوالد أبكي؛ فرقّ لحالي، ودخل المنزل وأمر بعدم مسّي بالكيّ أبدًا. وسمعت من الوالد أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يكن من المحبّين للكيّ وحرق المسلمين بالنار، من الأمثال العربية في نهج البلاغة قوله صلى الله عليه وسلم: (آخر الدواء الكي).

٥. ترفيع اللوزتين:

لاحظت أنّ الطب الشعبيّ عدا الكيّ والحجامة قد يختلف من منطقة إلى أخرى في نفس البلاد؛ فالأعشاب الطبّيّة وطرق العلاج عند البدو قد يختلف عن الحضر، وفي الرمس غير معيريض أو مدينة رأس الخيمة، وفي دول الخليج قد تتنوّع الطرق والوصفات. وعلاج اللوزتين يختلف كذلك من منطقة إلى أخرى.

والتهاب اللوزتين مرض متكرّر عند الأطفال؛ يسبّب حمّى وآلاما في الحلق وصعوبة في البلع، بعضه فايروسيّ وبعضه بكتيريّ. وعلاج اللوزتين للأطفال في معيريض متروك للنساء من المعالجات فقط. وكانت أمّ محمد المُرفَّعة المشهورة لهذا الطبّ في حيّنا، وهي عجوز أمّيّة، ترفعني كلّما أصبت.

كانت أمّ محمّد جارة لمطوّعتي، لها احترام وتقدير في الحيّ، تستحقّ أن أذكر علاقتي «العلاجيّة» معها؛ فهي تُعرف

بأنّها امرأة عجوز طيّبة ومحبّة للناس و «حكيمة» وتمارس الطبّ الشعبيّ، وكانت– كذلك– قابلة تقليديّة تولّد النساء وتقوم بالكيّ، والعلاج بالأعشاب، ومعالجة محلّيّة بدائيّة لالتهاب اللوزتين بالترفيع.

الترفيع:

كانت أمّ محمد، أشهر المعالجات في حيّنا؛ إذ كانت تعالج التهاب اللوزتين المتكرّر عندي وعند غيري بطريقة «الترفيع» كما ذكرت؛ فكانت طريقتها هي الأكثر إيلامًا، لكنّها ربمّا كانت الأكثر فعالية. تغطّي إصبعها الأوّل بمسحوق قشر الرمان الجافّ، وتطلب من الأسرة مسك الطفل ومنعه عن الحركة، في حين تقوم بإدخال قطعة خشبيّة بحجم الإبهام، بين أسنان الطفل لمنعه من عضّ إصبعها، ثمّ تدخل إصبعها المغطّى بمسحوق قشر الرمّان في فم الطفل، وتضغط به على اللوزتين المتضخّمتين النازلتين بقوّة مؤلمة؛ فترفع اللوزتين بإصبعها من أسفل الى أعلى، حتّى يخرج الدم والقيح فوق إصبعها. لقد كان علاجها شكلًا من أشكال تصريف الخراج؛ فإذا لم يحدث أيّ تصريف، قالت إنّ التهاب اللوزتين خفيفٌ سيبرأ دون علاج. (ومعنى ذلك –بلغتنا نحن الأطبّاء– أنّ الإصابة فايروسيّة لا بكتيريّة).

وقد تتحسّن اللوزتان الملتهبتان بعد العلاج بالضغط الشديد بالإصبع للتصريف؛ إذ لم يكن لدينا مضادّات حيويّة في ذلك الوقت؛ لذلك كان تصريفها مفيدًا في حالات العدوى البكتيريّة الشديدة. أمّا إذا كان التهاب اللوزتين بسبب عدوى فيروسيّة– كما هو في الغالب– فلن يسبّب إصبعها ضررًا. سيختفي الفيروس بفضل المناعة الجسميّة، وسيُنسب الفضل إلى أمّ محمّد على أيّ حال. ومن المهمّ أن أضيف أنّ أمّ محمّد لا تطلب على هذه المعالجات أجرًا، لكنّ الناس المقتدرين يرسلون لها أجرًا على شكل هدايا؛ وخاصّة إذا تعافى المريض، وغالبية الأمراض الفيروسيّة تبرأ؛ بسبب حصانة الجسم بعد أيّام قليلة.

طرق أخرى لعلاج اللوزتين:

الطريقة البدويّة في علاج اللوزتين قليلة الاستعمال في القرية؛ إذ يستعمل بعر الجمال الجافّ مغطّى بقطعة من القماش، يضغط بها على جانبي الرقبة.

وهناك طريقة أخرى رأيت إحدى خالات الوالدة (عائشة بنت كحيص) تستعملها؛ إذْ كانت تضع القطن فوق غصين مرن ناعم. وكان القطن يغطّى بمسحوق الكركم؛ فتفرك اللوزتين واللهاة بالقطن، وتطليه بالكركم. وكنتُ على علم بوفاة رضيع أثناء ذلك العلاج؛ ممّا جعلني أشكّ– بعد أن صرت طبيبًا– أنّ القطن أصبح فضفاضًا ودخل القصبة الهوائيّة؛ ممّا تسبّب في اختناق الرضيع ووفاته، والله أعلم.

٦. جبر كسور العظام:

لم أشاهد تجبير العظام في معيريض، ولكن سمعت عنه، وكانت خبرة البدو في التجبير أشهر. واشتهر العرب بالتجبير منذ أقدم العصور. ومن حسن الحظّ أنّ من طبيعة العظام أنّها تلتحم بسهولة خلال ٦ أسابيع، وتستقيم بعد عدّة أشهر دون اعوجاج، ولو لم يفلح المجبّر بإتقان استقامتها؛ فالمجبّر يلفّ مكان الكسر بقماش ويضع خلطة معيّنة فوق مكان الكسر ويحاول أن يجعلها مستقيمة قدر الإمكان، ثمّ يضع حول الكسر قطعًا من الجريد، ويربطها بإحكام؛ كي لا تتحرّك، لمدّة لا تقلّ عن ٤٠ يومًا.

٧. السلّ:

كنت أسمع من الأهل والجيران في القرية أنّ فلانًا مسلول. وكانوا يدركون أنّ المرض معد، ولكن، من الصعب عزل مريض في بيته لعدّة سنوات. ولم يكن هناك تشخيص طبّيّ أو أشعّة في البلاد؛ لذلك كلّ من كان يسعل لمدّة طويلة ونحل جسمه، أو وجد الدم في بلغمه، قالوا إنّه مسلول؛ فيتجنّبه الناس عدا أهله. وقد يكون ذلك التشخيص صحيحًا في أكثر الحالات، لكنّ أعراض السرطان الرئويّ مشابهة لذلك أيضًا.

والسلّ مرض جرثوميّ قاتل في الغالب، ولكن قد يشفى المريض منه في حالات نادرة دون علاج. وقد يتحوّل من مرض نشط إلى سبات غير نشط لسنين، ثمّ ينشط في حالة مرض شديد آخر، أو سوء تغذية، أو ضعف الحصانة الجسميّة لتقدّم السنّ.

السلّ ليس مرَضًا حديثًا، بل كان يصيب البشر مُنذ العصور القديمة جدًّا؛ فلقد اكتشف في بقايا الهياكل العظميّة للبشر في عصور ما قبل التاريخ منذ عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد، ووجد في اللومياوات المصريّة التي يرجع تاريخها إلى ٣٠٠٠–٢٤٠٠ قبل الميلاد. يُصيب السلّ أيّ جزء من الجسم، ولكن ٩٠٪ من الإصابات في الرئتين. ومن الأعراض الكلاسيكيّة لعدوى السلّ: السعال المزمن مع البلغم المشوب بالدم، وحمّى، وتعرّق ليلي، وفقدان الوزن. والمجتمعات الفقيرة –مثل مجتمع المعيريض معرّضة للسلّ– بسبب الجهل والفقر وسوء التغذية. وكان الكثير من الرجال –وخاصّة البحّارة في معيريض– مدمنين على التدخين، ويستعملون القدو أو النارجيلة (الشيشة) في الغالب. وخطورة ذلك التدخين، هو أنّه يقلّل حصانة الجسم ضدّ الأمراض، كما أنّ تدخين الشيشة ينقل العدوى؛ لاشتراك المدخّنين بأنبوبة الشيشة الملوّثة في أفواههم؛ لذلك استنتج والدي –الذي كان يحرّم تدخين التنباك في فتاويه، وفي خطبه في يوم الجمعة –من كثرة ما شاهد من السعال في المدخّنين– أنّه يجلب لهم السلّ؛ وذلك في قصيدته (اللآلئ السنيّة) التي نشرها سنة ١٩٥٠ قبل أن يعرف الأطبّاء أضرار التدخين؛ إذ قال:

ودَعِ التنباكَ واهجرْ شُربَهُ حُرّمَ البيعُ به مثلَ الشِرا
ضرَّرَ الأجسامَ أفنى الدرهمَا يورثُ السلَّ ويُعمي البصرا

ولقد خمّست أنا قصيدة الوالد تلك، ووضعت ما قاله الوالد بين قوسين؛ لتمييزه عمّا قلته أنا؛ فعن البيت الثاني أعلاه قلت:

(ضرّرَ الأجسامَ أفنى الدرهمَا) أتلفَ القلبَ ووافى بالعَمى
كلُّ داءٍ في الخلايا قد نَما فلمَ التدخينُ يا قومُ لِما؟
(يورثُ السلَّ ويُعمي البصرا)

أمّا أنّ التدخين يعمي البصر، فقد أثبت الطبّ– بعد ذلك بسنين– صحّة ذلك الادّعاء؛ إذ أثبت أنّ التدخين يسبّب تغيّرًا داخل العين يسمّى– علميًّا– (Macular Degeneration) يقود إلى العمى. وقد نُشر أوّل بحث يثبت ذلك، في عدد ٩ أكتوبر ١٩٩٦ من مجلّة الجمعيّة الطبّيّة الأمريكيّة (JAMA) الشهيرة.
ولم يكن للسلّ علاج ناجع لقرون عديدة، حتى اكتشف المضادّ الحيويّ الستربتوميسين Streptomycin عام ١٩٤٣ واستعمل عام ١٩٤٦ لعلاجه. وكان أوّل علاج ناجع للسلّ، ثمّ تلته أدوية ناجعة أخرى.

٨. الختان:

من ذكرياتي الشخصيّة–مع الطّبّ الشعبيّ في معيريض–قصّة ختاني؛ فهي تعطي صورة واضحة لتلك العمليّة في حيّنا آنذاك؛ فقد كنت في الرابعة من العمر لمّا أخذت إلى مجلس الحاجّ إسماعيل للتختين مع مجموعة من رفاقي الأطفال. وكان الوالد في المجلس مع آباء بقيّة الأطفال؛ فكانوا يأتون بنا من بيوتنا إلى المجلس، واحدًا واحدًا؛ حتّى لا تُثار شكوكنا. أتى من الجيران إلى بيتنا عبد الرحيم جكّة؛ وهو من تلاميذ الوالد، وأخبرني أنّ والدي في مجلس الحاجّ إسماعيل يريد أن يعطيني برميت (نوع من حلاوة)، فتحمّست فرحًا؛ للذهاب معه. أجلسني حول رقبته، وأخذني إلى المجلس. وفي المجلس وضعت على كرسيّ صغير في وسط المجلس، والرجال ينظرون إليّ، وأبي يكلّمني بلطف، وقام الحسّان الذي كنت أحبّه وأثق فيه بإجراء العمليّة.

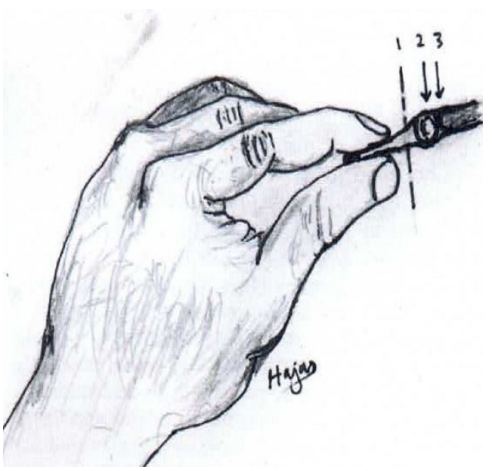

عمليّة التختين القديمة: ١. مكان القطع ٢. التيلة الزجاجيّة الصغيرة ٣. رأس الذكر

يضع المختن كرة زجاجيّة صغيرة داخل جلدة الذكر؛ فتدفع رأسه إلى الوراء بعيدًا عن مكان القطع بـ(الموس) لسلامته، ثمّ يسحبُ الجلدةَ ويقطعها من بين أصابعه والكرة الزجاجيّة كما رسمت.

وقد وصفت عمليّة تختيني، التي قام بها الحسّان، الذي كنت أعرفه وأثق فيه، في لاميّة الخليج بالتفصيل:

وُضِعتُ على التختِ الصغيرِ بمُفردي ... وحولي رجالٌ ينظرونَ إلى شَكلي[1]
وبينَهمُ الحَسَّانُ جاءَ ببسمةٍ ... وأخْرج لي البُرمَيتَ من جيبهِ السفلي[2]
وزادَ عليهِ من مِيَرّ مُلبَّسًا ... مُلَبَّسُهُ يُغري وبُرميتُهُ يُسلي[3]
له لحيةٌ بيضاءُ شعشَعَ نورُها ... على وجههِ بالصدقِ والحِلمِ والعقلِ
وجاءَ عُبيدٌ من ورائيْ مخادِعًا ... يلامِسُ رأسي كالصديقِ وكالخلّ
وغطّى على عيني بكفّيهِ قائلًا ... هلمَّ إلى لَعبٍ تبادرُ بالحَلّ
دَعاني إلى عدِّ الأصابعِ حاسِبًا ... أصابعَ كفّيهِ، فكان بها شُغْلي
فبادرَ لي الحسَّانُ يَذبَحُ مُسرعًا ... جُليدةَ سنبولي بمُوسٍ به قتلي[4]
فتختينُه قد كان قطّعَ عُنْيقَهِ ... كما يقطعُ الجزّارُ في عُنقِ الحَمْلِ[5]
يقينًا لقد خُتِّنتُ من غيرِ أن أرى ... جِراحي، ولم أشعُرْ ببترٍ ولا قطْلِ[6]
ولكنّني صرَّختُ لمّا رأيتُهُ ... يمسّحُ صِبغَ الدَّمِ عن صَفحةِ النصلِ
فصحتُ لأنّ الدمَّ لاحَ لناظري ... على العضوِ قاني اللونِ يُرعبُ كالسيلِ
توهّمتُ أنّي قد لُدِغتُ بغفلةٍ ... وعانيتُ ذاك الوقتَ من نهشةِ الصِّلِّ[7]
فقام أبي يُثني عليَّ لأنّني ... صَبَرتُ على التختينِ كالبطلِ الفحْلِ
وقبّلني والدمُّ ينزِفُ سائلًا ... على قُطنةٍ صفراءَ تقطرُ في الرملِ[8]
فقال ليَ الحسَّانُ إنّ دواءَه ... عجيبٌ فصبرًا يا بنيَّ على الحلّ[9]
وصبَّ على السنبولِ من غَرشةِ الدوا ... قُطيراتِ عايدينٍ لها لسعةُ النحلِ[10]
ولفَّ على جُرحِ القضيبِ عِمامةً ... من القطنِ قد مالتْ برفقٍ على رجلي
فلمّا انجلى للعينِ ما كنتُ جاهِلًا ... علمتُ بأنَّ القومَ إستسهلوا جهلي
فأغرَوا بحلواهم وسنّوا سيوفَهم ... وقد أضمروا لي الجِدَّ في صورةِ الهَزْلِ

إصابات وأمراض عانيت منها

١. جرح في الرأس:

ذكرت–سابقًا– قصّة الجرح في رأسي؛ عندما كنت صبيًّا صغيرًا أسبح مع ابنة خالتي التي كانت في سنّي، في حوض النخل في شمل؛ فتبارينا في البقاء تحت الماء، فغلبتها، وظللت ماسكًا نفَسي تحت الماء، ولمّا لم أتحمّل الغطس أكثر، قفزت من تحت الماء بسرعة، وهي واقفة تضحك؛ فارتطم رأسي بأسنانها الأماميّة، تاركًا جرحًا عميقًا في رأسي وألمًا شديدًا في أسنانها. وأسرعت الخالات؛ للإنقاذ. فحشون الجرح برماد حطب السمر، وكنزنا الجرح بالتمر، وربطن رأسي بقماش. وما زال أثر ذاك الجرح في رأسي حتّى الآن.

---

١. تخت: طاولة.
٢. حسَّان: حلّاق، ويسمّى أيضًا المزيّن (خليج). وأصل الحسّان في اللغة: الذي يحسّن الشيء.
٣. الميرّ: الدرج، وأصلها المجرّ (الذي يُجرّ) قلبت الجيم ياء (خليج). مُلبَّس: حلاوة طويلة الشكل.
٤. جُليدة: تصغير جلدة. سنبول: ذكَر الطفل، وهذه التسمية شائعة في الإمارات العربيّة المتّحدة (خليج). موس: موسى الحلاقة (خليج).
٥. الحمْل: الحمَل. سكّنت الميم للضرورة.
٦. القطل: القطع.
٧. الصلّ: الثعبان.
٨. قطنة صفراء: يقصدُ أنّها غير نظيفة.
٩. الحَل: المحلول (خليج).
١٠. غرشة: قارورة (خليج)، عايدين: صبغة اليود (خليج).

٢. حزازة في الرأس:

الحزازة

أصبت بالتهاب على شكل حلقة حمراء على منبت الشعر في جانب الرأس ما يلي الأذن اليسرى؛ أي الفود، وكنّا نسمي تلك الإصابة «حزازة»، وفي غير الخليج تسمّى سعفة الرأس، وهي عدوى فطريّة تصيب جلد وشعر فروة الرأس. وهو ناتج في المقام الأوّل عن أنواع من الفطريّات الجلديّة. ويمكن للفطريّات أن تخترق غمد الجذر الخارجيّ لبصيلات الشعر وقد تغزو في النهاية جذع الشعرة. والاسم الطبّيّ للمرض Tinea Capitis. وسبّب لي ذاك الالتهاب الفطريّ حكّة في الجلد، وتساقط الشعر في منطقة الإصابة، عانيت منه أسابيع طويلة، ثمّ تطوّر بمضاعفات بكتيريّة فوق الفطريّة. ولم يكن أحدٌ يعرف علاجه. وبعد عدّة أسابيع وبروز الغي (الصديد) على موقع الإصابة في الرأس، رآني رجل عجوز من أقارب معلّمتي، السّيد أحمد بو غيث، وقال إنّه يستطيع أن يعالجني؛ فتبرّع بالعلاج دون استئذان والدي؛ باعتبار ذلك خدمة لوجه الله؛ فأخذ جلد حيوان من مكبّ النفايات، وحرقه بالنار، ثمّ سحقه سحقًا جيّدًا، ثمّ كان يأخذني إلى البحر كلّ يوم، فيغسل الالتهاب بماء البحر، وفركه بريشة دجاجة مبللة بماء البحر، ثمّ ينثر عليه المسحوق الأسود. وبعد أسبوع من العلاج شفيت من المرض تمامًا، والحمد لله.

بقايا أثر الإصابة حتى اليوم في راسي

لا أعتقد أنّ مسحوق الجلد هو العلاج السحريّ، ولكن من المعروف علميًّا أنّ الماء المالح مثل ماء البحر قادر على قتل البكتيريا والفطريّات. وماء البحر يسرع من التئام الجروح والإلتهابات الجلديّة السطحيّة. كما أنّه يساعد في تجفيف بقع الطفح الجلديّ. وقد استعمل ماء البحر؛ لعلاج الجروح والحروق في الخليج قديمًا. ولكنّ الجلد المحروق النظيف غطّى الإصابة عن الذباب الناقل للبكتيريا وجفّفها؛ فساعد على البرء.

٣. دود البطن:

كنت –وبقيّة الأطفال في معيريض– نعاني من ديدان البطن الدائريّة الشكل الأسكارس Ascaris؛ وهو مرض منتشر في البلدان التي تكثر فيها الأمّيّة والجهل، وتقلّ فيها النظافة. منظّمة الصحّة العالميّة تقول إنّ ١٠٪ من سكّان العالم يعانون من هذا المرض؛ وهو مرض ينتقل من اليد الملوّثة إلى الفم.

دودة الأسكارس

المشكلة أنّنا كنّا نقضي حاجاتنا على ساحل البحر؛ لعدم وجود مراحيض في البيوت؛ فكنّا قد تعوّدنا مشاهدة الديدان تخرج من البراز وتتحرّك على الرمل. أمّا الكبار فكانوا يكتمون الأمر.

فهذه الديدان طفيلات تعيش في الأمعاء، وتخرج هي وبيضها في البراز. وبعد التبرّز يغسل الأطفال أدبارهم في ماء البحر باليد. ولم يكن الصابون يستعمل مع ماء البحر، كما أنّ الصابون مع الماء العذب كان يستعمل للاستحمام، أو غسل اليد بعد الطعام فقط، لا بعد قضاء الحاجة. فيد المصاب ملوّثة ببيض الديدان، وكذلك الطين والرمل إذا تبرّز الطفل المصاب فيهما، فتنقل العدوى بلمسها. والذباب عامل مهمّ في نقل بيض الديدان من البراز إلى الأطعمة التي يأكلها الناس؛ فبيض الدود ينتقل من يد المصاب أو بلمس الأوساخ الملوّثة، أو من الذباب الذي يحلّ على الأطعمة، فيبلعها الإنسان مع الطعام، فتصل إلى الأمعاء فتتكاثر وتكبر. واليرقة الصغيرة التي تخرج من البيضة بعد فقسها، يمكن أن تدخل دم

المريض وتنتقل إلى أجزاء أخرى من الجسم مثل الرئة.
غالبًا لا تظهر أيّ أعراض على الأشخاص المصابين بهذه الديدان، وإذا ظهرت الأعراض تكون خفيفة؛ تشمل عدم ارتياح أو ألما في البطن، وأحيانًا تكون الإصابة الشديدة؛ فتسدّ الديدان الأمعاء وتبطئ النمو عند الأطفال. كما أنّ الديدان الكبيرة قد تهاجر إلى أعلى الجهاز الهضميّ، إلى المعدة والمريء ومن الحلق قد تخرج من الأنف، أو تدخل في القصبة الهوائيّة وتسبّب سعالًا. ولقد شاهدت دودًا يخرج من أنف أختي وهي نائمة، فسحبته أمّي من أنفها.
طول دودة الأسكاريس الأنثى بين ٢٠- ٣٥ سم، والذكر ١٥-٣١ سم، والعرض عرض قلم الرصاص؛ فلولا تكرار بلع بيض الدودة، لتخلّص المصاب من المرض خلال سنتين دون علاج؛ فالدودة تبيض ٢٠٠ ألف بيضة في اليوم.

٤. العلاج الخطير:

كانت عجوز من جيراننا قد جرّبت قتل النمل والدود في بيتها؛ بصبّ الكاز (الكيروسين) عليها. فنصحت أمّي، التي أقلقها كثرة الديدان الخارجة من بطني، أنّ تسقيني كوبًا منه؛ للتخلّص من الديدان؛ ففي بداية فصل الصيف -وقد انتقلنا للتصييف قرب نخلنا في شمل، وأنا في السادسة أو السابعة من العمر- سقتني أمّي كوبًا من الكيروسين في الصباح، بعد أن ذهب الوالد إلى منطقة العريبي؛ لزيارة الشيخ حميد بن محمّد القاسميّ. وجلَسَت أمّي تنتظر حاجتي إلى التبرّز؛ لترى مفعول «الدواء». ولا أدري كم استغرقت تلك المادّة السّامة في بطني قبل أن أفقد الوعي، وأدخل في غيبوبة دون حراك. فلمّا فقدت الوعي ظنّت أمّي بأني أصبت بالصرعة، كما كان يصاب أبي أحيانًا، لبضع دقائق، ثم تنتهي الصرعة. وكانت أمّي تعتقد -كما اعتقد غيرها من الناس آنذاك- أنّ الصرعة جنّيّة تصيب الإنسان، فيقرؤون عليها القرآن؛ لتذهب. ولكنّ غيبوبتي طالت لعدّة ساعات.
استنجدت الوالدة بأهلها في شمل، فأتوا؛ لرؤيتي، ولم تكن عندهم حيلة لإسعافي إلا قراءة القرآن؛ إذ لم يكن في رأس الخيمة آنذاك طبيب أو مستشفى. ولم يخطر على بال أمّي أنّي قد تسمّمت بالكاز. أرسلت أمّي إلى أبي في العريبي أحد الرجال من أهلها، تطلب عودته بسرعة؛ لفقدي الوعي. ولم تكن عندنا آنذاك سيّارات. ويحتاج الرسول مدّة ساعة ونصف ليصل إلى العريبي ماشيًا بسرعة، كما أنّ الوالد يحتاج نفس تلك المدّة ليعود من العريبي على حماره. ولم أعلم كم بقيت في الغيبوبة، ولكن عرفت -فيما بعد- أنّه لمّا فتحت عيني وصرت أسمع والدي يؤذّن في أذني، ويقرأ القرآن، ولا أستطيع الحراك، لم تكن الشمس قد غربت.
ولمّا سمعت تفاصيل ما حدث لي في اليوم التالي، نسيت الكثير من التفاصيل بعد مرور السنين. وبعد أن تخرّجت في كلّيّة الطب، سألت أمّي عن تفاصيل تلك الحادثة، فلم تستطع أن تتذكّرها جيّدًا، أو أنّ الموضوع يؤلمها فلا تودّ أن تتذكّره.
من الناحية الطبّيّة فقد علمت أنّ التسمّم بالكيروسين يسبّب القيء، وتشنّجات المعدة، والسعال، والنعاس والتهيّج وفقدان الوعي. وقد يكون من الصعب على المصاب التنفّس؛ وهو أخطر الأمور الذي يحتاج إلى معدّات التنفّس الصناعي للإنقاذ. وتعتمد شدّة المضاعفات على كمّيّة الجرعة المشروبة. وغالبًا ما يكون المصاب في شبه غيبوبة أوغيبوبة تامّة وتشنّجات. ومن حسن الحظّ أنّ أمعاء الإنسان لا تمتصّ إلا القليل من الكيروسين، وإلا فكوب منه قد يكون قاتلًا. مع ذلك فهناك وفيات وقعت؛ بسبب التسمّم بالكيروسين في المراجع الطبّيّة.
أمّا ديدان الأسكارس فلا شك أنّ الكيروسين قد قضى عليها تمامًا، وكاد يقضي عليّ أيضًا.

أمراض أبي وإصاباته

١. العشاء الليليّ:

عندما كان عمري حوالي ٨ سنوات، أصيب والدي بمرض العشاء الليليّ؛ فلم يكن يستطيع أن يرى الطريق بين الغرف في منزلنا ليلًا، أو الذهاب إلى المسجد للصلاة دون مساعدة؛ فكنت أقوده إلى المسجد. ومع ذلك، استمرّ في الاستمتاع بقراءة كتبه ليلًا بجوار مصباح الكيروسين، من غروب الشمس حتّى موعد النوم؛ فكان وحيدًا في غرفته يقرأ بهدوء، باستثناء بضع دقائق من الصلوات في الليل.
لماذا يصاب الناس بالعمى الليليّ؟ لم يكن أحد يعرف في رأس الخيمة سبب ذلك. ولم يكن لدينا سوى الطبّ التقليديّ القديم، الذي مارسه بعض كبار السنّ الأميّين؛ لذلك طلب والدي المشورة العلاجيّة من أحد هؤلاء المعالجين المسنّين؛

فكانت «الوصفة» عبارة عن زيت كبد السمك المستخرج بالطبخ على الفحم، ليتمّ فركه داخل العينين باستخدام مرود الكحل، كلّ ليلة لمدّة أسبوع؛ فقام صيّاد السمك، صديق والدي، عليّ بن غانم بن حميّد بتزويدنا –بعد غروب الشمس– إما بكبد سمكة كبيرة أو سمكة كاملة. وكانت والدتي تحضر الفحم بعد صلاة المغرب وتضع الكبد فوقه، على حين جلست أنا وأختي مع والدنا نراقب التحضير العلاجيّ؛ فعندما تنضج الكبد، ويبدأ الزيت في التسرّب على سطحها، تقوم والدتي بإدخال مرود فضيّ في دهن الكبد، ثمّ تعطيه لوالدي، الذي ينتظر حتّى يبرد المرود، المشبع بزيت كبد السمك، ثم يدخله بين الجفنين لكلّ العين، ويغلقهما عليه ويسحبه خارج العين. بعد ذلك، كان يأكل الكبد المشويّ، على الرغم من أنّه لم يكن جزءًا من الوصفة الطّبّيّة؛ فبعد أيّام قليلة تحسّن، وفي غضون أسبوع واحد استعاد الوالد رؤيته الليليّة تمامًا.

السبب العلميّ للعشاء الليليّ هو نقص فيتامين أ (Vitamin A) في الجسم. وبالصدفة اكتشف في الحضارات القديمة –مثل: البابليّة، والفرعونيّة، والإغريقيةّ– أنّ كبد الحيوان –مثل البقر– يشفي من المرض. استعمل البابليّون كبد الغنم، أمّا المصريّون والإغريق فكبد البقر، وفي الخليج كبد السمك. فبدؤوا بالتكحّل بزيت الكبد أو التبخّر ببخاره، ثمّ أضاف الإغريق أكل الكبد أيضًا. فحتّى الذين يوصفون لهم التكحّل بزيت الكبد المشويّة، لن يتركوا الكبد المشويّة اللذيذة دون أكلها؛ فأكل الكبد هو العلاج الحقيقيّ لا التكحّل. وفي العصر العبّاسي اقتبس العرب العلاج الإغريقيّ؛ فأكلوا كبد الحيوان؛ والسبب أنّ الكبد علاج ناجح؛ لأنّ الحيوان –بما في ذلك الإنسان– يخزّن ذلك فيتامين A في الكبد.

وهكذا انتقل ذلك العلاج للعشاء الليليّ باستهلاك الكبود، عبر الحضارات القديمة المتتالية، حتّى وصل معيريض، لأشاهده أنا بأمّ عيني، قبل أن ينقرض وتحلّ محلّه حبوب الفيتامينات من الصيدليّات.

٢. لدغة العقرب:

في مساء أحد الأيّام، لبس الوالد نعاله؛ ليذهب إلى المسجد، فلدغته عقرب كانت في النعال. تألّم كثيرًا، فأرسلتني العائلة إلى الدكّان المجاور؛ لأشتري ترياكًا (أفيونًا) بروبيّة واحدة. ثمّ أُخذت قطعة من الترياك وأذيبت على النار، ثمّ وُضعت على مكان اللدغة فوق القدم؛ فسكن الألم وارتاح الوالد.

٣. البوصفار:

في سنة ١٩٥٤ وأنا في السنة الثالثة عشرة من العمر، مرض والدي مرضًا شديدًا في معيريض؛ إذ أصيب بألم في البطن وحمّى مع لوعان (غثيان) وقذف، وبان عليه اصفرار في الجلد. واستمرّ على تلك الحال مع «البوصفار» حوالي أسبوعين، جرّب عشرات الوصفات العلاجيّة المقترحة من الجيران والمعالجين الشعبيّين. كانت الوصفات: الكيّ، والحجامة، والأعشاب، بلا فائدة. وكان –لقلّة الحيلة– يجرّب كلّ ما اقترح عليه. حتّى إنّ رجلًا اقترح عليه أن يسبح في البحر عند غروب الشمس لمدّة أسبوع؛ فكنت أرافقه في السباحة في البحر، دون فائدة. وبعد شهرين –من المعاناة وقلّة الشهيّة والهزال– نحل جسمه وعجز عن المشي، ثمّ أتاه بدويّ من كبار السنّ بوصفة نبتة العاقول المرّة جدًّا، التي لا تأكلها إلا الجمال، فزادت حالته سوءًا.

زاره صاحبه الشيخ حميد بن محمّد القاسميّ (كما ذكرت سابقًا) وهو على وشك الموت، ولمّا رأى حالته وهزاله الشديد، أدرك أنّه في حالة خطرة؛ فقرّر نقله إلى دبي في الحال؛ لوجود طبيب مشهور فيها اسمه ماكولي؛ وهو بريطانيّ عيّنته بريطانيا مسؤولًا عن مستشفى المكتوم لمّا فتح ١٩٥١، وكان يعمل في الخدمات الطبّيّة الهنديّة فتقاعد. وقد تعاون حكام ساحل عمان على بناء ذلك المستشفى في دبي. نقل الشيخ حميد الوالد في سيّارة جيب لاندروفر، ومعه أمّي وجارنا محمّد علي يعقوب. واستغرقت الرحلة من رأس الخيمة –عبر الرمال– أكثر من أربع ساعات. ولكن، لم يجد الشيخ في المستشفى الوحيد (مستشفى المكتوم) في دبي سريرًا؛ إذ كان مجموع الأسرّة في المستشفى اثني عشر سريرًا فقط؛ فاضطرّ الشيخ إلى أن يستأجر بيتا له؛ فصار الدكتور ماكولي–طبيب المستشفى– يزوره يوميًّا في البيت؛ فشخّص مرضه بحصى في المرارة، وعالجه بالمضادّات الحيويّة والفيتامينات والسوائل في الوريد؛ وهي أدوية يعالج بها لأوّل مرّة بعد عشرات من الوصفات الشعبيّة العديمة الفائدة. وبعد أسبوعين تحسّن كثيرًا، وقدر على المشي؛ فنصحه الطبيب أن يسافر إلى الكويت لعمليّة جراحيّة في المرارة، وليس هناك في الخليج غير الكويت لمثل تلك العمليّة آنذاك. وبالفعل ذهب إلى الكويت بالباخرة، وعاد بعد العمليّة معافًى يحمل قارورة فيها حصوات المرارة التي كادت تقتله.

أمراض أمي

كانت أمّي في صحّة جيّدة، ولم تعانِ من أمراض إلا ارتفاع دقّات القلب أحيانًا. وكانت تدمن الحجامة كل عامّ؛ للوقاية من الأمراض، حتّى أقسمت عليها وأنا في المدرسة الثانويّة أن تتوقّف عن الحجامة؛ لأنّي غير مقتنع بها منذ صباي؛ فتوقّفت عن تلك العادة.

أمّي والقلب:

لمّا كنّا في معيريض، تخرّج عبد اللطيف بن سلطان بن عبد الله المناعيّ، ابن صاحب الوالد العزيز، في الهند، وعاد إلى معيريض سنة ١٩٥٥، وأنا في السنة الثانية عشرة من العمر. وانتشر الخبر في معيريض أن عبد اللطيف تخرّج طبيبًا؛ وسيبدأ علاج الناس بالطبّ الحديث؛ ففرح الوالد أن يكون ابن صاحبه طبيبًا؛ فأرسلني أطلبه؛ ليأتي لعلاج أمّي عن مرض قلبها؛ إذ تشكو من سرعة دقّات قلبها؛ فلبّى الدكتور الطلب، مفتخرًا بأنّ الشيخ ابن حجر طلبه لعلاج أمّ حجر؛ فأتى لابسًا معطف الأطبّاء الأبيض، وفي جيبه سمّاعة طبّيّة؛ ولأنّه مناعيّ وأمّي مناعيّة أيضًا، ووالد الدكتور صاحب والدها، استحت أن تقابله مباشرةً؛ فاقترح الوالد أن تقف أمّي في الغرفة وهو عند الباب خارج الغرفة. ولكنّه أراد أن يسمع دقّات قلبها؛ فبناءً على تعليماته وضعت أنا السمّاعة على صدر أمّي، وهو يستمع لها من خلف الباب؛ ثمّ أخرج من جيبه حبوبًا لها؛ كي تأخذ حبّة في اليوم، وأتوقّع أنّها كانت فيتامينات.

لا بأس في أن أقفز قليلًا إلى سنة ١٩٥٩، وأنا في زيارة للأهل في قطر، قادمًا من الكويت؛ فالتقيت «بالدكتور» عبد اللطيف المناعيّ في بيتنا عند والدي، حيث كان يعمل فنّيًا لمختبر الأسنان في مستشفى الرميلة، ولم أشأ أن أحرجه، لكنّه أخبرني بصراحة بأنّه تخرّج فنيًّا في الهند، لا طبيبًا، لكن عند العودة صار الناس ينادونه بلقب الدكتور، ولم يعرف الناس الفرق بين فنّيّ الأسنان والطبيب؛ فاضطرّ إلى أن يمثّل دور الطبيب، مؤقّتًا، ولا يعطي الناس إلا فيتامينات، حتّى حصل على وظيفة مناسبة في قطر؛ فترك معيريض.

أمّا الوالدة فبالفحص في مستشفى الرميلة، تبيّن أنّها لم يكن عندها مرض قلب، ولكن سرعة دقّات القلب؛ بسبب فقر الدم فقط؛ فإذا قلّت كرات الدم الحمراء في الدم زادت دقّات القلب؛ فإذا أخذت حبوب الحديد والفيتامينات، طابت. ولكنّ كثرة شكواها من قلبها في السنين السابقة –قبل التشخيص– جعلتني أميل للتخصّص في أمراض القلب؛ كي أعالج أمّي.

موت الجنين في بطن أمّي:

لقد احتفظت بتسجيل صوتيّ لرواية أمّي هذه القصّة لي. كانت أمّي مع الحريم يخبزن بعد العصر في بيتنا الأوّل في معيريض، وهي حامل في الشهر الأخير؛ فسمعت عن حريق كبير في بيت مجاور، فتروّعت وقامت؛ لتنظر؛ فاختل توازنها؛ فمسكت عمودًا خشبيًّا قربها، إلا أنّ العمود مال معها؛ فسقطت على ظهرها؛ فأحسّت بالألم في البطن وبالجنين يلبط في بطنها، ثمّ بدأ النزيف؛ فطلبوا الداية أمّ محمّد، التي قالت –بعد فحص البطن–: إنّ الجنين قد مات، ولا تستطيع أن تعمل لها شيئًا، ونصحت بأخذها إلى دبي فتعذّر ذلك؛ فاستمرّ النزيف يومين، وفي اليوم الثالث انتفخ البطن، وضعفت قوى أمّي حتّى أوشكت على الوفاة؛ فقرأ الوالد في كتاب من الطبّ القديم في مكتبته عن استخراج الجنين الميت، وطلب من الحاجّية خديجة حسن –صديقة العائلة– أن تشتري فرّوجا (دجاجة صغيرة)، تذبحه وتغليه في الماء، ثمّ تقطّع اللحم قطعًا صغيرة، وقرأ عليها قائمة «الأدوية» النباتيّة التي يجب خلطها باللحم، ففعلت، والوالد يشرف على الخلطة، ثمّ أمرها بتحميس اللحم والأدوية على النار لدقائق، ثمّ تركها تبرد، ثمّ إطعام أمّي من ذلك. لكن، لم تكن أمّي قادرة على الجلوس والأكل؛ فتركتها الحاجية نائمة على ظهرها، وأخذت بملعقة صغيرة شيئًا من ذلك الخليط، ووضعته في فمها، وصبّت ماء في الفم؛ لتبلعه، وكرّرت ذلك حتّى تمكّنت من إطعامها مقدار فنجان قهوة. وكان من أهل أمّي، الخالة عائشة بنت كحيص معها أيضًا. وبعد برهة من الزمن أحسّت أمّي بتقلّصات شديدة مؤلمة في البطن، أدّت إلى سقوط الجنين الميت، عند أذان المغرب، لكنّ أمّي فقدت وعيها أثناء ذلك؛ فقامت الحاجّية تصبّ الماء البارد على وجهها ورأسها بعد سقوط الجنين حتّى أفاقت. وكان الجنين أنثى.

أمراض شاهدتها أو سمعت عنها في معيريض وما جاورها

موت جدّي سالم بجرح في رجله:

لا أذكر جدّي أبا الوالدة، سالم بن هلال المناعيّ، إلا عندما رأيته مشرفًا على الموت وأنا طفل، في السنة الرابعة من العمر تقريبًا. وسأعيد قصّة وفاته التي ذكرتها سابقًا؛ لأنّها مهمّة لهذا الفصل؛ فحينما أدرك الجدّ سالم أنّه في حالة ميؤوس منها، وبأنّه ميّت لا محالة، طلب والدي أن يأتيه من معيريض حتّى يوصيه؛ فأتاه الوالد مع الوالدة وأخذاني معهما. وصلنا قبل الغروب قليلًا، فوجدناه منسدحًا على ظهره فوق حصير، ورأسه نحو الشرق ورجله إلى الغرب، أمام المخزن (حجرة من الطين والجصّ). وأستنتج الآن أنّ وفاته كانت في الشتاء؛ لأنّ الناس لم يكونوا يسكنون في المخازن الحجريّة صيفًا، بل العرش. وأذكر جيّدًا أنّ رجله كانت منتفخة ولونها مسودّ.

قالت الوالدة: إنّه أتى للنخل فوجد باب الطيّة مغلقا؛ فحاول تسلّق الطيّة؛ فسقط من فوقها. والطيّة سور محيط بمزرعة النخيل، مبنيّ من الطين والحصى؛ فأدّى السقوط إلى كسر وجرح عميق في رجله من الجهة الخلفيّة، ولم يكن هناك من يستطيع علاج جرح كبير مثل ذلك آنذاك؛ فالعلاجات البدائيّة –بالتمر والرماد– لم تنجح. «فخاس» الجرح وصار الغي (الصديد) فيه، وتسمّمت الرجل، حتّى تكوّنت الديدان في الجرح؛ وتكوّن الديدان في الجرح –في رأيي– يدلّ على وضع الذباب المنتشر في كلّ البيوت بيضه في الجرح الملوّث؛ ويرقات الذباب هي الديدان. وهذا يدل على بشاعة الوضع الصحّيّ للناس آنذاك. وقد توفي جدي بسبب ذلك الجرح لعدم توفر علاج طبي حقيقي.

الأمراض الجرثوميّة:

كانت أمراض الطفولة الجرثوميّة تصيب جميع الأطفال في المجتمع. وكان السعال الديكيّ (بوحمير) أشهرها. وكان الناس يعالجونه بطرق غريبة، مثل: الزعتر، والزنجبيل، وبول الحمار، وأكل الشنيوب (سرطان البحر). وقد ذكرت أنّ مطوّعتي التي كانت تعلّمني القرآن وأنا في السابعة من العمر، أصيب طفلها بالسعال الديكيّ، فلم يفلح في مساعدته الزعتر والزنجبيل؛ فأعطتني ملّة، وأرسلتني إلى بيت عائلة كان فيها الرجل أبيض البَشرة والزوجة سوداء؛ لأطلب أن يبول ابنهم في الملّة. وكانت أمّ الطفل قد تعوّدت على تلك الطلبات، وأعجبها أنّ بول ابنها يعتبر علاجًا للمرضى؛ فسقت المطوّعة ابنها من ذلك البول، فلم يفلح؛ فسقته بول الحمار.

البول على الجروح:

كنت أمشي من بيت المطوّعة عائدًا إلى بيتنا، فسمع صوتي جمعة الأعمى في الطريق، فناداني. ذهبت إليه فوجدت جرحًا في إبهام قدمه، يسيل منه الدم، وكان فقيرًا لا يملك نعالًا؛ فيمشي حافيًا؛ فجرحته قطعة زجاج أو قطعة صين في الرمل. جلس لي ومدّ قدمه، وطلب منّي أن أبول على الجرح ففعلت. وأزال البول الرمال من الجرح. وبعد أن جفّ البول أكمل جمعة مشواره حافيًا. وحدث ذلك مع طرار معيريض سالم الودّاد الذي طلب منّي أن أبول على جرحه ففعلت.

وإن داسَ مِسمارًا وسالت دماؤُه ... دَعانا لهَرْجِ الماءِ حالًا على الرجلِ[1]
فمارستُ ذاك الطّبَّ طفلًا وجاهلاً ... ولم أعرِفِ «العَيْدِينَ» والغَسلَ بالغَوْلِ[2]

وقد ذكرت ذلك في اللاميّة:

والواقع أنّ بول الإنسان السليم نظيفٌ؛ فاستعمال القدامى البول لتنظيف الجروح منطقيٌّ؛ لعدم وجود المطهّرات، ولم يكن يعلم الناس آنذاك، أنّ غسل الجروح بالماء والصابون، أفضل من تركها تتلوّث بالأتربة.

---

١. هرْجُ الماءِ: التبوّل؛ فهرَجَ الماءَ؛ أي: بال. بلغة مواطني الإمارات العربيّة المتّحدة (خليج). والأصل اللغوي لهرَجَ: هرَقَ؛ إذ يقلب الخليجيّون القاف جيمًا أحيانا.

٢. (العَيْدِين): صبغة اليود (خليج)، محرّفة من الإنجليزيّة آيدين. الغُوْل: هو المطهّر للجروح، ويسمّى –علميًا باللغة الإنجليزيّة– الكحول. والأصل العربيّ لكلمة الكحول الغُول: وهو كلّ ما زال به العقل.

الملاريا وطبيب الإرساليّة المسيحيّة:
كانت الحمّى الثلاثيّة (الملاريا) منتشرة في رأس الخيمة قديمًا، ومصدرها منطقة النخيل، حيث وجود الآبار العذبة والأحواض. أمّا معيريض نفسها فليس فيها مياه عذبة راكدة؛ لتكاثر البعوض. ولا شكّ عندي أنّني أصبت بالملاريا أكثر من مرّة.

كان العلاج الشعبيّ للملاريا أنواعًا مختلفة من الأعشاب، كالحلبة، والبهارات مثل: الكركم، والقرفة والزنجبيل. وكنت أسمع عن المرضى الذين يعانون من الحمّى في بيوتهم لأسابيع، ولم يكن الطبّ الشعبيّ مجديًا. ولكن أتانا مرّة طبيب أمريكيّ طويل بمعطف أبيض نظيف، من مستشفى تبشيريّ في مسقط، سائح في رأس الخيمة، ومعه حقيبة أدوية؛ ولأنّ الملاريا شائعة في عمان وساحل عمان، كان يحمل الكثير من حبوب الكينا في حقيبته. وكان يتحدّث باللغة العربيّة ويبحث عن محمومين؛ كي يعالجهم؛ وكنّا –نحن الأطفال– نأخذه من بيت إلى بيت، فيعطي المرضى أقراصًا صفراء.
لاحظت أنّ المرضى الذين كانوا يعانون من الحمّى لعدّة أشهر، طابوا من المرض تمامًا في أقلّ من أسبوعين؛ فصرت معجبًا بذلك الطبيب الأوروبيّ مع معطفه الأبيض الذي نجح في علاج الناس بسرعة عجز عنها الطبّ الشعبيّ، وصرت أريد أن أكون مثله طبيبًا حقيقيًّا أعالج الناس علاجًا صحيحًا، يشفيهم بسرعة، بدلًا من الطبّ الشعبيّ القديم الفاشل. ولا أنكر أنّ ذلك كان السبب الرئيسيّ في اختياري مهنة الطبّ، وأنا صغير في الثامنة من العمر.
وبعد أن قرأت عن الإرساليات التبشيريّة المسيحية في الخليج، وجدت أنّ ذلك الطبيب كان الأمريكي بول هاريسون، الذي عمل في مستشفى الإرسالية المسيحية في مسقط والبحرين. وعلمت من والدي أنّه التقى به في مستشفى الإرسالية في البحرين، في بداية مرضه بالمرارة، فأدخله المستشفى وعالجه، لكنه لم يفلح لأنه لم يتمكن من تشخيص المرض.
وكان هاريسون قسيسًا يخطب في يوم الأحد في المستشفى، فدعا الوالد لحضور خطبته «التبشيرية» فحضرها. ثم جلس معه الوالد بعد الخطبة، وأخبره بأن الكثير مما قاله عن المسيح وخاصة كونه ابن الله، غير صحيح بالنسبة للمسلمين. وجادله في تلك الأمور. واستغرب الوالد بأنه كان يستمع بهدوء، ودون أي انفعال ولم يزعل.
ولا شك أن الإرساليات المسيحية التي قدمت إلى الخليج منذ نهاية القرن التاسع عشر، لنشر المسيحية، ففشلت في تلك المهمة، ولكنها نجحت في إدخال الطب العلمي الحقيقي في الخليج، بعد قرون من الطب الشعبي.

الجدريّ:
أخبرتني أمّي أنّ الجدريّ كان منتشرًا في رأس الخيمة في سنة ولادتي، وكان زوج خالتي حميد بن جاسم المناعيّ مصابًا به. ولم يكن له علاج محلّي؛ فكانت العائلات تعزل المصابين في عرش بعيدة، مخصّصة للمجدورين. وقد أخبرتها العجائز أنّ الجدريّ إذا أصاب الإنسان وهو صغير فلا يكون شديدًا. ونصحوها أن تعرّضني لمجدورين. وكان أحد أقرباء أمّها مصابًا آنذاك ومعزولًا، تزوره جدّتي وتوصل له الأكل والماء؛ فأخذتني أمّي مع جدّتي للمجدور، ووضعتاني في حضنه لعدّة دقائق. ولكنّني لم أصب بالمرض خلال أسبوعين من التعرّض للمجدور؛ فأخذتاني إلى المجدور مرّة أخرى، ولكن –والحمد لله– لم أصب بالمرض.
هكذا كان الطبّ الشعبيّ القديم؛ لا يجدي نفعًا في المريض الحقيقيّ، ولكن كان له تاثير نفسيّ؛ لأنّه لم يكن له بديل لقرون عديدة. وفي الغالب تتمكّن مناعة الجسم من التخلّص من بعض الأمراض وخاصّة الفيروسيّة، فيعتقد الناس –لجهلهم بأمور الصحّة– بأنّ البرء كان بسبب الأعشاب أو الكيّ أو الحجامة. والحمد لله الذي يسّر لنا في الخليج الآن التطعيمات ضدّ الأمراض، وأحدث الطرق العلاجيّة والعمليّات الجراحيّة، التي نرى نجاحها في ارتفاع أعمار الناس وقلّة وفيات الأطفال والأمّهات، والتقدّم في علاج الحالات المستعصية. والطبّ في تطوّر مستمرّ وسريع جدًّا.

سأختتم حديثي عن معيريض، بذكر مواطن فقير يطُرُّ (يشحت) فيها، عرفته عن كثب، وسمعت مع أقراني الصبيان قصصه الخرافيّة التي كان يسلّينا بها، قرب سيف البحر، ويرفدنا بالنبق (ثمر السدر) اللذيذ من سدرته؛ وهو رجل فقير أعمى، اسمه سالم الودَّاد، بلوشيّ الأصل. ويقول بعض المؤرّخين: إنّ البلوش عرب من عمان أصلًا. ويقال: إنّه كان مستعبدًا في صغره، أعتقه مالكه بعد أن أصيب بالعمى. وقيل: إنّه ذهب إلى بيت السركال الذي يسكن فيه وكيل الحكومة البريطانيّ، وحصل على حرّيته منه، وهو حنطيّ اللون.

وقد ذكرته بإسهاب في قصيدتي (لاميّة الخليج) الزاخرة بألفاظ خليجيّة؛ لأنّ القصيدة عن العادات والتقاليد والتراث المحلّيّ. وسأعرض القصيدة مع القصّة التي سأسردها لكم، ومنها:

الطرّار

يعيش الطرّار الفقير وحيدًا، في كوخ صغير من سعف النخل، حوله حوش صغير، جنوب شرق معيريض، قريبًا من بيت السركال. وفي حوشه سدرة كبيرة يتسظِلُّ بها. وكانت سدرته تزوّد معيريض بأوراق السدر؛ لغسيل الموتى قبل الدفن. وكنت أحد الصبيان الذين يأتون بأوراق السدر من بيت الطرّار إذا مات قريب أو جار لنا. وقلت:

وقلت:
وهو معروف في القرية باسم مهنته (الطَّرّار)؛ بمعنى الشحّات. وفي لهجتنا المحلّيّة: لفظة طَرَّ تعني شيئن: شّقَّ، وفي الغالب تستعمل للثياب؛ فطّرَّ الثوب: أي: شقّه. والمعنى الآخر لطَرَّ: تسوّل. فاللفظة محلّيّة، ولكن في المعاجم لها معان أخرى، ليست بعيدة جدًّا عن ذلك؛ ففي اللغة الطَّرَّارُ: النَّشَّالُ يَشُقُّ ثوبَ الرَّجُلِ وينسُل ما فيه. فهل الطرّار يشقّ قلب الرحيم شفقة عليه؟ والطَّرّ: ما طَلَعَ من الوبَرِ، وشَعَرِ، ونقول: طرَّ شارب الصبي.
والطرّار هذا ليس كبقيّة المتسوّلين، الذين يودّ الناس التخلّص منهم، بل هو شخصيّة محبوبة في مجتمع قريتنا معيريض، له احترام وتقدير؛ فإذا لم يظهر للناس يومًا، قلقوا عليه، وخاصّة جيرانه وذهبوا إلى كوخه؛ للاطمئنان عليه:

لَعَمري لئن كانت سنونَ طفولتي ... تعودُ على ذهني ويَسري بها عقلي
فإنّي سأرويها كما بانَ طيفُها ... وإنْ وصفَ الخلّانُ، ما وصفوا مثلي!
وإنّي لوصّافٌ لكلِّ مُلِمَّةٍ ... تُلِمُّ بنا فاسمعْ و دَعْكَ من العذْلِ
وإنّي سأروي ما رأيتُ وما جَرى ... فلا فُحشَ في قولي ولا عَيبَ في فعلي
فإنْ طَرَّ شِعري من شُعورٍ وَرِثتُهُ ... فقد طَرَّ قلبي بُؤسُ مَنْ طَرَّ للأكلِ

لقد آن أن أَطريْ فقيرًا بلا أهلِ ... يَطُرُّ على البِيْبانِ يطلُبُ من أهلي[1]
فإن أذكرِ الطرّارَ بالخيرِ ها هنا ... ضريرًا نحيفًا يسأَل الناسَ في الليلِ
ضريرًا ذكيًّا يلزَمُ الدربَ وحدَه ... وفاق بصيرَ العينِ في حُلكةِ السُّبلِ[2]
فإنّي ذكرتُ البؤسَ والفقرَ والعَمى ... وراحاتِ أهل الخير دائمة الهطلِ

مع أنّه أعمى، فإنّه يدور على أبواب سكّان القرية بعد المغرب حاملًا كيسه، ولا يحمل عصا مثل بقيّة العميان، ويعرف أصحاب كلّ بيت في معيريض؛ فهو يصيح عند كلّ باب، قائلًا: «يا الله، مال الله»؛ أي أنّه يستعين بالله أن يعطوه من مال الله الذي أعطاهم. فعند ما يسمع أهلي صوته يعطونني له الطعام، كالخبز؛ لآخذه إليه، عند الباب؛ لمعرفتهم باهتمامي به، كما سأذكر أدناه. وفي رمضان يأتي مسحّرا مع شخص مبصر اسمه خمّاس، يساعده في دقّ الطبل؛

---

١. البيبان (خليج): الأبواب.
٢. حُلكة: شدّة السواد.

وكان لـه حَوْشٌ قصيرٌ جـريدُه | تمايلت الدِّفعاتُ تركع فـي ذُلِّ[1]
وعشَّتُهُ في داخلِ الحوشِ قد حنت | قوائمَهـا الأرواحُ مـع رِمَّـةِ النَّـملِ[2]
فعِشَّتُهُ كـوخٌ صغيرٌ مهلـهلٌ | وباب يصدّ العنزَ من سعف النخلِ
فمـن دَعَنٍ قد ثبَّتَ النـاسُ بابَـه | يلايمه عند الخروج بـلا قُفلِ[3]
متى همَّ سقفُ الكوخ يسجدُ فوقَه | تفازعت الجيرانُ للشدِّ بالحبلِ[4]
وإن جـاءتِ الأمطـارُ تغمرُ دارَه | ثوى صامتًا يبتـلُّ بالغيـثِ والسيلِ
وإن راعه رعدٌ يمزّقُ صمتَه | تشهَّدَ مرّاتٍ وهللَ من هولِ[5]
يسبِّحُ مرعوبًا إذا الريـحُ باغتتْ | تَهزُّ جريدَ الكوخِ تُنذرُ بالويلِ[6]

لإيقاظ الناس لتناول السحور، فأوصل له ما تيسّر من الطعام أيضًا.

لـه سدرةٌ فرعاءُ مالت غصونُها | تغطّي سماءَ الحوشِ والكوخ بالظلِّ
وأوراقُها دُقّتْ لتغسيل ميّتٍ | لها رغوةٌ في الماءِ تَصلُحُ للغسلِ

والطرّار ليس برجل خامل كسول، يأكل وينام، بل رجل يقوم بخدمات اجتماعيّة مهمّة في القرية؛ إذ تستنجد به بعض العائلات التي كان عائلها في سفر، وليس عندها من يشتري لها السمك من قوارب الصيد، قرب سيف البحر؛ إذ لا تذهب النساء لمثل تلك المهمّة؛ فتعطينه ثمن السمك المطلوب؛ ليشتري لهنّ؛ فيخرج لشراء السمك لبضع عائلات كلّ يوم. وفي صباح عطلتنا يوم الجمعة عندما يأتي الطرّار لشراء السمك، نجلس معه قرب سيف البحر، أمام بيتنا؛ فيخرج لنا «النبق» –ثمر السدر– من جيبه في الموسم، ويضعه لنا في قحفيّته (غطاء الرأس) ثمّ يخرّفنا الخراريف المسلّية، وهو ينتظر قوارب الصيد. ومرّة سألته: كيف تعرف «البيزات» التي تدفعها للسمّاكين، وأنت لا ترى؟ فأخرج لي البيزات

لقد كانَ طرّارًا من الحيّ بارزًا | يعامله الأقوامُ كالنّدِ والمثلِ
رجالٌ وأطفالٌ بحيٍّ ونسوةٌ | يحيُّونَهُ في الدربِ إنْ سارَ للسؤْلِ
إذا ليلةً لم يسمعِ النّاسُ حِسَّهُ | تساءلت الجيرانُ عنه وذو الفضلِ[7]
فإنْ غابَ عن طرٍّ ليومٍ تنافروا | إلى كوخِهِ في الليلِ للنَّشْدِ والوصْلِ[8]

المعدنيّة (الهنديّة) من جيبه وأخبرني قيمة كلّ عملة، ولكنّ عملة واحدة صغيرة تتشابه مع عملة أخرى، تذوّقها بلسانه فعرفها؛ فإذا عطش أو أحسّ بالجوع وهو يقصّ علينا القصص قال لي: «هلّله هلّله فيَّ يا حجر»، فأسرع إلى البيت وآتيه بالماء والتمر. وعندما تصل القوارب، يتغبّب في البحر، خطوات قليلة، فيشتري مشاكيك (ربطات) السمك المطلوبة للعائلات.

لقد كانت وِلادتي في سنة ١٩٤٣م، أثناء الحرب العالميّة الثانية (١٩٣٩–١٩٤٥). وفي يوم ولادتي أتى إلى معيريض

فنسمَعُ «يا أللهُ» بالبابِ سائلًا | يُردِّدُ «مالَ اللهِ» طَرًا على السبْلِ
فترفِدُه أقوامُنا كـلّ ليلـةٍ | تجودُ له بالخبزِ والتمرِ والبقلِ
عرفناهُ في شهر الصيامِ مسحّرًا | فيشدو وخمَّاسٌ يدقُّ على الطبلِ
عرفناه أعمى لا ترى النورَ عينُهُ | وتُبصر أُذناهُ بقلبٍ وبالعقلِ

---

١. الحوش: الأرض المحيطة بالدار داخل السور. الدفعات: جمع دِفعة: وهي ركن المنزل أو قطعة من الجدار (خليج).
٢. الأرواح: جمع ريح. الرمّة: الأرضة، وهي حشرة تشبه النملة تأكل الخشب (خليج).
٣. الدَّعَنُ: لفظة عمانيّة الأصل، ومعناها: السعف يضمّ بعضه إلى بعض بالحبال (خليج). وفي لسان العرب: الدعن: سعف يضَمُّ بعضه إلى بعض ويرمل بالشريط ويبسط عليه التمر (لغة أزدية). يلايمه: يصفّه أو يجمعه ويسند بعضه فوق بعض (خليج)، ونقول في الخليج :»تلايم سقف الخيمة»: أي سقط وتكدّس جريده.
٤. تفازع: تعاون، فازَعَ يفازعُ مفازعةً؛ وهو فازِعٌ أي: معينٌ. والجمع فَزْعَة (خليج)، وفي اللغة: فزع خاف أو أغاثَ (لسان العرب).
٥. هللَ : قال: لا إله إلا الله. الهولِ: المخافة.
٦. الويل: الهلاك.
٧. حِسَّه: صوته.
٨. تنافروا: تدافعوا. النشد: السؤال (خليج).

من الرمس أحد شيوخ الرمس (من آل صالح)، صاحب الوالد يزوره؛ الشيخ أحمد بن صالح؛ وهو رجل صالح وإمام مسجد، فدعاه الوالد للغداء عنده، فقبل الدعوة. ولمّا علم بأنّ والدتي (الرمسيّة) أنجبت ولدًا، سأل الوالد: «ماذا سمّيت الولد»؟ فقال: «حجر». فعلّق على الاسم، قائلاً: «حجر، اسم مناسب لهكذا زمن صعب»؛ أي زمن الحروب.

ولمّا انتهت الحرب كان عمري سنتين، فلم أدرك آثار الحرب، لكنّ الفقر الذي نتج عن الحرب استمرّ حتّى عدّة سنوات. وأذكر –وأنا في السادسة من العمر حتّى اليوم– امرأةً عجوزًا سوداء في معيريض اسمها زعفور، لا تملك ثوبًا، وفي ذلك الزمن لم تستطع امرأة أن تتبرّع لها بثوب قديم؛ فكان لباسها من الجوانيّ والخيش (القنب)؛ أي أكياس العيش، وتعوّدنا على رؤيتها بتلك الملابس الغريبة؛ ممّا يدل على شدّة الفقر.

أخبرتني أمّي أنّ الشيخ سلطان بن سالم أخبر الوالد قبل الحرب، بأنّه علم من الإنجليز بأنّ المعيشة ستكون صعبة أثناء الحرب، ونصحه أن يشتري موادّ غذائيّة ويخزّنها؛ فاشترى الوالد أكياسًا من الرزّ والطحين قبل الحرب. وروت أمّي لي قصّتين عن تلك الأيّام أواخر أيّام الحرب، وبعدها مباشرة إذ تضاعف مستوى الفقر في رأس الخيمة.

ألا رُبَّ صبحٍ قد جلستُ وصحبتي ... صِغارًا بقربِ السيف نلعب في الرملِ
فيأتي لنا الطرّارُ بالنبقِ أصفرًا ... له طعمةُ التفّاحِ أو عسلِ النحلِ
نُحيطُ به حتّى يخرّفَ جمعَنا ... فيُتحِفُنا بالنبقِ مع قصصٍ تُسلي[1]
وقد يطلب الطرّارُ زادًا وشُربةً ... نُلبّيه بالميسورِ حالًا بلا مطلِ
فنأتي له بالتمرِ في صحنِ مَعدِنٍ ... ونرويه ماءَ الخرسِ في طاسة النهلِ[2]

الأولى: كانت جدّتي أمّ الوالد تهتمّ بالفقراء وتعطف عليهم؛ فكانت تطبخ قدرًا كبيرًا للفقراء من الحيّ، وكانت أمّي تساعدها في الطبخ؛ فكانت جدّتي ترسل صبيانًا خارج القرية يجمعون لها نباتات صحراويّة معيّنة تأكلها الأغنام، فكانت تطبخها مع العيش حتى لا ينفد بسرعة، وتقدّمها مع السمك في صينيّة كبيرة يوميًّا للفقراء عند باب منزلنا. وتذوّقت أمّي تلك النبات مع العيش فكان طعمها مقبولًا.

والثانية: في تلك الفترة من الجوع، كان خالي علي قد أتى من الرمس إلى معيريض، ثمّ ذهب إلى رأس الخيمة في العبرة؛ لشراء قلّة من التمر لأهله، والقلّة وعاء مدوّر من بخوص (ورق) النخل لتخزين التمر. فلمّا عاد إلى معيريض، حاملًا القلّة قرب بيتنا، ركضت خلفه امرأة تصيح جوعًا، فوضع القلّة على الأرض، وفتحها لها؛ لتأكل كما تشاء، وابتعد عنها قليلًا، وجلس عند باب بيتنا مع أمّي، حتّى شبعت المرأة، وتركت القلّة شاكرة.

أمّا الآن فما سأخبرك به لا يمكنك أن تتوقّعه. فطرّارنا الفقير، سالم الودّاد، كان يطعم الفقراء في تلك الأيّام الصعبة، واستمرّ في ذلك لعقد أو أكثر من الزمان بعد الحرب؛ لأنّ بعض الفقراء يخجلون أن يطرُّوا (يشحتوا) أمام الناس، كانوا ينتظرونه في كوخه؛ ليعود من جولته المسائيّة؛ إذْ يطلب «من مال الله»؛ ليشارك بقيّة الفقراء في الطعام؛ فهو يجمع من بيوت معيريض، كمّيّة كافية، حتّى لو لم يتمكّن الجميع من التصدّق عليه؛ بسبب الفقر. وعلمت من والدي أنّه على علم بأنّ سالما الطرّار يساعد الفقراء الجائعين؛ لذلك فالناس يقدّرون ما يفعل ويعطونه قدر استطاعتهم؛ للأجر والثواب.

وقد قلت:

علمت أنّ فقيرًا أعمى من أصحاب الطرّار طلب منه وزارًا (إزارًا) يستر عورته، فلم يكن عنده غير وزار واحد، ولكنّه سأل بعض المقتدرين؛ ففاز بوزار قديم لصاحبه.

فذكرت ذلك، قائلًا:

وقلت عنه:

لا شك في أنّه رجل يستحقّ العطف والشفقة، وقد عانى الفقر والعمى والوحدة في كوخه. ومن مشاكل العمى أنّ رجله تعرّضت للجروح وهو لا يملك نعلًا، في فترة صعبة؛ بسبب الحرب العالميّة الثانية وما تلتها من مشاكل، وأهمّها الفقر. وقد شاهدت آثار الجروح الكثيرة على رجله، ومرّة جرحه مسمار، وهو معنا قرب السيف، فطلب منّي أن أبول على جرحه؛ لأنّ البول علاج شائع لجروح الرجل. وذكرت الحادثة:

---

١. يخرّف: يروي قصصًا خرافيّة. والنبق: فاكهة الاسدر.
٢. المعدن: الألمنيوم. الخرس: الدنّ.

الطرّار يتبنّى يتيمة:

حدث أنّ جارًا للطرّار قد توفّي وزوجته حبلى، فأنجبت بعد وفاته بنتًا، ولكنّها ما عاشت إلا بضعة أشهر ثمّ ماتت؛

فقد كان ذاكَ العصرُ عصرَ مجاعةٍ ... وأقوامُنا تشكو إلى الله من قُلِّ[1]
وقد أثّرت حربٌ على الناس كلّهمْ ... ولكنّهم جادوا معَ الفقرِ والمَحلِ[2]
وطرّارُنا قد جادَ والفقرُ عضَّهُ ... ونهَّشه في الليل بالأنيبِ العُصْلِ[3]
ويُقري ضيوفا مُعوِزينَ بكوخِه ... يشاركُهم فيما يجمِّعُ من أكلِ

فحزن الطرّار على الطفلة اليتيمة، فغامر في أخذها لكوخه ليربّيها. ولكن قرّرت بعض النساء من جيرانه مدّ العون له ومساعدته في إطعامها؛ فنجح في العناية بها. ولمّا استطاعت أن تمشي كان يأتي بها معه ويجلسها معنا. كان اسمها «غبينة»، ولا أدري إن كان ذلك ما سمّتها أمّها أم تسميته لها؛ لأنّ الاسم يوحي بأنّها «مغبونة»؛ أي مخدوعة أو منسيّة.

وساءَلَهُ أعمى إزارًا لعورةٍ ... فسارَ إلى الأجوادِ يسألُ للخلِّ
فحنّوا وأعطوهُ وِزَارًا ممزّقا ... فعادَ بفوزٍ للخليلِ بلا خذْلِ

كفيفٌ بأطمارٍ يصارعُ دهرَهُ ... زمانًا بهِ ذو الفضلِ جادوا بلا فضْلِ[4]
أناسٌ جياعٌ يبذلونَ لسائلٍ ... وسائلُهمْ يَقري يتامى وذا سُلِّ
فيُطعم أيتامًا بزادٍ يطرُّه ... ضريرٌ فقيرٌ يطعمُ الناسَ في الأزلِ[5]
يجود بما قد طرَّ في الليلِ جاهدًا ... على كلِّ ذي بُؤسٍ بصيرٍ، بلا بُخلِ

وكانت طفلة لطيفة جدًّا، فعطفنا عليها، وإن توافر عندنا البرميت (حلاوة) أعطيناها.

وقلت:

ولمّا تركت معيريض للدراسة في الكويت، كان عمر البنت غبينة حوالي خمس سنوات. وسمعت فيما بعد أنّ رجلًا من دبي تزوّجها لمّا كبرت، وأخذها إلى دبي.

مشى حافيًا لم تعرفِ النعلُ رجلَهُ ... ولا رجلُه حنّت إلى المشي بالنعلِ
عليها خطوطٌ من جروحٍ تشعّبت ... كما خطَّ رسّامٌ على الجلدِ بالنصلِ[6]
يُشَمِّخُهُ في البحر صخرٌ وصِينَةٌ ... ويُدْميهِ خالوفٌ وإن سارَ في الضحلِ[7]
ويَجرحُهُ في البرّ عودٌ وشوكَةٌ ... ونصلُ زجاجٍ يُشبِهُ الرمحَ في الشكلِ
وإن داسَ مسمارًا وسالت دماؤُه ... دعانا لهَرْجِ الماءِ حالًا على الرجلِ[8]

---

١. القُلّ: القليل.
٢. المحل: الجدب.
٣. العُصْلِ: المعقوف والمعوج.
٤. أطمار: ثياب بالية. (بلا فضل): أي يشعرون بأنّ الصدقة واجب لا فضل.
٥. الأزل: الضيق والشدّة.
٦. تشعّبت: تفرّقت.
٧. يُشَمِّخُ: يخدّش، وأصلها شَمخَ يشمخ شَمْخا: خدَش (خليج)، ولا شكّ عندي أنّ أصلها اللغويّ في الفصحى: خَمشَ، طرأ عليها القلب في الخليج، وهو معهود بين قبائل العرب. صِينَةٌ: كسرة من الخزف الصينيّ، وجمعها: صينات، وفي الخليج نطلق اسم البلد (الصين) على الأواني المنسوبة إليها فنقول صحن صين ولا نقول صينيّ؛ فإذا انكسر فكلّ قطعة نسمّيها صينة، أمّا الصينيّة فآنية كبيرة معروفة لا تصنع من الخزف الصينيّ (خليج). خالوفٌ: محار صدفيّ مخروطيّ الشكل حادّ الرأس يجرح من داسه.
٨. هَرْج الماءِ: البول، وهرَجَ الماءَ أي: بال. بلغة مواطني الإمارات العربيّة المتّحدة (خليج). والأصل اللغويّ لهرَجَ هرَقَ؛ إذ يقلب الخليجيّون القاف جيمًا –أحيانا– فنقول: جاسم وجسمة؛ أي قاسم وقسمة. وهرقَ الماء: صبَّهُ. وأصل هَرَقَ: أراقَ (المنجد).

فمارستُ ذاك الطّبَّ طفلًا وجاهلًا ... ولم أعرفِ «العَيْدِينَ» والغَسلَ بالغَوْلِ[٩]
فما كان طَبٌّ آنذاكَ بأرضنا ... يداوي جروحَ الناسِ بالبلسم الفصلِ

وأختتم لكم هذه القصيدة عن الطرّار، قائلًا:

فقد كان طرّارًا يجودُ بكسبهِ ... على طفلةٍ سمراءَ عاشت بلا أهلِ
فجاء بها في دارِهِ يعتني بها ... فشبّت على ضيقٍ تنامُ على الرملِ
فكان لها أمًّا وكان لها أبًا ... فلولاه ما عاشت من الجوع والهُزلِ
إذا ما بكت داءً بكى قلبُه أسىً ... وناحَ نُواحَ الأمّ خوفا من الثُّكلِ
إذا جاء فصل البردِ كان فراشُها ... قماشَ الجواني الخشنَ رُقِّعَ بالسُتْلي[١٠]
تَبيتُ وبردُ الليل يُرعِشُ جسمَها ... فللهِ كم قاستْ وقاسى من الفصلِ!

وما زادَ وصفي عن حقيقَةِ حالهِ ... فذاكرتي خطّتْ وأطيافهُ تُملي
فمن كان يُوقى هكذا شُحَّ نفسِه ... ستذكرُه الأقوامُ بالخيرِ والنُبلِ
فلم أرَ يا طرّارُ مثلَكَ سائلًا ... ولم أرَ يا طرّارُ بعدَكَ من مثلِ

---

٩. «العَيْدِينَ: صبغة اليود (خليج) محرّفة من الإنجليزية آيدين. الغُوْل: هو المطهّر للجروح، ويسمّى- علميًا وباللغة الإنجليزيّة- الكحول، والأصل العربيّ لكلمة الكحول الغُول: وهو كلّ ما زال به العقل. والغَول: السُكْر (المنجد). الطَّب: الحاذق.

١٠. الجواني: أكياس من قماش خشن لنقل وتخزين الرزّ والطحين (خليج). والكلمة هنديّة الأصل، كما أظنّ. السُتْلي أو سوتلي: خيط من القطن لخياطة شراع السفينة (خليجيّة من أصل هنديّ).